

دراسة حول العرب

وعلاقتهم الدولية في العصور القديمة

للدكتور . محمد بيومي مهران

أستاذ التاريخ القديم المشارك بالكلية

تحتل بلاد العرب مكانة ممتازة بين مناطق الشرق الأدنى القديم ، فهي الموطن الأصلي للساميين — سكان هذه المنطقة من العالم — وهي موطن العربية — اللغة السامية الأم — ثم هي لا تختلف عن غيرها من بلاد تلك المنطقة العريقة في الحضارة ، قامت بها دول ، ونشأت فيها حضارات ، وأنزلت على أرضها رسالات ، واصطفى الله — جل وعلا — من بنيتها بعض أنبيائه ومرسله ، وأسهمت بنصيبها فيما قدمه هذا الشرق الخالد للإنسانية من آياد بيضاء ، ومن ثم فقد تأثرت بلاد العرب بحضارة تلك المنطقة ، وأثرت فيها ، وارتبطت بها بعلاقات ، سادها الود أحياناً ، والنفور أحياناً أخرى ، وهكذا كانت لها علاقات بمصر وسورية وبلاد الرافدين ، فضلاً عن الحبشة واليونان والرومان والفرس ، ومن ثم فتاريخها جزء من تاريخ الشرق الأدنى القديم ، تعرضت للضغط الخارجي ، يوم تعرض هذا الشرق لهذا الضغط أو ذاك ، ونعمت بخيراتها يوم أن كان أمر هذا الشرق في أيدي أبنائه ، ولاقت ما لاقى هذا الشرق ، يوم أن كانت قوى أجنبية تتحكم في مصايره ، وتجنّي خيراته ، ومن ثم فليس عجباً أن كان التاريخ العربي القديم متأثراً بتاريخ الشرق الأدنى القديم ، ومؤثراً فيه .

وتحكي صفحات هذه الدراسة قصة العلاقات في عصور ما قبل الإسلام ،

بين العرب وجيرانهم ، من مصريين وأحباش ، إلى جانب سكان بلاد الرافدين وبني إسرائيل ، فضلاً عن اليونان والرومان .

أولاً : العرب والمصريون :

يكاد يجمع العلماء على أن أرجح الآراء ، فيما يتصل بالموطن الأصلي للساميين ، إنما هو شبه الجزيرة العربية^(١) ، ذلك الخزان البشري الشهير ، الذي لم يتوقف عن أن يقذف — كإقليم طرد وكصحراء فقيرة ، ولكنها ولود — بالموجة تلو الموجة إلى منطقة الهلال الخصيب المتاخمة والجذابة ، وإلى وادي النيل عبر البحر الأحمر ، أو عن طريق سيناء^(٢) ، والواقع أن بلاد العرب كانت — وما تزال — في معظمها أراضي صحراوية ، يحيط البحر بأطرافها — ما عدا القسم الشمالي — فإذا زاد سكانها وعجزت عن إمدادهم بالغذاء الضروري ، كان طبيعياً أن يرحل الفائض من السكان إلى منطقة الهلال الخصيب ومصر^(٣) .

وقد اختلف العلماء في المكان الذي كان الموطن الأول للساميين من شبه الجزيرة العربية ، فذهب فريق إلى أن ذلك ، إنما كان في أواسط شبه الجزيرة — ولا سيما نجد^(٤) — بينما ذهب فريق آخر إلى العروض — ولا سيما جزيرة البحرين والسواحل المقابلة لها — على أن فريقاً ثالثاً ، إنما يرجع أن يكون ذلك المكان في الأقسام الجنوبية^(٥) ،

(١) انظر مقالنا « الساميون والآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي » مجلة كلية اللغة العربية — العدد الرابع — ص ٢٤٥ — ٢٧١ ، وكذا

L.W. King, History of Summer and Akkad, London, 1915, P. 119.

وكذا S. A. Cook, CAH, I, 19123, P. 397 وكذا E. Schrader, ZDMG, 27, 1873.

(٢) جمال حمدان : اليهود أنثروبولوجيا — القاهرة ١٩٦٧ ص ٣ .

(٣) H.B. Philby, The Background of Islam, Alexandria, 1947, p. 9f.

(٤) J. Hastings, A Dictionary of the Bible, Edinburgh, 1936, p. 74.

(٥) H.B. Philby, op. cit., P. 9.

وفي اليمن بصفة خاصة^(١) .

وأياً ما كان الأمر ، فإن هذه الآراء جميعاً ، إنما تلتقي في نقطة واحدة ، هي أن بلاد العرب هي الموطن الأصلي للساميين ، ومن ثم يمكن تفسير حركات القبائل السامية من البادية إلى أودية الأنهار الحصبة ، والتي بدأت منذ عصور ما قبل التاريخ ، ولم تتوقف إطلاقاً حتى الفتح الإسلامي .

وهكذا رأينا الساميين أنفسهم يقولون إنهم هاجروا من بلاد العرب ، قال ذلك الأكاديون — على لسان سرجون الأول — وقال ذلك المصريون ، حين روى قدماءوهم أنهم جاءوا من الشرق ، ومن الجنوب الشرقي ، وأنهم علموا الحضارة لمن كانوا في البلاد ، وأخضعوها لسلطانهم ، ويصفون الطريق الذي جاءوا منه وصفاً غامضاً ، لا نعرف عنه شيئاً على وجه التحقيق في بدايته ، ولكنهم استخدموا الطريق الموصل بين البحر الأحمر والنيل ، ماراً بوادي الحمامات بعد ذلك ، وقد ظل هذا الوادي إلى آخر عهد الفراعنة يتمتع بشيء من التقديس^(٢) ، كما كانوا يسمونه « طريق الآلهة » ، إشارة إلى مجيء بعض أسلافهم ومعهم آلهتهم من هذا الطريق ، وما من شك في أن صلة مصر بالشعوب السامية في عصر ما قبل التاريخ ، تركت آثارها في اللغة المصرية القديمة ، سواء في مفرداتها ، أو في أجروميته^(٣) .

والأمر كذلك بالنسبة إلى ذكرى آل « شمسو — حور » أي « أتباع الإله حور »^(٤)

(١) J.A. Montgomery, Arabia and the Bible, P. 126.

(٢) أحمد فخري : اليمن ، ماضيها وحاضرها ص ٦٣ ، دراسات في تاريخ الشرق القديم ص ١٣٥ .

(٣) نفسه ص ٣١ وكذا

T.W. Thacker, the Relations of Semitic and Egyptian Verbal Systems, Oxford, 1954.

(٤) هم الأسلاف المباثرون للملك مينا مؤسس الملكية الفرعونية ، وقد وصفوا « بالأرواح المبجلة » ، كما عرفوا في التاريخ « بأصحاب مملكة مصر العليا » ، وعلى أيديهم تحققت وحدة مصر بقيادة مينا (مني) حوالي عام ٣٢٠٠ ق.م ، وذلك حين بدأ المظهر الختامي لتاريخ ما قبل الأسرات من هيراقونبوليس =

ولكن من هو الإله حور هذا ، وما أصله ؟ والجواب على ذلك ، أن هذا الإله لم تكن له في الأصل صلة بعبادة الشمس ، وإن كان رمزاً اتخذته إحدى القبائل ، كمعبود لها على هيئة الصقر ، وأنه جاء مع الفاتحين ، وفي نصوص الأهرام (وهي من أقدم وأهم المراجع الدينية ٢٥٠٠-٢٢٥٠ ق.م) يصفون هذا الإله تارة بكلمة « أختي » ، وتارة بكلمة « أبتي » والأولى معناها « أفق الشمس » والثانية معناها « الشرق » ، وكلا الكلمتين تشير إلى المشرق ، ويذهب أستاذنا الدكتور أحمد فخري — طيب الله ثراه — إلى أن هناك إشارات كثيرة إلى أن الموطن الأصلي لحور ، هو بلاد « بونت » ، وإلى أن اسم « حر » (حور) غريب على اللغة المصرية ، ولكنه موجود في اللغات السامية ، وبعبارة أدق في اللغة العربية^(١) ، حيث تطلق العرب اسم « حر » على الصقر المعروف باسم « Faucon Pelerin »^(٢) وقد نقل « الدميري » عن « ابن سيده » أن « الحر طائر صغير أتمر أصقع قصير الذنب عظيم المنكبين والرأس ، وقيل إنه يضرب إلى الخضرة وهو يصيد » ، وأما الصقر فهو كلمة عامة لكل طير يصيد من البزاة والشواهين^(٣) ، وما زالت كلمة « حر » مستعملة إلى الآن في كثير من بلاد العرب وشمال أفريقيا لهذا الطير^(٤) .

وهناك من يذهب إلى أن هؤلاء الوافدين « أتباع حور » عبروا من شبه جزيرة العرب إلى الشاطئ الأفريقي في أرتيريا ثم صاروا مخترقين البلاد حتى وصلوا إلى

= (نخن = البصيلية مركز أدفو) ، وانتهى بغزو مصر السفلى ، وتوحيد القطرين ، وقيام الملكية المصرية انظر محمد بيومي مهران : حركات التحرير في مصر القديمة — الاسكندرية ١٩٧٦ ص ٨٦ ، وكذا A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, P. 422.

J.E. Quibell and F.W. Green, Hierakonpolis, 2 vols. London, 1900-1902.

(١) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٣٥ .

(٢) V. Loret, Horus la Facucon, BIFAO, 3, 1903, P. 15-16.

(٣) كمال الدين الدميري : كتاب حياة الحيوان الكبرى ٤٣٢/١ ، ٩١/٢ .

(٤) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٣٦ .

صحراء مصر الشرقية ودخلوها عن طريق وادي الحمامات^(١) ، وأن الإله الصقر حور ، قد اختلط مع الصقور التي كانت تعبد في مصر ، ذلك أن الشعب لابس الريشة الذي وفد إلى مصر من الشرق قادماً من بلاد العرب في منتصف عصر الحضارة الأولى ، أو خلال الفترة المبكرة من العصر الأنثوليبي ، ثم سرعان ما استقر هذا الشعب في المناطق الجبلية التي تحد وادي الحمامات ، وفي الوادي نفسه ، حيث تركوا رسومهم^(٢) ، ويرى « مرسر » أن كلمة « حر » المصرية لم تكن في ذلك العصر المبكر تعني « صقر » ، إلا إذا كانت صيغة مصرية من كلمة « حر » العربية التي تعني « صقر » ، وفي هذه الحالة فإن الكلمة تدل على أصل عربي للإله حور^(٣) .

وأخيراً فهناك الكثير من الشواهد التاريخية التي تثبت الأصل المشترك للإلهين « حور ، ومين » وأن هذا الأصل إنما يرجع إلى مناطق الشواطئ الجنوبية للبحر الأحمر ، أي إلى منطقة بونت^(٤) ، ذلك أن كثيراً من العلماء — ومنهم جوتييه — إنما يذهبون إلى أن الموطن الأصلي للإله « مين » المصري ، إنما هي المناطق الشاطئية في جنوب البحر الأحمر — أي بلاد العرب وأرتيريا — وأنه قد حمل معه أثناء هجرته إلى مصر بعض خصائص وطقوس عبادته ، فضلاً عن إشارات إلى أصله العربي الجنوبي ، ومنها « رب بونت » ، وكذا التشابه بين شكل أقدم معبد للإله مين ، وهو على شكل مخروطي يشبه خلية النحل ، وبين أكواخ أهل بونت المخروطية التي

(١) نفس المرجع السابق ص ١٣٦ ، وانظر آراء أخرى :

وكذا L. Woolley, History of Mankind, I, P. 380f. CAH, I, Part, 2, 1971, P. 44.

وكذا W.M.F.Petrie, The Making of Egypt, London, 1939, P. 77f, 226.

وكذا S. A. B. Mercer, Hours, Royal God of Egypt, Massachisets, 1942, P. 88-9, 89.

وكذا هنري فرانكفورت : فجر الحضارة في الشرق الأدنى ، ترجمة ميخائيل خوري ، بيروت ١٩٥٠ ص ١٤٤ .

(٢) عبد المنعم عبد الحليم : دراسة تاريخية للصلات والمؤثرات الحضارية بين حضارة مصر الفرعونية وحضارات البحر الأحمر ص ٢٣٥ ، وكذا


Mercer, Horus, Royal God of Egypt, P. 98f.

Ibid, P. 90.

(٣)

(٤) عبد المنعم عبد الحليم : المرجع السابق ص ٢٥٧-٢٦١ .

على شكل خلايا نحل أيضاً ، والمرسومة على جدران معبد حتشبسوت في الدير البحري ، ويذهب « جوتيه » إلى أن الكوخ الذي على شكل خلية النحل هذا ، إنما كان أقدم شكل للمساكن في مصر ، وأنه قد ظهر في الرسوم المصرية في عصر الدولة الوسطى خلف صورة الإله مين ، وقد ألحق بمعبد الإله رواق وصار يعلوه قرنا ثور ، وهذا المعبد يمثل الهيكل القديم للإله مين عندما كان في بونت ، بلاده الأصلية على شواطئ البحر الأحمر ، ولم يكن قد دخل مصر بعد ، وكان يسمى « سحت » (SHN-T)^(١) .

أضف إلى ذلك أن النص الذي يصف ثور الإله مين بأنه « الثور الذي جاء من البلاد الأجنبية »^(٢) ، وقد حفر على أحد تماثيل مين التي ترجع إلى عصر ما قبل الأسرات ، وتمثل ثوراً ذا قرون على شكل الهلال واقفاً فوق ثلاثة تلال تشبه في شكلها علامة  (خاست) التي ترمز في الكتابة الهيروغليفية إلى البلاد الأجنبية ، ولعلها تشير إلى البلاد الأجنبية التي جاء منها الإله الثور ، والثور هنا إنما يمثل صفة الإخصاب والتناسل في الإله مين ، وهي الصفة الأولى أو الأصلية له^(٣) ، وهكذا يمكننا أن نعتبر عبادة الإله مين في مصر من المؤثرات العربية الوافدة إلى مصر عن طريق البحر الأحمر ..

والواقع أن النصوص إنما تشير إلى صلات واضحة بين الإله مين وبلاد بونت وأشجار البخور التي ارتبطت بهذه البلاد منذ عصر الملكة حتشبسوت (١٤٩٠ - ١٤٦٨ ق.م) ، فضلاً عن أننا نلاحظ ذكر القمر مرتبطاً بعبادة مين ، فضلاً عن إقتران الثور (حيوان التجسد للإله مين) بهذه العبادة القمرية في نص من أخميم (بانوبوليس)^(٤) وهكذا يبدو أن عبادة « مين » تتميز بثلاث خصائص رئيسية ،

(١) H. Gauthier, Les Fêtes du Dieu Min, BIFAO, T. 2, P. 99, 142, 144, 299.

Ibid, P. 198.

(٢)

(٣) عبد المنعم عبد الحليم : المرجع السابق ص ٢٤٧ .

H. Gauthier, Notes Géographiques sur le Nome Panopolite, BIFAO, 10, 1912, (٤)

P. 106-7.

هي عبادة الإله مين كإله للقمر ، وكحامٍ للقوافل ، واتخاذ الثور رمزاً له ، وظهور قرون هذا الثور الهلالية الشكل في أقدم رسوم معبد مين .

وإذا ما انتقلنا إلى الجانب الآسيوي للبحر الأحمر ، نلاحظ أن أغلب هذه الخصائص تظهر في عبادة إله القمر الآسيوي ، الذي عبد في هذه المناطق تحت أسماء مختلفة ، فهو «المقة» عند السبثيين ، و«ود» عند المعينيين ، و«سين» عند الحضارمة^(١) ، كما عبد في سيناء — ربما باسم سين كذلك — فضلاً عن أن الحيوان الذي يرمز إلى عبادة القمر على كل من الجانب الأفريقي (منطقة وادي الحمامات ومجاورتها في مصر) والجانب الآسيوي (خاصة في اليمن والحجاز) هو الثور ، حيث كان إله القمر عند الثموديين واللحيانيين يسمى ثور ، بل إن الديانة العربية القديمة في جوهرها ، إنما هي ديانة قمرية ، ولعل السبب في ذلك هو العوامل الجغرافية والمناخية ، فالشمس محرقة متعبة ، بينما القمر هو دليل الحادي ، ورسول القافلة ، وليس عبثاً أن نرى في العربية التعبير « القمران » للشمس والقمر^(٢) .

ويبدو أن الصفة الأساسية التي ارتبطت بالإله مين بحكم موقع مقر عبادته عند نهاية طريق وادي الحمامات ومجاورتها ، هي صفته كحامٍ للقوافل ورب للطرق الصحراوية ، قد قربت بين عبادته وبين عبادة القمر ، وهي نفس الصفة التي قامت على أساسها عبادة آلهة القمر على الجانب الآسيوي للبحر الأحمر^(٣) .

وإذا ما عدنا مرة أخرى إلى رأي « جوتيه » بأن الإله مين المصري أصله من بلاد العرب ، فهل هذا يعني أن الإله مين المصري ، والموقاه (المقة) السبثي من أصل مشترك؟ وهل نقل المهاجرون الآسيويون الأوائل عبادة القمر ورمزه الممثل في الثور من جنوب بلاد العرب ، عبر بوغاز باب المندب إلى السواحل الأفريقية للبحر

(١) ديتلف نلسن : الديانة العربية القديمة ص ١٨٩ ، سبتينو موسكاتي : الحضارات السامية القديمة ص ١٩٤ ، حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ص ١٣٨ - ١٣٩ ، محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ العرب

القديم (تحت الطبع) I. Shahid, CHI, I, 1970, P. 9f.

(٢) ديتلف نلسن : التاريخ العربي القديم ص ٢٠٦ وما بعدها .

(٣) عبد المنعم عبد الحليم : المرجع السابق ص ٢٤٩ .

الأحمر ، ومنها إلى مصر ؟ وهل هذه الصلة المبكرة للإلهين - المصري والعربي - وهي الثور ذو القرون الهلالية التي ظهرت في أشكال قرون الثور الإله مين على تماثيله من عصر ما قبل الأسرات ، ثم تكررت في العصور التالية على الآثار المصرية^(١) ؟ وهل ظهور ثور إله القمر في اليمن بهذه القرون الهلالية - وخاصة المقرة إله سبأ - مرتبط بذلك؟^(٢) .

والرأي عندي أن الأمر كذلك ، حتى وإن احتج البعض بأن عبادة القمر في بلاد العرب بدأت متأخرة عنها في مصر - وقد بدأت فيها منذ الألف الرابعة ق.م - لأن ذلك لا يمنع من وجود هذه العبادة في بلاد العرب الجنوبية منذ عصر مبكر ، لا ندري مداه على وجه التحقيق ، غير أنها لم تسجل إلا بعد ظهور الحضارة السبئية هناك ، ومعرفة الكتابة والنقش على الأحجار^(٣) .

وقد ناقش الزميل الدكتور عبد المنعم عبد الحليم - في رسالته للدكتوراه^(٤) - المظاهر المشتركة بين عبادة القمر في المناطق المحيطة بالبحر الأحمر ، وخلص إلى النتائج التي منها (أولاً) أن عبادة القمر انتشرت على الساحل الآسيوي ، من اليمن جنوباً ، وحتى سيناء شمالاً ، أي في المناطق الصحراوية ، وخاصة في تلك التي تمتد خلالها الطرق التجارية وطرق القوافل ، والأمر كذلك في مصر ، حيث وجدت قرب نهاية وادي الحمامات ، ومجاوراته^(٥) ، ومنها (ثانياً) أن الرمز المشترك لجميع الآلهة القمرية في شرق مصر ، وعلى سواحل البحر الأحمر الآسيوية ، إنما هو الثور الذي يغلب على قرونيه الشكل الهلالي .

ومنها (ثالثاً) أن هناك اتصالاً قد حدث في سيناء منذ أقدم عصور التاريخ

E.L.R. Meyrowitz, The Divine Kingship in Ghand and Ancient Egypt, London, (١) 1960, P. 84.

A. Grohmann, Arabien, P. 26.

(٢)

(٣) عبد المنعم عبد الحليم : المرجع السابق ص ٢٥٠ .

(٤) عبد المنعم عبد الحليم : دراسة تاريخية للصلات والمؤثرات الحضارية بين حضارة مصر الفرعونية وحضارات

البحر الأحمر - الإسكندرية ١٩٧٣ ص ٢٥١-٢٥٦ .

(٥) وجدت كذلك في صورة تحوت في الأشموين ، وخنسو في طيبة منذ الدولة الحديثة ، وإن لم يكن لهما صفة حماية طرق القوافل أو الطرق الصحراوية ، صفة مين الأساسية .

الفرعوني بين العبادة القمرية السامية ، الممثلة في إله القمر السامي (سين ؟) ، وبين العبادة القمرية المصرية ، الممثلة في إله القمر المصري « تحوت » ، ونتج عن ذلك وجود تأثير سامي في العبادات المصرية ، كان من أهم مظاهره رسم القرنين اللذين على شكل الهلال في تاج الملك سنfro (مؤسس الأسرة الرابعة حوالي عام ٢٦٢٠ ق.م) كما حدث اتصال بين الإلهة « حاتحور » المصرية (التي كانت الصفة القمرية من بين صفاتها العديدة في مصر) ، وبين الآلهة القمرية السامية التي كانت تعبد في الكهف المقدس في معبد سراييط الحادم قبل مجيء المصريين ، والتي حلت حاتحور محلها^(١) .

ومنها (رابعاً) أن القرنين اللذين على شكل الهلال ، واللذين ظهرا على تاج سنfro ، يشبهان قرون ثور الإله مين الهلالية الشكل ، كما يشبهان قرون الثور الذي يرمز إلى إله القمر السبئي المقة ، وربما يدل هذا التشابه على أن عبادة القمر السامية ، في كل من سيناء (التي تأثرت بها العبادة المصرية) وفي اليمن ، إنما ترجعان إلى أصل مشترك قد يكون بابل ، فقد كان الثور يمثل كإله للسماء والصاعقة والبرق في الرسوم البابلية منذ عصر حمورابي (١٧٢٨-١٦٨٦ ق.م) ، كما وصفت النصوص البابلية ثور الإله أنليل بأنه « الذي يضيء أو ينير » ، وهو نفس الوصف الذي جاء في نصوص الأهرام في مصر ، عن قرون الثور إله السماء^(٢) .

ومن ناحية أخرى ، فقد يكون هذا الأصل المشترك أقدم من ذلك بكثير ، فقد يكون منذ عصر الهجرات السامية التي كانت تخرج من شبه الجزيرة العربية إلى شرق أفريقيا عبر باب المنذب ، كما كانت تتجه كذلك من بلاد العرب إلى الشمال (كالهجرات الأكادية والآرامية والكنعانية) ، ومن ثم ربما قد ظهرت الصفة القمرية في الإله مين عن طريق الهجرات التي خرجت من بلاد العرب في العصور المبكرة ، وتسربت بعض جماعاتها أو مؤثراتها بطريق الصحراء الشرقية وسواحل

(١) A.H. Gardiner, A.T. Peet and J. Cerny, The Inscriptions of Sinai, 2, 1955, P. 41.

(٢) عبد المنعم عبد الحليم : المرجع السابق ص ٢٤٩ ، ٢٥٥ وكذا

G.A. Wainwright, The Bull Standards of Egypt, P. 44.

البحر الأحمر إلى منطقة وادي الحمامات ، ولعل هذا هو السبب في نسبة الإله مين إلى بلاد بونت^(١) ، أي إلى بلاد العرب الجنوبية .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الإلهين حور ومين ، لم يكونا هما فقط اللذين قال المصريون إن أصلهما من بلاد العرب ، وإنما هناك آلهة أخرى ، منها الإله « بس » ، فقد عثر على قطعة برنزية من الآثار السبئية محفوظة في متحف فينا نشرها « جرومان »^(٢) تمثل الإله « بس » جالساً بين « تيسين » ، وفوق رأسه طائر باسط جناحيه^(٣) ، وسواء أكان ظهور هذا الإله في مصر يرجع إلى أيام الأسرة الثانية عشرة^(٤) (١٩٩١-١٧٨٦ ق . م) أو الثامنة عشرة^(٥) (١٥٧٥-١٣٠٨ ق . م) أو حتى إلى عصر متأخر عن هذه الفترة^(٦) ، فإن صورة الإله بس في اليمن من ناحية ، ونسبة المصريين القدامى هذا الإله إلى بونت وإلى أرض الإله من ناحية أخرى ، جعل كثيراً من الباحثين يذهبون إلى أن أصل هذا الإله يرجع إلى بلاد العرب^(٧) .

وهكذا يبدو واضحاً أن هناك مؤثرات دينية عربية في الديانة المصرية ، هذا فضلاً عن أن مناظر أهل بونت في معبد الملك « ساحورع » من الأسرة الخامسة (٢٤٨٠-٢٣٤٠ ق . م) ومناظرهم على جدران معبد الدير البحري ، وبعض مقابر طيبة من الأسرة الثامنة عشرة ، تبيّن لنا أنهم من جنس يشبه كثيراً جنس المصريين ويتفق

(١) عبد المنعم عبد الحليم : المرجع السابق ص ٢٥٥-٢٥٦ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢١٤-٢٢١ ، وكذا .

A.Grohmann, Gottssymbole und Symboltiere auf Sudarabischen Denkmaler, Wien, 1914, P. 149.

(٣) أدولف جرومان : التاريخ العربي القديم ص ١٦٩ .

S.A.B. Mercer, Religion of Ancient Egypt, London, 1949, P. 189. (٤)

A. Fakhry, AJY, I, 19455, P. 135.

وكذا

A. Fakhry, Bahrid Oasis, I, P. 166. (٥)

A.E.W. Budge, The Gods of the Egyptians, 2, London, 1904, P. 285. (٦)

A. Fakhry, an Archaeological Journey to Yemen, I, Cairo, 1955, P. 135. (٧)

معهم في أكثر الملامح^(١) ، فقد كان رجال بونت يرسمون على الآثار المصرية على هيئة المصريين وبلحي تقليدية كالتي يلبسها آلهة المصريين ، وكانت علاقات المصريين ببلاد بونت ذات طابع خاص ، تتحدث عن روابط المودة التي تربطهم بهذه البلاد ، وهو أسلوب يختلف عن الأسلوب العنيف الذي اتبعه المصريون مع الشعوب الأخرى التي كانت تهدد حدودهم أو أملاكهم^(٢) .

وهكذا يتبين لنا من كل ذلك صحة ما ذهب إليه المصريون القدامى من أنهم قد هاجروا من بلاد العرب الجنوبية ، والتي كانوا يدعونها في تلك الأيام الغابرة « بلاد بونت » - رغم تقلب الدول عليها - كما كانوا يدعونها كذلك « بانثر » أي « أرض الإله » ، أو « أرض الله »^(٣) ، وظل القوم يظهرون لهذه المنطقة احتراماً كبيراً ، على أساس أنها الموطن الأصلي لإلههم الوطني « حور » ، وأنها البلاد التي نشأت فيها حضارتهم ، ثم توارثت الأجيال - جيلاً بعد جيل - هذه الذكريات العطرة عن المهد الأول للمصريين ، وعن نشأة عقائدهم وأفكارهم في ذلك العهد الغابر ، وقد تبلورت بمرور الزمن هذه العقائد والأفكار حول الإله حور ، وحول « أرض الإله » - أي حول بلاد العرب^(٤) .

ولكن : هل صحيح أن بلاد بونت هي بلاد العرب الجنوبية ؟

لقد قام جدل طويل بين العلماء حول موقع بونت - وصحة الاسم فيما يرى سير ألن جاردنر (بويني)^(٥) - ولعل أهم الآراء تدور حول اتجاهات أربعة ، فيذهب

(١) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٣٨ .

(٢) عبد المنعم عبد الحليم : محاولة لتحديد موقع بونت ص ٦ .

(٣) أحمد فخري ، المرجع السابق ص ١٤٠ . وكذا مصر الفرعونية ص ١٣٣ ، وكذا محمد مبروك نافع : عصر ما قبل الإسلام ص ٥٢-٥٣ ، الأطلس الجغرافي التاريخي ص ٦٩ .

(٤) C. Kuenz, Autour d'une Conception Egyptienne Meconnue, la Pays du Dieu, وكذا عبدالعزيز صالح : حضارة مصر القديمة. Mercer, op. cit., P. 87-92, وكذا P. 122-190.

١٦ ص ١٨٧ ، ٢٦٥ وكذا عبد المنعم عبد الحليم : المرجع السابق ص ٢٣٢-٢٤١ .

(٥) A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, P. 37 .

فريق - ومنهم بروجش وداورتي - إلى أنها بلاد العرب الجنوبية (اليمن ومجاوراتها)^(١) ، ويذهب فريق ثان - ومنهم أوجست مارييت وكارل سلفر وكراي وبالارد وكشن وعبد المنعم عبد الحليم - إلى أنها إنما تقع على الشاطئ الأفريقي للبحر الأحمر ، على اختلاف بينهم في المنطقة التي تقع فيها بونت من هذا الشاطئ^(٢) ، بينما يذهب فريق ثالث - ومنهم أستاذنا الدكتور نجيب ميخائيل - إلى أن بونت كلمة عامة تشمل الأقاليم الاستوائية في نظر المصريين ، وأنهم رادوها منذ أقدم العصور ، لا عن طريق البحر وحده ، بل استطاعوا منذ الأسرة الخامسة على الأقل ، أن يقصدها عن طريق البر ، ولم تكن الرحلات التي تمت على أيام الأسرة السادسة ، لتستهدف سوى الوصول إليها عن أقرب الطرق ، والاتصال بسكانها وربطهم بعلاقات مباشرة بالمصريين^(٣) ، على أن هناك فريقاً رابعاً - ومنهم إدوارد نافيل وليلين وفيليب حتى وأحمد فخري ومبروك نافع ورائنجر وفون وسمر - يذهب إلى أنها إنما تقع على الساحلين - الآسيوي والأفريقي - للبحر الأحمر ، بالقرب من بوغاز باب المندب^(٤) .

ويذهب « إدوارد نافيل » إلى أنه من الخطأ تعيين موقع بونت بمنطقة محددة بعينها ، لأنها لم تكن تدل على بلاد ذات حدود واضحة ، وإنما كانت اسماً لسلالة بشرية انتشرت في بلاد العرب الجنوبية - وحتى الخليج العربي - فضلاً عن الساحل الشرقي لإفريقيا ، وأن المصريين ينتمون إلى هذه السلالة - وكذا الفينيقيين الذين

(١) R.P. Dougherty, The Sealand of Ancient Arabia, P. 170-72.

(٢) عبد المنعم عبد الحليم : محاولة لتحديد موقع بونت ص ٥-٣٤ ، وكذا

K.A.K. Kitchen, Punt and How to get there, 1971, P. 188f وكذا C. Solver, Egyptian Shipping of about 1500 B.C., P. 365f وكذا A Mariette, Deir el-Bahari, 1877.

(٣) نجيب ميخائيل : مصر الشرق الأدنى القديم ٢١٨/١-٢١٩ .

(٤) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٤٠ . وكذا محمد مبروك نافع : عصر ما قبل الإسلام ص ٥٢-٥٣ .

Scott (H.), In the High yemen, London, 1927 وكذا

E. Naville, le Commerce de l'Ancienne Egypte. P. 7. وكذا

P.K. Hitti, History of the Arabs, P. 3 . وكذا

هاجروا من سواحل الخليج العربي إلى السواحل السورية^(١) — كما أن هذا الاسم (بونت) ، إنما يدل في المقام الأول على البلاد المنتجة للبخور ، فإذا كان ذلك كذلك ، فإن كل ما كان يحصل عليه المصريون من بونت ، إنما يوجد على الشاطئ الآسيوي ، وأكثره محلي ، وأقله يأتي عن طريق التجارة ، فضلاً عن أن خير أنواع البخور واللبان لا تنبت في الشاطئ الأفريقي ، بل في بلاد الشحر والمكلا وظفار وجزيرة سوقطرة ، وكلها على الشاطئ الجنوبي لشبه جزيرة العرب^(٢) ، أضف إلى ذلك أن الإخصائيين قد فحصوا الأشجار المرسومة على معبد الدير البحري ، ووجدوا أنها من نوعين ، الواحد لا ينبت إلا في ظفار^(٣) ، والآخر يشبه أشجار اللبان التي تنبت في الصومال^(٤) ، وكذا على الشاطئ الآسيوي — وإن كانت بكميات قليلة — وأخيراً فلقد اشتهرت « حضرموت » بصفة خاصة ، بأنها « أرض البخور واللبان »^(٥) ، ولا تزال أشجار اللبان تنمو فيها وفي غيرها ، كما لا تزال ظفار — كما كانت في الماضي — مركزاً لتجارته .

وعلى أي حال ، فلقد سلكت البعثات المصرية إلى بونت طريق وادي الحمامات من « كوتبوس » (قفط بمحافظة قنا) إلى القصير — ميناء البحر الأحمر — أو عند مخرج وادي جاسوس الفوقاني ، أو تسلك طريق وادي طميلات ، ثم خليج السويس ف البحر الأحمر^(٦) ، هذا وليس هناك من دليل على علاقات مباشرة بين مصر وبلاد بونت فيما قبل الأسرة الخامسة ، وإن كان هذا لا يمنع من القول بأن المصريين ، ربما أرسلوا بعوثاً إلى هذه الجهات النائية ، إذ أنه من الثابت أن أحد سكان بونت كان قد خدم عند عظيم من الأسرة الرابعة^(٧) .

(١) انظر : عبد المنعم عبد الحليم : علاقات مصر القديمة ببلاد بونت ونشاطها في البحر الأحمر ، الاسكندرية ١٩٦٨ .

(٢) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٣٨-١٣٩ .

(٣) H. Schoff, The Periplus of the Erythraean Sea, P. 218.

(٤) A. Lucas, Ancient Egyptian Materials and Industries, London, 1962, P. 93.

(٥) P.K. Hitt, op. cit., P. 34-6.

(٦) عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ج١ ص ١٢٨ ، وكذا

H. Kees, Das Altes Aegypten, P. 59-60.

(٧) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٤٣ .

وأيا ما كان الأمر ، فإن السفن المصرية ، إنما كانت تمخر عباب البحر الأحمر إلى بلاد بونت^(١) ، منذ أيام الملك « ساحورع » من الأسرة الخامسة ، وكانت ثمة رحلات في عهد الأسرة السادسة^(٢) ، فضلاً عن رحلات الدولة الحديثة ، والتي كان من أشهرها تلك التي كانت في عهد الملكة حتشبسوت^(٣) ، ورعمسيس الثالث (١١٨٢-١١٥١ ق.م.)^(٤) .

ولعل من الأفضل هنا - وقبل أن نترك العلاقات المصرية ببلاد بونت - أن نتحدث عن مقال للأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح عن « الجنبتيو » الذين ورد ذكرهم في حوليات الملك تحوتمس الثالث (١٤٩٠-١٤٣٦ ق.م) وصلتهم بالجبانيين الذين ورد ذكرهم في كتابات المؤرخين الكلاسيكيين^(٥) ، ذلك أن الفرعون المصري يحدثنا في حولياته ، « وبعدما وصل جلالته إلى مصر ، جاء رسل الجنبتيو حاملين معهم هداياهم (أو منتجاتهم) من الكندر (البخور - عنتيو) وصمغ كاي (؟) » ، وهنا فلعل مما يلفت النظر عدة أمور ، منها (أولاً) ذلك التشابه بين اسم « الجنبتيو » في هذا النص ، وبين اسم « الجببانيون Gebbanitae » الذي ورد في كتابات المؤرخين الكلاسيكيين^(٦) ، ومنها (ثانياً) أن الاسم

(١) J. Hornell, Sea-Trade in Early Times, 1941, P. 240-46.

(٢) جورج فضل حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ترجمه وزاد عليه الدكتور يعقوب بكر ص ٣٠ .

(٣) E. Naville, The Temple of Deir al Bahari, III, London, 1898, Pls. 69-85.

(٤) محمد بيومي مهران : مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث ص ٢٥٢ . وكذا

Save-Soderbergh, T., The Navy of the Eighteenth Egyptian Dynasty, P. 28-9.

J.H. Breasted, ARE, IV, P. 120.

وكذا

(٥) Abdel Aziz Saleh, The Gnbtyw of Thutmosis III, Annales and The South Arabian Gebbanitae of Classical Writers, BIFAO, T. LXXII, 1972, P. 246-262.

(٦) يروي « بليني » أن الجببانيين يملكون عدة مدن ، لعل أهمها « نجية Nagia » و « تمه Thamna » وأن بالآخر ٦٥ معبداً ، وأن اللبان لايسمح بتصديره إلا بواسطة مملكتهم ، وإلا بعد دفع ضرائب يحددها الملك ، وأما المر فكان الملك يأخذ منه لنفسه ربع الغلة ، كما كان يحتكر بيع القرفة . (Pliny, VI, 154, Vol. 2, P. 453).

« Gebbanitae » يتفق في نطقه مع اسم القتبانيين ، الذين قال عنهم « استرابو » إنهم كانوا يسكنون عند بوغاز باب المنذب^(١) ، وعلى هذا فإن كلا من الجيبانيين والقتبانيين كانوا ينتشرون من جنوب شبه الجزيرة العربية نحو بوغاز باب المنذب ، وأن كلا منهما كان يتاجر في الكندر .

هذا وقد كان الجيبانيون قبيلة هامة في منطقة قتيان تشتهر بنشاطها التجاري ، حتى إن الكلاسيكيين قد وضعوهم على قدم المساواة مع القتبانيين ، ويدل ذكر « بليني » لهم ولدولتهم ، في وقت كانت هذه الدولة جزءاً من دولة سبأ وحمير (في القرن الأول ، عصر بليني) على أن مصدر معلوماته إنما يرجع إلى عصر مبكر ، والاحتمال كبير في أن يكونوا هم « الجنبتيو » الذين ورد ذكرهم في حويلات نحوتمس الثالث ، وفي هذا دليل على أن التجار العرب الجنوبيين كانوا يتاجرون مع مصر مباشرة ، وبدون وسطاء في القرن الخامس عشر ق.م .

وإذا ما عنّ للبعض أن يعترض على ذلك ، بحجة أن أقدم سجلات مكتوبة من بلاد العرب ، لا يرجع إلى ما قبل القرن العاشر ق.م ، فإن ذلك ليس دليلاً على عدم ظهور الجيبانيين والقتبانيين كجماعة ، في وقت أقدم بكثير من ظهور كتاباتهم ومدنهم ، وقد أثبت « البرايت » أن هجرة القبائل السينية^(٢) من شمال

(١) ربما كان الجيبانيون من قتيان ، ومواضعهم لا تبعد كثيراً عن قتيان ، فهي إلى الجنوب الشرقي منها على رأي ، وإلى الجنوب منها على رأي آخر ، ويرى بعض الباحثين أنهم من « جبأ » التي وصفها الهمداني بأنها مدينة المعافر ، وأنها كورة المعافر ، في فجوة بين جبل صبر وجبل زخر في وادي الضباب . (الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٥٤ ، ٩٩ ، جواد علي ٥٠٦/٢) .

(٢) يقسم الباحثون لغة المسند من الناحية الباليوجرافية إلى لهجتين رئيسيتين ، الواحدة لهجة السين ، وهي التي يستعمل فيها حرف السين بدلا عن ضمير الغائب مثل « مبنسم » أي مبانيهم ، وبدلا عن الواو التي كانت تلحق بضمير الغائب المفرد مثل « مقمهمس » أي مقامهو ، وبدلا عن الهمزة في الفعل المبدوء بها مثل سقني أي أقنى ، ويستعملها المعينيون والحضرميون والقيتانويون ، وأما الأخرى ، فهي لهجة الهاء ويستعملها بقية العرب ، وسميت كذلك لورود حرف الهاء فيها بدلا عن السين المعينية ، وبدلا عن الهمزة في الفعل المبدوء بها مثل « هقني » أقنى ، وهوفي ، أوفى ... (أحمد حسين : اللغة العربية في عصور ما قبل الإسلام ص ٣٣-٣٤) .

بلاد العرب إلى المناطق التي استقروا فيها في بلاد العرب الجنوبية ، إنما حدثت قبل عام ١٥٠٠ ق.م أي قبل عصر تحوتمس الثالث .

وعلى أية حال ، فإن الأسباب التي دفعت الجيبانيين لتقديم الهدايا إلى الفرعون المصري ، إنما هي رغبتهم في ضمان مصالحهم التجارية عبر طرق تجارة البخور التي كان جزءٌ كبيرٌ منها يمر عبر امبراطوريته الآسيوية الأفريقية ، وأما عن الطريق الذي سلكوه من بلاد العرب الجنوبية إلى مصر ، فربما كان الطريق البري الموازي لساحل الجزيرة العربية إلى جنوب فلسطين ، أو الطريق البري على طول الساحل الأفريقي وربما انتقلوا إلى مصر على مراحل يتوقفون خلالها للمقايضة في الأسواق على سلعهم ، وشراء سلع أخرى يأتون بها إلى مصر^(١) .

هذا ويقدم لنا « اليوت سميث » كثيراً من الأدلة على المؤثرات الحضارية الفرعونية في حضارة اليمن القديم ، والتي قام الفينيقيون بنقلها عن طريق البحر الأحمر أثناء نشاطهم الواسع في هذا البحر في القرن الثامن ق.م ، فيرى أن المصريين كانوا يحصلون على كثير من المواد المستخدمة في التحنيط من السبثيين ، وليس من المستبعد أن يكون السبثيون أنفسهم قد استخدموا هذه المواد في عملية التحنيط التي كانت متبعة في مصر حوالي عام ٩٠٠ ق.م ، بعد عهد الأسرة الحادية والعشرين (١٠٨٧-٩٤٥ ق.م) ، ونظراً لعدم وجود آثار لاستخدام اليمنيين القدامى للتحنيط ، فإن « اليوت سميث » يذهب إلى أن التحنيط معروف حالياً (أي عام ١٩١٥ م) في مدغشقر ، وأن هذه الجزيرة إنما كانت مستعمرة يمنية من المناطق المجاورة لبوغاز باب المندب ، ربما من السبثيين الذين كانوا يبحرون على طول الساحل الأفريقي بإرشاد ملاحين مهرة من عمان أو من الخليج العربي^(٢) .

Abdel Aziz Saleh, op-cit.

(١)

(٢) عبد المنعم عبد الحليم : المرجع السابق ص ٢٢١-٢٢٢ وكذا

E. Smith, The Migration of Early Cultures, P. 69-70

ويذهب « سمث » بعد ذلك إلى أن التشابه بين عادات مدغشقر (التي يردّها إلى أصول عربية جنوبية) وعادات مصر الفرعونية لا تقتصر على التحنيط ، بل تمتد كذلك إلى شكل المقبرة ، والتي تتكون هناك من غرفة دفن أسفل الأرض وبناء علوي يشبه المصطبة التي تعلو غرفة الدفن المصرية .

وبخلص « سمث » من ذلك إلى أن أهل مدغشقر قد تأثروا بالحضارة المصرية في التحنيط والدفن ، وأن هذا التأثير ، إنما أتى عن طريق بلاد العرب التي تأثرت بدورها بالحضارة المصرية^(١) .

ولعل المجال الآن يسمح بالحديث عن صلة الكتابة العربية بالهieroغليفية المصرية ، ذلك أن الاعتقاد السائد كان في أخريات القرن الماضي وأوائل القرن الحالي أن العلامات الأبجدية الخاصة بكتابات البحر الأحمر وخليج عدن (العربية الجنوبية بفروعها السبئية والمغينية والحميرية والحضرية والأوسانية ، والعربية الشمالية بفروعها الثمودية والديدانية والليثانية) قد أخذت عن الحروف الفينيقية خلال فترة النشاط التجاري للفينيقيين والعرب الجنوبيين منذ القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد^(٢) ، غير أن كشف « بيري » في سرايط الخادم في سيناء عام ١٩٠٤م ، لعلامات كتابة جديدة عرفت باسم « الكتابة البروتوسينائية » ، أو كتابة ما قبل السينائية (Proto-Sinaitic Script) ، أثار اهتماماً بين علماء اللغات ، لا لمجرد البحث عن أصل الكتابة السامية الجنوبية فحسب ، بل لبحث أصل الكتابة السامية بوجه عام ، والكتابة السامية الشمالية بوجه خاص^(٣) .

Ibid, P. 70-71

(١)

(٢) مرت الأبحاث الخاصة بأصل الكتابة السامية الجنوبية بعدة مراحل ، فاتجهت أولاً إلى أنها اشتقت من الكتابة الإغريقية ، ثم من كتابة بلوس الشبيهة بالهieroغليفية ، ثم من السامية الشمالية (الفينيقية المؤابية ، الكنعانية) ثم اتجهت الأبحاث إلى أن الكتابة السامية الشمالية والجنوبية من أصل مشترك ، ثم من مصدرين مختلفين وأن تأثر الواحد بالآخر ، وأخيراً من الكتابة البروتوسينائية بطريق مباشر أو غير مباشر .

(٣) عبد المنعم عبد الحليم : المرجع السابق ص ٩٥ .

وقد ذهب « سيرفلندرز بيري » إلى إرجاع عصر هذه الكتابة إلى حوالي عام ١٥٠٠ ق.م (الأسرة ١٨) ، وأنها نتيجة التأثير المصري الواضح في ثقافة الساميين الذين احتكوا بالمصريين أثناء استغلالهم لمناجم الفيروز في سيناء^(١) ، وأن هذه الكتابة قد اشتقت من كتابة مصرية قديمة ، لأن علاماتها شديدة الشبه بالعلامات المصرية القديمة ، وإن اشتد الجدل حول هذه الكتابة المصرية ، هل هي الهيروغليفية أم الهيراطيقية أم الديموطيقية ، وكان « للسير ألن جاردنر » فضل السبق في إثبات اشتقاقها من الهيروغليفية^(٢) ، وأنها ترجع إلى الأسرة الثانية عشرة^(٣) ، وربما — فيما يرى البعض — إلى أيام الهكسوس أو بعد طردهم مباشرة^(٤) .

وأما كيف انتقلت الكتابة البروتوسينائية إلى بلاد العرب ، فالرأي عند « شبرنجلنج » أن ذلك كان بطريق القوافل (طريق المر — البخور — الذهب) المحاذي لساحل البحر الأحمر إلى بلاد العرب ، حيث نشأت الكتابة العربية الجنوبية ، ثم انتقلت هذه الأخيرة إلى الشمال بالطريق الداخلي الذي يمر بالمراكز الحضرية في العلا ، ومدائن صالح — علي مبعدة ١٥ كيلومتراً إلى الشمال من العلا — وغيرهما ، حيث نشأت الكتابة العربية الشمالية بفروعها المختلفة ، وهكذا انتشرت الكتابة السامية في بلاد العرب ، ثم خرج فرع من هناك عبر بوغاز باب المندب إلى الحبشة ، حيث نشأت الكتابة الحبشية القديمة^(٥) .

(١) W.F.A. Albright وكذا F. Petrie, Researches in Sinai, London, 1906, P. 129-131
The Proto-Sinaitic Inscriptions and their decipherment, P. 12, Martin Sprengling, The Alphabet, its Rise and Development from the Sinai Inscriptions, Chicago, 1931, P. 49.

(٢) A. Gardiner, The Egyptian Origin of the Semitic Alphabet, JEA, 3, 1916, P. 1-16 وكذا A.E. Cowley, The Origin of the Semitic Alphabet, JEA, 3, 1916, P. 17-21

(٣) A. Gardiner, op. cit., P. 13.

(٤) W.F. Albright, BASOR, 110, 1948, P. 6-22 وكذا C. Jean, Les Hyksos Sont-ils les Inventeurs de l'Alphabet, P. 278-299.

(٥) M. Sprengling, op. cit., P. 64.

على أن هناك من يرى أن الكتابة العربية الجنوبية قد تطورت من إحدى الكتابات العربية الشمالية (الثمودية)^(١) ، وقد أشار « جريمة » إلى أوجه الشبه بين الحروف الثمودية وبين الكتابة البروتوسينائية ، فكلاهما تكتب أفقية ورأسية ولا توجد فواصل في كل منهما ، والأمر غير ذلك في الكتابة المعينية - وكذا السبئية - ثم يرى « جريمة » بعد ذلك أن الذين ابتكروا الكتابة الثمودية ، إنما هم المديانيون الذين عاشوا في شبه جزيرة سيناء ، خلال النصف الثاني من الألف الثاني ق.م ، وكانوا أقرب الجيران إلى أصحاب الكتابة البروتوسينائية^(٢) .

ويبدو أن منطقة « مدين » كان لها دور خاص في انتشار الكتابة عبر المناطق الجنوبية ، وقد أشار « شبرنجلنج » إلى ظاهرة انتقال الكتابة النبطية من هذه المنطقة في العصور التالية نحو الجنوب - نحو الحجاز - وإلى تطور الخط العربي عن الخط النبطي^(٣) ، وقد عثر « بيرتون » - بالقرب من وادي عينونة - على حجر عليه كتابة شبيهة بالكتابة السامية^(٤) ، اتخذ منها « ليبوفتش » منطلقاً لدراسة حاول فيها الربط بين الكتابة الواردة على هذا الحجر ، وبين الكتابة البروتوسينائية ، ثم بينها وبين كتابات الصخور في الصحراء الشرقية في مصر والنوبة ، ثم خرج من هذا بأن الكتابة السامية الجنوبية ترجع في أصولها إلى كتابة مدين التي اشتقت أو ارتبطت بالكتابة البروتوسينائية (التي اشتقت بدورها من الهيروغليزية المصرية) ، معتمداً في

(١) Hans Jensen, Sign Symbol and Script, an Account of Man's Efforts to Wright, (١) London, 1970, P. 350.

(٢) H. Grimme, Die Losung des Sinaischrift Problems, die alt Thamudische Schrift, 1926 وكذا H. Jensen, op. cit., P. 350.

وكذا عباس العقاد : إبراهيم أبو الأنبياء ص ١٣٦-١٣٧ ، وكذا عبد الرحمن الأنصاري : لمحات عن القبائل البائدة في الجزيرة العربية ص ٨٩ ، وكذا اللسان ١١/٧ ، حسن ظا : الساميون ولغاتهم ص ١١٤ ، وكذا عبد المنعم عبد الحليم : المرجع السابق ص ١١٨-١٢١ .

(٣) Sprengling, op. cit., P. 52.

(٤) R. F. Burton, the Gold Mines of Midian and the Ruined Midianite Cities, (٤) London, 1878.

ذلك على التشابه بين علامات الكتابة البروتوسينائية ، وبين العلامات التي وردت على حجر مدين^(١) ، ثم يرى بعد ذلك أن هناك شبيهاً بين علامات كتابة حجر مدين وبين علامات الكتابة الثمودية والكتابة العربية الجنوبية^(٢) ، ثم يخلص من ذلك كله إلى أن الكتابة البروتوسينائية قد انتقلت عبر مدين إلى الجنوب في بلاد العرب كلها ، وأنها أصل الكتابة السامية الجنوبية^(٣) .

ونتيجة لذلك كله — فيما يرى الدكتور عبد المنعم عبد الحليم — أن الكتابة السامية الجنوبية قد اشتقت من الكتابة المصرية الهيروغليفيّة عن طريق الكتابة البروتوسينائية ، وقد حدث هذا الاشتقاق ، إما بالطريق المباشر على طول الساحل الشرقي للبحر الأحمر إلى اليمن ، حيث نشأت الكتابة العربية الجنوبية (السبئية والمعينية والحضرية وغيرها) ثم انتقلت نحو الشمال خلال طرق القوافل الداخلية التي كانت تمر بالمراكز الحضارية القديمة في العلا^(٤) ومدائن صالح وتيماء وغيرها ، ونتج عن هذا نشأة الكتابة العربية الشمالية (الثمودية واللحيانية وغيرهما^(٥)) ، أو بالطريق غير المباشر عبر مدين وثمرود ، حيث اشتقت الكتابة الثمودية القديمة من الكتابة البروتوسينائية وعن طريق الكتابة المديانية والثمودية القديمة ، نشأت الكتابة العربية الجنوبية ، بفروعها السبئية والمعينية وغيرهما ، كما نشأت الكتابة

(١) عبد المنعم عبد الحليم : المرجع السابق ص ١٢٢-١٢٣ ، وكذا .

I. Leibovitch, Les Inscription Protosinaitiques, MIE, T. 24, 1934, P. 21f.

Ibid., Pls. IV-VI.

(٢)

Ibid, P. 31.

(٣)

(٤) العلا : تقع في وادي القرى جنوب شرق حرة العويرض ، بين سلسلة من الجبال في الشرق والغرب وعلى مسافة ٣٧٠ كيلومتراً من المدينة المنورة ، ١٢٧٠ كيلومتراً من الرياض ، وكانت تسمى قديماً « ددن » أو « ديدان » — كما جاء في التوراة (تك : ١٠ : ٧ ، ٣ : ٢٥ ، ارميا : ٢٥ : ٢٣ ، ٤٩ : ٨) . وبعض النصوص الأثرية — وأما كلمة « ددان » فهي اسم المكان على رأي ، وإن كان هناك من حاول الربط بين هذا الاسم وبين اسم الإله دد ، الذي كان يعبد لدى الساميين الشماليين ، وقد قامت في العلا بعض دويلات المدن فيما بين القرن ٦ ، ٣ ق.م ، لعل أهمها ديدان ولحيان . (انظر : عبد الرحمن الأنصاري : مجلة الدارة — العدد الأول — مارس ١٩٧٥ ص ٧٩) .

Sprengling, op. cit., P. 64.

(٥)

الديدانية واللحيانية (العربية الشمالية) (١) .

وترتبط مصر بعرب الشمال بروابط قرابة قوية ، وإن كان من الغريب أن هناك حقيقة دينية - وتاريخية كذلك - لا ينتبه إليها كثير من العلماء ، ذلك أن المصادر اليهودية والإسلامية تتفق على أن المصريين ، إنما هم خؤولة للعرب العدنانيين ، ذلك لأن أباهم إسماعيل - عليه السلام - إنما هو والد إبراهيم الخليل من زوجته هاجر المصرية (٢) ، بل إن التوراة لتزوج إسماعيل نفسه من امرأة مصرية كذلك (٣) ، وإن زوجته المصادر الإسلامية من امرأة يمنية (٤) .

وإذا كان إسماعيل أبا العرب على اختلاف قبائلها ، كما تذهب بعض المراجع الإسلامية (٥) ، وكما يسميه العرب أنفسهم « عرق الثرى » ، تعبيراً عن رسوخه وامتداده ، فإن القرآن الكريم ليشير إلى أن العرب جميعاً ، إنما هم من أبناء إبراهيم الخليل - عليه السلام - وصدق عزّ من قال « وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم » (٦) ، كما يروى عن الحبيب المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - أنه قال « كل العرب من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام » (٧) ، كما كرر شعراء العرب نفس

(١) عبد المنعم عبد الحليم : المرجع السابق ص ١٢٤ وكذا
H. Jensen, op. cit., P. 350 وكذا

(٢) تكوين ١: ١٠ ، ١٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٥٢/١-١٥٤ ، تاريخ الطبري ٢٤٦/١-٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٠١/١-١٠٢ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢٣/١-٢٤ .

(٣) تكوين ٢١: ٢١ .

(٤) ابن كثير ١٥٥/١ ، ١٩٢-١٩٣ ، الطبري ٢٥٨/١ ، ابن الأثير ١٠٤/١ ، مروج الذهب ٢٠/٢-٢١ ، تاريخ ابن خلدون ٣٧/١ ، المعارف ص ١٦ ، الإكليل ١٠١/١ ، ١١٧ ، ابن سعد ٢٥/١ .

(٥) ابن كثير ١٦٧/١ ، ابن هشام ٦/١-٧ ، الكندي : فضائل مصر ص ٢٧ .

(٦) سورة الحج : آية ٧٨ .

(٧) ابن سعد ٢٥/١ .

المعنى في أشعارهم ^(١) ، ومن ثم فإن المصريين خؤولة للعرب قاطبة ، وعلى أي حال فالثابت الصحيح عن المعصوم مولانا وسيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال « إذا فتحتم مصر ، فاستوصوا بأهلها خيراً ، فإن لهم ذمة ورحماً » ^(٢) .

فأما الذمة ، فإن « مارية » أم إبراهيم ولد المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - كانت صعيدية من قرية بمركز ملوى بمحافظة المنيا ، وأما الرحم ، فإن أم العرب هاجر - زوج إبراهيم وأم إسماعيل عليهما السلام - إنما كانت مصرية كذلك ^(٣) ، وإذا كانت رواية التوراة صحيحة في أن العرب العدنانيين ، إنما هم أبناء إسماعيل من زوجة مصرية كذلك ، وإذا كان لهذا أي معنى « أنثروبولوجي » ، فهل يمكن أن يكون إلا شيئاً واحداً ، هو أن العرب أصلاً أنصاف مصريين - ولا أقول أكثر من ذلك - وقد يبدو هذا للوهلة الأولى تخريباً ثورياً ، ولكنه منطق أولي للغاية ، ويكفي أن النبي - عليه الصلاة والسلام - هو القائل عن مصر للعرب : « إن لكم فيهم صهراً ورحماً » (أو ذمة ورحماً) ، كما أن عمرو بن العاص هو القائل : « أهل مصر أكرم الأعاجم كلها ، وأسمحهم يداً ، وأفضلهم عنصراً ، وأقربهم رحماً بالعرب كافة ، ولقریش خاصة » ، صلة مصر بالعرب إذن ، صلة نسب ودم ، قبل أن تصبح صلة ديانة ولغة ^(٤) ، وحتى هاتين الأخيرتين ، فإن الأبحاث اللغوية والدينية الحديثة عن عصور ما قبل الإسلام ، تثبت القرابة بينهما ، إلى درجة

(١) يقول جرير بن عطية التميمي : أبونا خليل الله لا تشكرونه . فأكرم بإبراهيم جداً ومفخراً

(المسعودي : التنبيه والإشراف ص ١٠٩) .

(٢) هناك روايات أخرى للحديث الشريف (راجع : صحيح مسلم ١٩٧٠/٤ ، كتاب فضائل الصحابة ، باب وصية النبي صلى الله عليه وسلم بأهل مصر ، الكندي فضائل مصر ص ٢٦-٢٧ ، طبقات ابن سعد ٩٢/١-٩٣ ، ابن هشام ٦/١-٧) ومن هذه الروايات « ستفتح عليكم بعدي مصر ، فاستوصوا بقطبها خيراً ، فإن لكم منهم صهراً وذمة » ، ومنها « ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيراً ، فإن لهم ذمة ورحماً » .

(٣) الكندي : فضائل مصر ص ٢٧-٢٨ .

(٤) جمال حمدان : شخصية مصر ص ٤٨٥ ، نعمات أحمد فؤاد : شخصية مصر ص ٢٧ ، الكندي :

المرجع السابق ص ٣١ ، تكوين ٢١: ٢١ .

أن الواحدة قد أخذت عن الأخرى ، بقدر ما أعطت لها ، وكما سبق أن بينا في الصفحات السابقة ، فإن مصر قد أخذت بعض آلتها الوثنية من بلاد العرب ، كما أن الأخيرة قد أخذت كتابتها عن الهير وغليفية المصرية بطريقة أو بأخرى .

وكم يبدو غريباً أن يلح من يلح على أن العرب واليهود « أبناء عمومة »^(١) ، لأن إسحاق أبا اليهود أخ غير شقيق لإسماعيل أبي العرب (وتلك حقيقة لاريب فيها) ، بينما نتغافل نحن عن علاقة الأبوة والبنوة بين المصريين والعرب ، وتأسيساً على هذا ، فهل يكون تعريب مصر فيما بعد إلا عملية زواج أقارب مباشرة ، ولا نقول نوعاً من التلقيح الذاتي أو الزواج الداخلي على نطاق جغرافي عريض^(٢) .

ثم هناك حقيقة لغوية (غير ما قدمنا) تؤكد علاقة القرابة بين المصريين والعرب ، وهي في نفس الوقت ذات شقين ، أما الشق الأول ، فيتصل بتأثير اللغة المصرية القديمة في اللغة العربية ، ذلك أننا نعرف — دينياً وتاريخياً — أن خليل الرحمن — عليه السلام — قد جاء بولده إسماعيل وأمه — وإسماعيل ما يزال رضيعاً — حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد من الناس ، وبقيا هناك وحيدين ، حتى مرت بهما رفقة من جرهم — أو أهل بيت من جرهم — وسكنوا معهما ، وشب إسماعيل وتعلم العربية منهم^(٣) .

(١) يرى كثير من العلماء أن الصلة الجنسية بين يهود اليوم ويهود التوراة مفقودة تماماً ، وأن اليهود اليوم أوريين (سلاف أو آريين) أكثر منهم ساميين ، وأنهم قد اختلطوا بغيرهم اختلاطاً بعدتهم عن أي أصول فلسطينية قديمة ، حتى لم تعد هذه تمثل في تكوينهم قطرة في محيط ، ومن هنا فإن يهود اليوم ليسوا من بني إسرائيل ، وأنه لا رابطة بين الطرفين إلا الدين فقط ، وهكذا لم يعد يهود اليوم من الساميين في شيء ، وعندئذ فلا قرابة دم بين اليهود والعرب الحاليين . (جمال حمدان : اليهود أنثروبولوجيا ص ٧٠-٩٤ ، وانظر مقالتنا عن : النقابة الجنسية عند اليهود - مجلة الأسطول العدد ٦٨ ، الإسكندرية ١٩٧١م وانظر كذلك : -

W.Z. Ripley, The Races of Europe, London, 1900, J. Huxley and others, We Europeans, 1939, E. Huntington, Palestine and its Transformation, Boston, 1911, C.S. Coon, Have the Jews a Racial Identity, N.Y., 1942, George Adam Smith, Historical Geography of the Holy Land, N.Y., 1932.

(٢) جمال حمدان : شخصية مصر ص ٤٨٥-٤٨٦ .

(٣) ابن كثير : قصص الأنبياء ٢٠٣/١-٢٠٥ ، تاريخ الطبري ٢٥٢/١-٢٥٩ ابن كثير البداية والنهاية =

وسؤال البدهة الآن : بأية لغة كان يتكلم إسماعيل قبل أن يعرف العربية ؟
إن الروايات التقليدية تذهب إلى أنها العبرية — وربما السريانية — ولعمري إنها لدعوة
رددتها علماء التوراة ، ثم أخذها عنهم كتاب اليهود الذين أسلموا ، وملاؤوا المصادر
العربية بهذا النوع من الإسرائيليات ، ثم رددتها من بعدهم بعض الكتاب المسلمين .

وليت الذين يرددون دعاوي يهود هذه يعلمون أن الخليل — عليه السلام —
قد عاش في الفترة (١٩٤٠-١٧٦٥ ق.م ^(١)) وأن ولده إسماعيل العظيم ، إنما
عاش في الفترة (١٨٥٤-١٧١٧ ق.م) ^(٢) ، وأن اللغة العبرية لم تظهر في التاريخ ،
إلا بعد عام ١١٠٠ ق.م ، بعد دخول الاسرائيلين فلسطين على يد يشوع بن نون ،
واستقرارهم فيها ، ثم اختلاطهم بالكنعانيين وأنهم قبل ذلك كانوا يتكلمون الآرامية
قبل دخولهم مصر ، على أيام الصديق عليه السلام ، ثم المصرية القديمة إبان إقامتهم
في أرض الكنانة ^(٣) ، وحتى خروجهم منها حوالي عام ١٢١٦ ق.م ، بقيادة موسى
عليه السلام ^(٤) .

وهكذا يبدو بعيداً عن المنطق — فضلاً عن الحقائق التاريخية — أن يتحدث
إسماعيل بلغة كانت ما تزال بعد في ضمير الغيب ، ولئن تعرف البشرية عنها شيئاً
قبل أكثر من مئاة ست من الأعوام ، وإذا ما عدنا مرة أخرى إلى إسماعيل وأمه ،
وجدنا أن أولى البديهيّات أن إسماعيل — كأبي طفل في الدنيا — ينطق أول ما ينطق ،
بلغة أمه ، أقرب الناس إليه ، خاصة وأن أباه عنه بعيد ، وهي لغة مصرية ما في ذلك
من ريب ، ومن هنا فإن لغة إسماعيل كانت — بادئ ذي بدء — لغة مصرية ،

= ١٥٥/١ ، مروج الذهب ٤٦/٢-٤٧ ، الإكليل ٩٨/١-١٠٢ ، ١١٧ ، المقد الفريد ١/١٣٣ ،
شفاء الغرام ٢/٤ ، تاريخ الخميس ص ١١٠ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٣٣١-٣٣٢ ، المعارف ص
١٦-١٧ ، ابن الأثير ١/١٠٣ .

(١) انظر كتابنا إسرائيل ص ١٧٧ .

(٢) تكوين ١٦: ١٦ ، ١٧: ٢٥ .

(٣) فؤاد حسنين : التوراة الهيروغليفية ص ٤ .

(٤) راجع نظريات الخروج في كتابنا إسرائيل ص ٢٦٨-٣٠٣ .

ثم سرعان ما تعلم العربية بعد ذلك ، وهو في مواطنها الأصيلة ، وهكذا نستطيع أن نتصور مدى الأثر الذي تركه إسماعيل — وكذا أمه هاجر المصرية — في لغة جرهم العربية ، عن طريق التفاهم والمخالطة ، وعن طريق الأخذ والعطاء ، أعني أن هناك ألفاظاً مصرية كثيرة دخلت العربية عن طريق إسماعيل وأمّه المصرية .

وأما الشق الثاني ، فهو أن اللغة المصرية القديمة — حتى وإن ذهب البعض إلى أنها حامية تصنيفاً — فإنها إنما ترجع في رأي جمهور العلماء — إلى عائلة اللغات السامية ومنهم T. Benfey, F. Hommel, A. Erman, H. Sethe, A. Ember ^(١) A. Kamal, T. W. Thacker, J. De Morgan, H. Brugsch, W.F. Petrie.

ويستدلون على ذلك بأن اللغة المصرية القديمة قد اشتركت مع أخواتها الساميات في خصائص عدة ، كان من أوضحها وجود حرف العين بين حروفها ، وشيوع المصدر الثلاثي بين أفعالها ، وغلبة الفعل المعتل الآخر فيها ، وكتابة الحروف الساكنة وشبه اللينة في كلماتها دون حروف الحركة ، واستخدام حرف الميم ضمن أدوات النفي فيها ، وفي بقية اللغات السامية ، وإضافة تاء التأنيث في نهاية بعض أسمائها وصفاتها المؤنثة ، وتشابه ضمير جمع المتكلم المطلق فيها مع مثله في اللغة العربية ... ، هذا بالإضافة إلى استخدام ما تستخدمه اللغة العربية الحالية من الإضافة المباشرة وغير المباشرة ، وإلحاق الصفة بالموصوف ، واستخدام تمييز البعض من الكل ، واستخدام الجملة الفعلية إلى جانب الجملة الاسمية ، وتأكيد الجملة الاسمية أحياناً ببدئها بحرف « إن » وإضافة تاء المخاطب للمذكر والمؤنث المفردين في إحدى صيغ الفعل الماضي ، وإضافة ميم المكان وميم الأداة إلى بعض أسمائها وأفعالها ، لتأليف أسماء مركبة تجري مجرى الأسماء العادية ، على غرار المتبع في اللغة العربية ^(٢) ، فإذا أضفنا إلى

(١) انظر مثلاً :

A. Erman, in ZAS, XXVII, 125f, ZAS, XLVI, 96f, ZAS, XLIX, 93f, JAOS, XLVI, 96f, ZAS, XLIX, 93f, JAOS, XLI, 177 and Egypto-Samitic Studies, 1930
T.W. Thacker, The Relations of Semitic and Egyptian Verbal Systems, وكذا Oxford, 1954.

(٢) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها — ج ١ ص ٢٧-٢٨ ، وانظر كذلك =

ذلك أنها كانت تشتمل على نسبة هامة من المؤثرات والكلمات السامية ، وقد أثبت البعض اشتراك أكثر من عشرات الكلمات بين المصرية القديمة والعربية^(١) ، فمثلاً ، ذكر المصريون — منذ عهد الدولة القديمة — أفعال : حسب وخبّ وختم وحرّ وشدّ وتم وتمم ونجر ونعى بألفاظها العربية العادية ، كما عبروا عن الماء بلفظ « مو »^(٢) — وهو نفس اللفظ الذي استعمله الأكاديون واليمينيون القدامى — وعبروا عن الموت بلفظه الحالي ، ومن أقوالهم « هرية منية » أي يوم المنية ، وعبروا عن « الفأس » بكلمة « مر » ، وروت المعاجم — كما في تاج العروس — أن المر عند العرب هو المسحاة أو مقبضها ، وهو من المحراث ويعمل به في الطين ، واحتفظوا بكلمات سامية أخرى كثيرة ، مع تحوير طفيف في كل كلمة منها ، فعبروا عن كلمة آثل بلفظ أسر ، وعن كلمة ثمرة بلفظ برة ، وعن كلمة زمن بلفظ سمن ، وعن كلمة مرض بلفظ مرت ، وأضافت نصوص الدولة الوسطى ثروة سامية جديدة من الأسماء والصفات والأفعال ، فمثلاً كلمة « إذن » عبروا عنها بلفظ « إدن » ، والأمر كذلك بالنسبة إلى الدولة الحديثة ، فذكروا كثيراً من الكلمات بما يقرب من ألفاظها الحالية^(٣) .

هذا وقد تحدثت المصادر المصرية عن بلاد العرب ، فنقرأ في إحدى البرديات الديموطيقية كلمة (با-تا-أربي) ومعناها — طبقاً لترجمة جوتييه — « بلاد العرب » ، وهي قريبة من النطق الآشوري لاسم بلاد العرب « أربي »^(٤) ، كما نقرأ كذلك في

T.W. Thacker, op. cit., P. 47f وكذا A.H. Gardiner, Egyptian Grammar, P. 53 = G. A. Barton, Semitic and Hamitic Origins, Table 1 وكذا JAS, 1923, 117f J. de Morgan, la Prehistoire Orientale, 11, 1926 وكذا Petrie, The Making of Egypt, 1939.

(١) محمد عزة دروزة : الوحدة العربية ، بيروت ١٩٥٧ ص ٢٧ .

(٢) استعمل المصريون كلمة موية ، وعنوا بها الرطوبة والرشح ، وما زلنا نحن أبناء الصعيد نستعمل نفس الكلمة الماء إلى اليوم في قرانا ، وقد شاهدت الأشقاء في الحجاز ، وإلى حد ما في نجد يستعملون نفس الكلمة .

(٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٧-٢٢ .

JE, P. 41.

(٤)

إحدى برديات ليدن الديموطيقية (بادتا-إن-عر) ومعناها « بلادعر » ، ويذهب البعض إلى أنها تعني بلاد العرب ، وقد ورد الاسم (بلاد العرب) كذلك على لوحة « دارا » في تل المسخوطة بصيغة تشبه إلى حد ما الصيغ السابقة ، فقد كتبت « أرييتو » مرة ، و « أربي » مرة أخرى ، ويذهب « جوتيه » كذلك إلى أن العلماء قد أثبتوا أنها إنما تعني « بلاد العرب » ، هذا وقد وردت كذلك أسماء لقبائل وشعوب تسكن المناطق الواقعة في شمالي بلاد العرب^(١) .

على أن مما يلفت النظر ، أن هذه الأسماء ، إنما وردت في العصور الفرعونية المتأخرة ، بل إن بعضها إنما يرجع إلى العصر الفارسي ، وهذا يعني أنها لا ترجع إلى عصر النشاط المصري البحت ، وبخاصة عصر الإمبراطورية المصرية (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق.م) ، كما أن هذه الأسماء إنما تتصل بشمال بلاد العرب ، وعندما عثر العلماء على اسم « شابات » الذي فسره « جولينشف » ، على أنه اسم دولة سبأ القديمة ، فإن هناك من يذهب إلى أن المراد به ميناء « Salat » الواقع على خليج زولا على الساحل الأفريقي للبحر الأحمر^(٢) ، وإن كان مما لا شك فيه أن مصر قد تعاملت مع القبائل العربية في سورية وفلسطين ، وفي شمال بلاد العرب ، على أيام الإمبراطورية المصرية .

ومن ناحية أخرى ، فهناك ما يدل على وجود علاقات تجارية بين مصر وبين المعينيين - أصحاب أقدم دولة عربية - بدليل أن الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح قد عثر في العلا ومدائن صالح على تمثالين حجريين كبيرين نحتتهما فنان مصري منذ نحو ٢٤٠٠ عاماً ، بأسلوب مصري صريح لبعض حكام مملكة ددان ولحيان ، فضلاً عن تمثال صغير من البرونز لفرعون بطلمي متوج كان يجلس على حجر أنثى تقوم بدور الأم - وترمز إلى الربة المصرية إيزيس - وربما تلقاه تاجر لحياي هدية من البلاط البطلمي في مصر خلال القرن الثالث ق.م ، أضف إلى ذلك أن المستشرقين

H. Gauthier, Dict. des Geog., I, P. 5, 213.

(١)

(٢) عبد المنعم عبد الحليم : المرجع السابق ص ٨٤ .

« جوسين وسافينيكا » كانا قد عثرا عام ١٩٠٩ م في نفس المنطقة على تمثالين حجريين يجمعان بين الأسلوب المصري وبين الزي العربي ، هذا إلى جانب أن المقابر النبطية في منطقة مدائن صالح من القرن الأول ق.م ، يعلوها الكورنيش المصري ، أحد خصائص العمارة المصرية ، كما شارك في بنائها معماريون مصريون^(١) .

وفي مصر نفسها ، فقد عثر على كتابات معينة في الجيزة وعند قصر البنات — عند منتصف وادي الحمامات تقريباً — وفي منطقة إدفو^(٢) ، وترجع بعض هذه الكتابات إلى أيام قمبيز (٥٢٥ — ٥٢٢ ق.م) وبعضها الآخر إلى أيام البطلمة^(٣) ، وبدهي أن هذه الكتابات ليست الوحيدة من نوعها ، فهناك كتابة سامية جنوبية — وربما فينيقية — نشرها « فنكلر »^(٤) ، فضلاً عن العثور على كتابات ثمودية منقوشة على صخور وادي الحمامات — وفي سيناء ودلتا مصر — كما وجدت كذلك على صخور وادي العتباي نقوش مشابهة لنقوش وادي الحمامات ، ومنها كتابات سبئية ، متنوعة بعضها غير ظاهر ، ولعل أكثرها وضوحاً كتابة لشخص ، ربما كان قائداً لقافلة من تلك القوافل التي كانت تتجاز الطرق التجارية بين موانئ البحر الأحمر والنيل^(٥) .

على أن واحدة من هذه الكتابات المدونة بخط المسند في الجيزة ، وترجع إلى العام الثاني والعشرين من حكم بطليموس بن بطليموس ، وهو الذي رأى فيه البعض بطليموس الثاني (٢٨٤ — ٢٤٦ ق.م) ، ومن ثم فقد ذهب « أدولف جرومان »

(١) الأهرام ١٩٧٢/٩/٩ .

(٢) A.E. Weigall, Travels in the Upper Egyptian Deserts, P. IV, fig. 31, 14 H. وكذا Winckler, Rock-drawings of Southern Upper Egypt, I, p. 1.

(٣) مطهر على الإرياني : في تاريخ اليمن ، القاهرة ١٩٧٣ ص ١٥ .

(٤) H. Winckler, op. cit., II, Pl. VIII, (٤)

(٥) عبد المنعم عبد الحليم : المرجع السابق ص ٥١ ، وكذا .

F. W. Green, Notes on Some Inscriptions in the ETBAI District, PSBA, 26, 1959, P. 274f.

إلى أنها إنما ترجع إلى عام (٢٦٤-٢٦٣ ق.م)^(١) ، وربما على الأقل ليس بعد عام ٢٦١ ق.م ، فيما يرى آخرون^(٢) ، على أن الدكتور فؤاد حسنين ، إنما يرجعها إلى عهد بطليموس السادس - وإلى عام ١٥٩ ق.م على وجه التحديد - وعلى أي حال ، فهي تشير إلى وجود جالية ، معينة كانت تقيم في مصر ، وتتجر في الطيب والبخور ، وقد كانت هذه تجارة رائجة جداً في العصور القديمة ، بسبب استخدامها في المعابد وغيرها^(٣) ، وإنه لمن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن لغة هذه الوثيقة ، إنما تدل على أن هذه الجالية ظلت مخلصمة لقوميتها ، محتفظة بأبجديتها ، تكتب بها وتعز بتراتها ، والوثيقة قصيرة ، ولكنها ذات أهمية كبيرة ، لأنها تحدثنا عن وجود عرب جنوبيين في مصر في تلك الفترة ، وعن وجود علاقات تجارية ربطت بين مصر وبلاد العرب من البر والبحر^(٤) .

تقول الوثيقة أن صاحبها (زيد إيل ابن زيد) - وكان كاهناً في معبد مصري - عليه دين حان أوان سداه ، إلا أنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً ، دون عون من المعابد المصرية ، ويرى « نيكولوس رود كناكيس » أن المصريين وقت ذاك كانوا قد تساهلوا بعض الشيء في الوظائف الدينية ، ومن ثم فقد سمحوا لبعض الغرباء بالإنخراط في سلك الكهنوت وخدمة المعابد ، وكان زيد هذا واحداً منهم ، ولعله كان يقوم - بجانب وظيفته الدينية - باستيراد ما تحتاجه المعابد المصرية لحسابها^(٥) ، وربما لحسابه الخاص كذلك - فضلاً عن نقل الأقمشة الكتانية الناعمة إلى الجزيرة العربية - وأن الرجل قد أصيب بخسارة في تجارته هذه ، فاضطر إلى الاستدانة ، غير أنه عجز عن الوفاء بدينه عندما جاء أجل سداه ، ومن ثم فإن المعابد المصرية

A. Grohmann, Arabien, Munchen, 1963, P. 26. (١)

BASOR, 73, 1939, P. 7. (٢)

(٣) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٦٩ .

(٤) أحمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية في مصر ص ١٣-١٤ .

(٥) Nikolaus Rhodokanakis, Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete, (٥) Band 2, 1924, P. 116-17.

نفسها قد قامت بهذا العبء ، حتى يستمر الرجل في عمله ، وحتى تعيد إليه ثقته في نفسه ، وثقة الناس فيه ، وقد كان زيد هذا عند حسن الظن به ، فقام برحلة تجارية إلى موطنه الأصلي ، نجح فيها في أن يأتي للمعابد بحاجياتها ، وفي أن يربح منها ما يكفي لإنقاذه من الضائقة المالية التي ألمت به ، وأن ذلك قد تمّ فيما لا يتجاوز الشهر من الزمان^(١) .

وتقرأ في نقشي (جلازر ١١٥٥ ، هاليقي ٥٣٥) عن حرب استعر أوراها بين « مذى » و « مصرو » على أيام « أب يدع يثع » ، تلك الحرب التي قام جدل طويل بين العلماء بسببها ، وإن كان أشد الجدل ، إنما يدور حول المقصود بـ « مذى » وحول تاريخ هذه الحرب ، فذهب « فلي » إلى أن « مذى » إنما هم المديانيون^(٢) ، ورأى « هومل » إنما هم جماعة من أهل بدو سيناء^(٣) ، وزعم « ملاكر » أن هذه الحرب ، إنما هي التي كانت بين مصر وقمبيز في عام ٥٢٥ ق.م^(٤) ، على أن « وينيت »^(٥) — وربما البرايت^(٦) كذلك — إنما يتجهان إلى أنها تشير إلى أيام « ارتكزركسيس » واستعادة الفرس لمصر في عام ٣٤٣ ق.م ، وذهبت « جاكلين بيرين » إلى أنها تشير إلى حروب وقعت بين السلوقيين والبطالمة فيما بين عامي ٢١٠ ، ٢٠٥ ق.م^(٧) ، وأيا ما كان الأمر ، فإن النص إنما يشير إلى اهتمام النصوص العربية بمصر ، وما يدور فيها من أحداث ، ربما لأن هذه الأحداث قد تؤثر إلى حد كبير على بلاد العرب الجنوبية ، وبخاصة في الحياة الاقتصادية — والتجارية منها بالذات — .

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٤٨١/٦ (طبعة الشعب) وكذا

Ibid, P. 113 W.W. Tarn, JEA, 15, 1929, P. 20

J.B. Philby, op. cit., P. 54.

Le Museon, LXII, 3-4, P. 238.

Ibid, P. 231.

BASOR, 73, 1939, P. 8 F

W.F. Albright, BASOR, 119, 1950, P. 11.

J. Pirenne, Paleographie des Inscriptions Sud Arabes, I, 1956, P. 211.

وعلى أي حال ، فإن هناك ما يشير إلى المعينين - وكذا السبئين - إنما كانوا يقومون خلال القرن الثالث ق.م ، برحلات بحرية إلى مصر ، لنقل التوابل العربية التي كانت تستعمل في مصر في التحنيط ، وتقديم القرابين آلافاً متعاقبة من السنين ، وإن كنا على غير يقين من أن سفناً عربية هي التي كانت تنقل هذه السلع خلال الفترات الواقعة بين الرحلات المعروفة التي قام بها المصريون إلى الجنوب ، وبين القرن الثالث قبل الميلاد ، فذلك أمر يبدو ممكناً في ضوء الأدلة التي انحدرت إلينا من أوائل العصر الهلنستي ، ومع ذلك ، فلا يمكن إثبات شيء ، لأن الطريق الآخر - طرق القوافل عبر صحاري بلاد العرب وسيناء - كان قائماً أبداً^(١) .

ورغم ذلك ، فإن العلاقات بين مصر وبلاد العرب في العصور الفرعونية ، تبدو غير واضحة ، وربما كان السبب في ذلك أن الحضارة في اليمن بدأت متأخرة عنها في مصر بفترة طويلة ، كما أن شعوب بلاد العرب - فيما يرى ناللينو - كانت شعوباً تجارية ، نجحت في تأسيس مراكز استيطان لها في شمال بلاد العرب ، ومن ثم فقد كانت حريصة على أوطانها ، فلم تسمح للغرباء بدخولها ، كما لم تسمح للسفن المصرية بدخول موانئها ، حتى لا تفقد احتكارها لتصدير البخور ، سلعتها الثمينة ، أضف إلى ذلك أن اليمنيين ، إنما كانوا ينقلون تجارتهم عن طريق البر - وليس البحر - ومن ثم فلم تكن هناك فرصة للاتصال بالمصريين الذين كان البحر هو وسيلة الاتصال المباشر بهم^(٢) ، هذا إلى أن المصريين لم يكونوا مضطرين إلى الذهاب إلى اليمن للحصول على البخور ، الذي كان الحصول عليه متاحاً من الجانب الأفريقي للبحر الأحمر ، وأخيراً فإن اليمنيين أنفسهم لم يكن هناك ما يدعوهم إلى المجازفة للوصول إلى الأسواق المصرية - عن طريق البحر الأحمر - لتصريف سلعتهم الرئيسية (البخور) وخاصة أنهم لم يكونوا من الشعوب البحرية ، فقد توفرت لديهم الأسواق اللازمة لتصريف هذه السلعة الرئيسية في أسواق بلاد ما بين النهرين وبلاد

(١) فضل حوراني : المرجع السابق ص ٦١-٦٢ .

G.A. Nallino, L'Egypte avait-elle des Relations directes avec L'Arabie Mer- (٢) idionale avant l'age des Ptoleemes, BIFAO, XXX, 1931, P. 475.

الشام ، وهي الأسواق التي كان يمكنهم الوصول إليها بالطريق البري الذي يلائم نوع نشاطهم^(١) .

وإني لأظن أن الأمر ليس كما صورته « نالينو » ، بدليل أن السفن المصرية قد وصلت إلى اليمن من قبل ، يوم أن كانت تقوم برحلاتها إلى بونت ، ومن بعد على أيام البطلمة — كما سوف نرى — ولم يقل أحد أن البطلمة قد بلغوا في ميزان القوى ما بلغته مصر الفراعنة ، كما أن الساحل الأفريقي لم يكن مقفلاً أمام السفن المصرية ، يوم أن اتجهت إلى السواحل العربية ، وأما الحرص على الأوطان ، فتلك نعمة « فرق تسد » ينشرها الأوربيون بين العرب ، ومع ذلك ، فهو أمر لم يكن — ولن يكون — مقصوراً على اليمنيين فحسب ، وإنما تلك سنة الله في خلقه ، ثم أين ذلك الحرص على أيام البطلمة ؟ .

ومن هنا ، فالرأي عندي أن العلاقات بين مصر وبلاد العرب كانت قائمة في تلك الفترة ، ثم أفترض بعد ذلك فرضين ، لا أرجح الواحد على الآخر ، أما أول الفرضين ، فهو أن الأرض الطيبة في مصر واليمن — وكذا منطقة العلا ومدائن صالح — لم تقدم لنا كل ما عندها من تاريخ ، وأما ثانيهما ، فإن اليمنيين ربما كانوا يقدمون سلعهم لمصر عن طريق محطات القوافل في شمال بلاد العرب ، وتلك جد قريبة من مصر ، بل هي على حدود الأمبراطورية المصرية مباشرة ، وربما كانت القوافل المديانية أو الإسماعيلية هي التي كانت تقوم بتوصيل هذه السلع إلى أرض الكنانة — إن لم يتم ذلك بإشراف الموظفين المصريين في فلسطين — ولدينا من القرن السابع عشر ق.م ، ما يشير إلى وجود مثل هذه القوافل — كما جاء في التوراة^(٢) والقرآن الكريم^(٣) ، عند الحديث عن قصة الصديق عليه السلام .

وأياً ما كان الأمر ، فإن العلاقات بين العرب ومصر ، سرعان ما تشتد وتقوى

(١) عبد المنعم عبد الحليم : المرجع السابق ص ٨٦-٨٧ .

(٢) تكوين ٣٧ : ٢٥-٣٠ ، ٣٩ : ١ .

(٣) سورة يوسف : آية ١٩-٢١ .

في أيام البطالمة ، حيث يرث بطليموس الأول الجزء الغربي من امبراطورية الأسكندر في الشرق^(١) ، وفي هذا القسم كانت تعيش قبائل عربية لم تكن براضية على الوضع الجديد ، ومن ثم فقد عبرت عن شعورها هذا ، بالوقوف إلى جانب « أنطيوخس » ، ضد بطليموس الأول (٣٢٢-٢٨٤ ق.م) ، على أن مركز مصر الجغرافي سرعان ما ساعد البطالمة على إتخاذ سياسة نشطة في البحر الأحمر والمحيط الهندي^(٢) ، ومن ثم فقد رأينا بطليموس الثاني (٢٨٤-٢٤٦ ق.م) يأمر بإعادة حفر القناة القديمة التي كانت تربط النيل بالبحر الأحمر^(٣) ، (وهو المشروع الذي طالما فكر المصريون في تنفيذه على أيام الدولة الحديثة ، ثم على أيام نخاو الثاني (٦١٠-٥٩٥ ق.م) الذي تخلى عنه فجأة ، لأن نبوءة جاءت تقول أن القناة ليست في مصلحة مصر ، وأنه لن يستفيد منها سوى الأجانب^(٤) ، وهو نفس المشروع الذي أتمه دارا الأول الفارسي (٥٢٢-٤٨٦ ق.م) لمصلحة بلاده^(٥) ، وهكذا رأينا البطالمة ينشئون منصباً جديداً في أواخر القرن الثاني ، وبداية القرن الأول قبل الميلاد ، وهو منصب « قائد البحر الأحمر والمحيط الهندي » ، الذي يرجح أنه في بداية الأمر كان يتولاه قائد مديرية « فقط » ، أما منذ عام ٧٨ ق.م ، فإن قائد منطقة طيبة (الأقصر) هو الذي كان يشغل هذا المنصب الجديد^(٦) .

هذا فضلاً عن أن بطليموس الثاني قد وضع الساحل الشرقي للبحر الأحمر تحت سلطانه ، كما وطّد علاقته الطيبة بديدان على طريق البخور ، ومن ثم فقد عمل على نقل تجارة البخور من ديدان إلى ميناء جديد على البحر الأحمر ، ثم نقلها بعد ذلك

A. Grohmann, op. cit., P. 23.

(١)

(٢) جواد علي ٢٢/٢ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ٤٨٠/٦ .

G. Posener, le Canal du Nil a la Mer Rouge, P. 272.

(٤)

(٥) أحمد فخري : المرجع السابق ص ٤٢٦ .

Rostovtzeff, Social and Economic History of the Hellenistic World, P. 928. (٦)

وكذا : ابراهيم نصحي : دراسات في تاريخ مصر ص ١٥١ .

إلى مصر عن طريق المراكب ، كما تم نقل الجمال بنفس الطريقة ، ويبدو أن العرب الذين جيء بهم إلى مصر مع جمالهم ، كانوا يعرفون الكتابة بالخط الشمودي المعروف في شمال الحجاز ، ومن ثم فقد عثر على عدة نقوش ثمودية في صحراء مصر الشرقية^(١) .

وهناك من يذهب إلى أن بطليموس الثاني قد أرسل كذلك « أرسطون » لكشف الساحل الشرقي للبحر الأحمر ، فيما بين السويس والمحيط الهندي^(٢) ، إلى جانب تأسيس مواني على البحر الأحمر^(٣) ، فضلاً عن توسيع التجارة مع سواحل أفريقية وبلاد العرب والهند، وذلك رغبة في تصريف المنتجات المصرية مثل المنسوجات والزيوت والآنية الزجاجية والأسلحة وغيرها من معدات القتال ، فضلاً عن الحصول على العطور والبهار والبخور والمر والقرفة والعاج والأرز والأصداف والآلء والأصباغ والقطن والحرير من الصومال ، ومن بلاد العرب الجنوبية والهند^(٤) .

وقد أدى ذلك كله إلى أن تشهد العلاقات التجارية بين مصر وبلاد العرب نشاطاً لم تعهده من قبل^(٥) ، كما شهدت في الوقت نفسه منافسة بين الطرفين ، انتهت بتحويل التجارة من الموانئ العربية إلى موانئ مصر ، وإن احتفظ العرب الجنوبيون بتجارة الهند^(٦) ، حتى أن المراكب الهندية إنما كان لزاماً عليها أن تفرغ حمولتها في قبضة الأعراب — في جزيرة سوقطرة ، أو في ثغر أدانا (عدن) — وذلك لأن

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٦/٤٨٠-٤٨١ .

(٢) فضلو حوراني : المرجع السابق ص ٥٣-٥٤ وكذا W. Tarn, op. cit., P. 14.

(٣) W. Vincent, The Periplus of the Erythrean Sea, II, P. 309.

(٤) إبراهيم ضحى : تاريخ الحضارة المصرية — المجلد الثاني — ص ٤٥ .

(٥) فضلو حوراني : المرجع السابق ص ٥٥-٥٦ وكذا

S. Huzayyng, Arabia and the Far East, P. 86 وكذا O'Leary, Arabia before Muhammed, P. 71.

De Lacy o'Leary, op. cit., P. 73. (٦)

العرب الجنوبيين كانوا لا يسمحون لهذه السفن الهندية بدخول بوغاز باب المندب^(١) ، مما يدل على أن العرب الجنوبيين كانوا ما يزالون يحتفظون بمركز تجاري ممتاز ، يتمثل ذلك في ما كان يتمتع به السبثيون وأهل جرها من ثروة طائلة في تلك الفترة ، وفي قصة « زيداييل » الآتفة الذكر^(٢) .

على أن الأمر جد مختلف بالنسبة إلى دولة الأنباط في شمال غربي الجزيرة العربية ، فقد كان استكشاف السواحل العربية على البحر الأحمر ، وإعادة القناة التي تصل النيل بهذا البحر ، فضلاً عن خضوع فلسطين وفينيقيا لمصر ، إنما يعني سيطرة مصر على التجارة البحرية^(٣) ، وكل هذا يمكن أن يترجم ببساطة إلى خسائر فادحة بالنسبة للأنباط الذين كانوا يحصلون على أرباح باهظة من تجارة القوافل التي كانت تمر ببلادهم ، ومن ثم فقد انتهز القوم فرصة الحروب التي استعمر أوارها بين البطالمة والسلوقيين ، وأخذوا يشنون الغارة تلو الأخرى على السفائن الذاهبة أو الآتية من مصر^(٤) ، وقد أدى هذا الوضع الجديد إلى أن ينشئ بطليموس قوة بحرية لحراسة هذه السفن التجارية^(٥) ، بل إن هناك من يذهب إلى أن الرجل ربما أرسل — عقب رحلة أرسطون — حملة ضد النبط أنفسهم^(٦) ، فضلاً عن الاستيلاء على أهم المحطات والموانئ التجارية ، كميناء « ايله » على خليج العقبة^(٧) ، و « لويكي كومي » على ساحل الحجاز (وهي الحوراء مرفأ سفن مصر إلى المدينة على رأي^(٨) ،

(١) إبراهيم نصحي ، تاريخ الحضارة المصرية ٤٥/٢ ، دراسات في تاريخ مصر في عهد البطالمة ص ١١٩ .

(٢) فضلو حوراني : المرجع السابق ص ٥٩-٦١ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٥٨ .

(٤) جواد علي ٢٠/٣-٢١ وكذا

Strabo, III, P. 402 وكذا Murry, The Rock City Petra, P. 80.

M. Rostovtzeff, op. cit., P. 383f.

(٥)

(٦) إبراهيم نصحي : المرجع السابق ص ١٢٢ .

(٧) جواد علي ٢٧/٣ .

C. Forster, The Historical Geography of Arabia, 2, P. 220.

(٨)

والمويلح على رأي آخر^(١) ، وعينونه أو الخريبة على رأي ثالث^(٢)) ، ومن المحتمل أيضاً أنه استولى إذ ذاك على الشاطئ الشرقي للبحر الميت الذي كان في قبضة النبط^(٣) ، كما أن هناك احتمالاً ترتب على تنشيط العلاقات التجارية القديمة بين مصر والعلا ، وهو أن بطليموس الثاني شجع « ميليتوس » على إنشاء مستعمرة لها على الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر في مواجهة المدينة المنورة ، ومن هذا الثغر الذي عرف باسم « امبلوني » (Amblone) كانت تجارة بلاد العرب والهند تنقل إلى مصر^(٤) .

وإذا كان صحيحاً ما ذهب إليه البعض ، من أن الجاليات اليونانية التي تحدث عنها الكتاب الكلاسيكيون ، من أنها كانت تقيم في مواضع مختلفة من الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية ، ترجع إلى أيام البطلمة^(٥) ، فهذا يعني سيطرة مصر في ذلك العهد على البحر الأحمر تماماً .

وأياً ما كان الأمر ، فلقد نشطت تجارة مصر مع بلاد العرب والهند ، وساعد على ذلك عدة أمور ، منها فترة الضعف التي كانت تمر بها بلاد العرب الجنوبية ، بعد انهيار مملكة سبأ حوالي عام ١١٥ ق.م ، وعدم قدرة الأعراب على إغلاق بوغاز باب المندب في وجه السفن الأجنبية^(٦) ، ومنها نجاح « هيبالوس Hippalos » حوالي عام ١٠٠ ق.م ، في كشف طرق الإفادة من الرياح الموسمية ، مما يسر اجتياز باب المندب ، بل والإبحار إلى الهند مباشرة ، ويحدثنا « بوسايدونيوس » أن « ايودوكسوس » قد أبحر — على أيام بطليموس الثامن — في رفقة بحار هندي ، إلى الهند ، وبذا أصبح في الإمكان الاتصال المباشر بالهند ، مما أضعف الدور الذي كان يقوم به العرب كوسطاء إلى حد كبير^(٧) .

(١) W. Vincent. op cit, P. 230 وكذا C. Forster, op-cit, P, 285

(٢) جواد علي ٢٨/٣ .

(٣) إبراهيم نصحي : المرجع السابق ص ١٢٢ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ١٢٣ .

Araber, I, P. 70, 121.

(٥) جواد علي ٣٠/٣ ، وكذا

W. Tarn, Hellenistic Civilization, P. 214f.

(٦)

Strabo, II, 98-102.

(٧) إبراهيم نصحي : المرجع السابق ص ١٢١ ، ١٥١ وكذا

وأما بالنسبة إلى الهجرات العربية بقصد الاستقرار في مصر ، فقد كان هناك الكثير من الموجات التي دفعت بها بلاد العرب إلى مصر في العصور الفرعونية ، ونقرأ في هيرودوت (٤٨٤-٤٣٠ ق.م) أن الأقسام الشرقية من مصر بين سواحل البحر الأحمر ونهر النيل ، إنما كانت مأهولة بقبائل عربية ، ويذهب « استرابو » و « بليني » إلى أن عدد العرب في عهدهما قد تضاعف على الضفة الغربية من البحر الأحمر ، حتى شغلوا كل المنطقة بينه وبين النيل في أعلى الصعيد ، وكان لهم جمال ينقلون عليها التجارة والناس بين البحر الأحمر والنيل^(١) ، وقد وصف « استرابو » كذلك مدينة « قفط » بأنها مدينة واقعة تحت حكم العرب ، وبأن نصف سكانها يتكونون من أولئك العرب^(٢) ، كما أن هناك من العلماء من يرجع سكان الدلتا إلى أصول آسيوية دخلت عبر سيناء ، بينما يقول « ابن خلدون » إن صحراء مصر الشرقية وسيناء كانتا عامرتين بعرب الشمال ، وعلى أي حال ، فلقد عرفت مصر قبيل الإسلام ، فرعي العرب الكبيرين ، القحطانيين الزراع ، وكانوا يعبرون البحر ويستقرون في الوادي ويختلطون بسكانه ، والعدنانيين ، وكانوا يجوبون الصحراء كبذور رحل ، ولهذا لم يختلطوا كثيراً بالمصريين^(٣) .

وهنا علينا أن نتذكر دائماً وأبداً ، أنه لم يوجد في يوم من الأيام حاجز طبيعي يفصل بدو شرق مصر ، عن بدو سيناء ، أو بدو فلسطين أو شرق الأردن ، أو شمالي بلاد العرب ، ولهذا كان طبيعياً أن يتصل المصريون منذ بدء تاريخهم بهؤلاء وأولئك ، وأن تكون بلادهم مفتوحة لسكان هذه المناطق ، يأتون إليها لأسباب مختلفة ، مرة كتجار في الأسواق المصرية ، وأخرى لاجئين يرغبون العيش في كنف الفراعين ، وثالثة مغيرين ينهبون ويسلبون حين تفقر بلادهم ، ويضر بهم شظف العيش ، ومن هنا فإننا نسمع كثيراً - في النصوص المصرية - عن حملات ضد آل « حر يوشع » ،

(١) أحمد مختار عمر : المرجع السابق ص ١٢-١٣ ، المقريري : البيان والإعراب ص ٨٩ .

(٢) مصطفى كامل الشريف : عروبة مصر من قبائلها ص ٢٢ ، دائرة المعارف الإسلامية ٦/٨٠٠ وكذا

El, Kibt, P. 991.

(٣) جمال حمدان : شخصية مصر ص ٤٨٦ .

وهو اصطلاح يعني حرفياً « أولئك الذين فوق الرمال » ، وإن كان الأمر مختلفاً في حالة تسربهم إلى داخل البلاد في مجموعات كبيرة أو صغيرة^(١) .

وأياً ما كان الأمر ، فإن بلاد العرب كثيراً ما كانت تقذف بالموجة تلو الأخرى إلى وادي النيل عبر البحر الأحمر ، وعن طريق سيناء ، والتي كانت منذ القدم قنطرة ثابتة مفتوحة للهجرات ، ومن هذه الهجرات :

(أولاً) هجرة قبائل كهلانية من عرب الجنوب ، استقرت في الجزء الشمالي الشرقي من مصر في مطلع المسيحية ، ومنها :

(ثانياً) هجرة قبائل من « طيء » - فرع كهلاني آخر من المجموعة الجنوبية - كان من أهمها قبيلتا « لحم وجذام » اللتان استقرتا في محافظة الشرقية ، ومنها : (ثالثاً) قبيلة « بلى » التي استقرت فيما بين قنا والقصر ، وكان عليها الاعتماد في نقل التجارة الهندية^(٢) ، ومنها :

(رابعاً) أن النقوش تثبت لنا وجود تجار تدمريين مستقرين في مدينة « قفط » في صعيد مصر ، منذ القرن الثاني الميلادي^(٣) ، ومنها :

(خامساً) هجرة بطون من « خزاعة » - وهم فرع من الأزد - خرجوا في الجاهلية إلى مصر والشام ، بسبب قحط أصاب بلادهم ، هذا فضلاً عن الجماعات التي استقرت في شرق الدلتا قبل الإسلام^(٤) .

ولعل الحروب التي دارت رحاها بين « الزباء » ملكة تدمر ، وبين الإمبراطورية الرومانية على أرض الكنانة في القرن الثالث الميلادي ، إنما تدل على مدى تغلغل

(١) محمد بيومي مهران : الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية ص ٣٠ وما بعدها ، وكذا : المؤلف : حركات التحرير في مصر القديمة - الإسكندرية ١٩٧٦ (دار المعارف) وكذا

A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, P. 97

(٢) أحمد مختار عمر : المرجع السابق ص ١٢ وكذا Abass Ammar, The People of Sharqiya, I, Cairo, 1944, P. 21-4.

(٣) مصطفى العبادي : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي ص ١٩٨ ، وكذا A.J. Reinach, Rapport sur Les Fouilles des Coptos, P. 17.

(٤) أحمد مختار عمر : المرجع السابق ص ١٢ .

القبائل العربية في المنطقة الشرقية من مصر ، فضلاً عن الدور الذي قامت به هذه القبائل — بجانب الرباء — في هذه الحروب ، وبخاصة في المعارك الضارية التي دارت حول حصن بابلون ، والتي تدل بوضوح على أنها قوية ، وكثيرة العدد كذلك ، حتى أنها جعلت ميزان النصر الذي كان يتذبذب بين الطرفين ، يستقر تماماً إلى جانب التدمريين^(١) .

وعلى أي حال ، فإني أظن — وليس كل الظن إثماً — أن الهجرات العربية ظلت تتدفق على مصر ، منذ عصور ما قبل التاريخ — وطوال العصور التاريخية — حتى الفتح الإسلامي في القرن السابع الميلادي ، بدرجة كبيرة أو صغيرة ، طبقاً للظروف السياسية والاقتصادية .

ولعل من الغريب المدهش أن هذه الهجرات العربية نحو أرض الكنانة ، قد استمرت حتى عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب — رضي الله عنه وأرضاه — فهناك ما يشير إلى هجرة عربية مسيحية من غسان ولخم وعاملة إلى مصر — قبل فتح الكنانة ، وبعده فتح الشام — وقد منح الإمبراطور الروماني المهاجرين إقطاعية « تانيس » (صان الحجر)^(٢) ، وأن نفس هذه القبائل قد انضمت إلى النجدة التي أرسلها الفاروق — رضوان الله عليه — لمساعدة عمرو ابن العاص في مهمته النبيلة ، والعظيمة كذلك^(٣) .

ولم يكن أمر العلاقات التجارية يختلف عن ذلك كثيراً ، فالثابت أن عمرو بن العاص قد زار مصر قبل الفتح الإسلامي بوصفه تاجراً ، وذهب إلى الدلتا ومن بعدها إلى الإسكندرية ، وأن خبرته بالبلاد المصرية هي التي جعلته يفكر في غزوها ، ويغري الخليفة بذلك ، وهي التي سهلت له عملية الفتح بعد ذلك^(٤) .

(١) جواد علي ١١٤/٣-١١٥ ، وكذا CAH, 12, P. 301. ، وكذا Altheim, F., and Stiehl, R., Die Araber in der Alten Welt, P. 272, Wright, W, an Account of Palmyra and Zenibia, P. 137.

(٢) المقرئزي : المرجع السابق ص ٩٠-٩١ .

(٣) مصطفى كامل الشريف : المرجع السابق ص ٢٣ .

(٤) الكندي : الولاة والقضاة ، بيروت ١٩٠٨ ص ٦-٧ ، فضائل مصر — القاهرة ١٩٧١ ص ٥٠ ، جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، الإسكندرية ١٩٦٧ ص ٥ وما بعدها .

ومعنى ذلك كله ببساطة ، أن تعريب مصر سبق في بدايته الفتح العربي والعصر الإسلامي ، وأنه قد تمّ في مصر — كما هو قد تمّ في غيرها من بلاد العرب — وإن كان الفتح نفسه — دون شك هو الخطوة الحاسمة^(١) .

ولعلنا الآن بعد هذه المؤشرات والمفاتيح نستطيع أن نقول أن العلاقات المصرية العربية ، إنما هي قديمة قدم هاتين الأمتين ، وأن تعريب مصر الذي تمّ بعد أن جاء العرب المسلمون إلى أرض الكنانة ، يحملون راية الإسلام ، على أيام الفاروق عمر بن الخطاب — رضي الله عنه وأرضاه — فأمنت مصر بربرها الواحد الأحد ، واعتنقت ديانتها الخالدة ، وإلى الأبد — الإسلام — ونطقت بالعربية ، لغة القرآن العظيم ، حين حدث ذلك والتقى العرب بالمصريين ، وتصاهروا واختلطت دماؤهم ، لم يكن ذلك في الحقيقة ، إلا لقاء أبناء عمومة أو أخوة في المهجر ، أو هو كان لقاء أباء بأبناء ، أو أجداد بأحفاد ، وقد يكون الأصح أن نقول إعادة لقاء — بعد أن باعدت بينهم الصحراء التي استحدثها عصر الجفاف —

وإذا كانت قد تبلورت بعض ابتعادات ثانوية ، أو تعديلات جسمية مكتسبة على المدى التاريخي والبعد الجغرافي ، فقد جاءت الموجة العربية في مصر — كما في غيرها من البلاد العربية — أشبه بعملية « خض » ، أو تقليب عميق لجزئيات متماثلة أصلاً ، تعيد مزجها حتى لا تتخثر أو تتحجر ، والمد العربي بهذا وبتأثيره يبدو — في معنى ما — كما لو كان عوداً إلى نعط العصر المطير ، حين نشر العرب شبكة غطاءية متجانسة على وجه المنطقة جميعاً ، وصلت ما انقطع ، وأعادت تأكيد الوحدة الأولية .

وانطلاقاً من هذا ، مرة أخرى ، فإذا صحت دلالة السند الديني والتاريخي عن الجانب المصري في أصل العرب — وهي صحيحة بالتأكيد — فقد عاد العرب بدورهم ليعطوا مصر جانباً عربياً آخر في أصلها ، عادوا ليعطوها أبوة جديدة ، فالعلاقات الدموية إذن ، علاقة متبادلة على التعاقب والتناوب ، وهي علاقة دائرية أكثر منها خطية ، الكل فيها أب وابن على التوالي ، والكل فيها في النهاية مضاف ومضاف إليه ، أكثر منه فاعلاً ومفعولاً به^(٢) .

(١) جمال حمدان : المرجع السابق ص ٤٨٦ . (٢) نفس المرجع السابق ص ٤٨٦ — ٤٩٠ .

ثانياً : العرب وبلاد الرافدين :

ترجع علاقة العرب ببلاد الرافدين إلى عصور موغلة في القدم ، ولدينا ما يشير إلى أنه ابتداء من حوالي عام ٣٠٠٠ ق.م. بدأت بعض القبائل السامية تهاجر من بلاد العرب إلى العراق ، وتستقر في منطقة بابل ، ولم يمض عليها إلا قرون عدة ، حتى أصبحت صاحبة الأمر في البلاد ، وبدهي أن هؤلاء المهاجرين لن يستطيعوا أن يفرضوا أنفسهم على شعب ذي حضارة — كالسومريين — إلا إذا كانوا قد وصلوا إلى مرحلة من التقدم ، تجعلهم يعرفون كيف يستفيدون من غيرهم ، وتصبح لهم السيطرة على البلاد ، وأن تظل لغتهم الأصلية ، وكثير من مظاهر ثقافتهم ملازمة لهم قروناً طويلة ، وهكذا يمكننا القول أن هؤلاء المهاجرين من بلاد العرب إلى العراق قبل خمسة آلاف عام ، لم يكونوا قوماً بدائيين ، بل كانوا ذوي ثقافة خاصة ، ولهم نظمهم وحياتهم الاجتماعية^(١) .

ونقرأ في نقش مشهور للملك الأكدي « سرجون الأول » (٢٣٤٠-٢٢٨٤ ق.م) ما يفهم منه صراحة أنه وعشيرته قد نزحوا إلى العراق من شرق شبه الجزيرة العربية^(٢) على أن أقدم نقش يتحدث صراحة عن العلاقات بين العرب وسكان العراق القديم ، إنما يرجع إلى نفس الأسرة — إلى عهد نرام سين (٢٢٦٠-٢٢٢٣ ق.م) — حيث جاء في نقش على تمثال له « نرام سن ، الملك القوي ... أخضع بلاد مجان ، وأخذ (مانوا دانو) (٣) ملك مجان أسيراً »^(٤) .

وهناك نص سومري يرجع إلى عهد « أرادنار » من أسرة لجش الثانية — والتي

(١) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٢٤ .

(٢) حسن ظا : الساميون ولغاتهم ص ١٢٦ .

(٣) راجع آراء طريفة ، وإن كانت بعيدة عن المنطق الزمني والتاريخي عن « مانو دانو » هذا و« منى » مؤسس الملكية المصرية ، في كتابنا « حركات التحرير في مصر القديمة » ص ٥٠ وكذا عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ١/١٣٥ ، A. H. Sayce, JEA, ١٣٥/١ ، وكذا W. Albright, JEA, 6, P. 89f. وكذا S. Langdon, JEA, 7, 1921, P. 123f. وكذا 6, 1920, P. 296

(٤) Jean Bottero, The First Semitic Empire, in the Near East ... , 1967, P. 94, 126,

W. King, Studies in Eastern History, I, P. 21. وكذا A. Grohmann, op. cit., P. 21. وكذا CAH, I, 1923, P. 415 وكذا P. 15

تعاصر أسرة أور الثالثة التي حكمت في النصف الثاني من الألف الثالثة ق.م — جاء فيه كلمة « Sabum » (سا-با-ا : Sa-Ba-A-A) وتعني « سبأ »^(١) ، ويرى « فريتز هومل » أن كلمة « Sabum » التي وردت في النصوص السومرية ، إنما تعني سبأ التي وردت في التوراة ، فإذا كان ذلك كذلك ، فإن سبأ إنما كانت معروفة في النصوص السومرية منذ الألف الثالثة ق.م^(٢) هذا وقد قدمت البحرين للباحثين هيكلين كاملين ، رأينا الميث فيهما يرقد على جنبه الأيمن ، ويتجه بوجهه نحو المشرق ، الأمر الذي كان يتبعه سكان العراق في الألف الثالثة ق.م^(٣) ، مما يشير إلى تأثير عراقي في البحرين .

وفي العهد الآشوري ، وعلى أيام الملك شلمنصر الثالث (٨٥٨ — ٨٢٤ ق.م) — أول من ذكر العرب في حوارياته^(٤) — تقوم معركة « قرقر » عام ٨٥٣ ق.م ، بين الآشوريين وبين حلف من الملوك السوريين ، ينضم إليه أمير ولاية « موصري » في الشمال الغربي من بلاد العرب ، فضلاً عن أمير عربي آخر ، يدعى « جندب » (جنديبو) ، شارك في المعركة بمدد محمول على ألف بعير^(٥) ، ورغم أن النص الآشوري لم يشير إلى موقع إمارة جندب هذه ، فإن القرائن تشير إلى أنها إنما كانت في أطراف البادية ، بل إن « الويس موسل » يرى أنها إنما تقع إلى الجنوب من دويلة دمشق^(٦) ، كما أن هناك ما يشير إلى أن العاهل الآشوري قد مدّ حدوده حتى الكويت ، ومن ثم فقد اتصل بالقبائل التي تقطن هذ البقاع من بلاد العرب^(٧) .

(١) O'Leary, op. cit., P. 87. وكذا EI, 4, P. 3.

(٢) F. Hommel, in Hilprecht's Exploration in Bible Land, 1903, P. 739. وكذا A. Grohmann, op. cit., P. 24.

(٣) J.H.D. Belgrave, op. cit., P. 52.

(٤) N. Abbot, Pre-Islamic Arab Queens, P. 4.

(٥) J. Montgomery, op. cit., P. 27, وكذا M, Noth, The History of Israel, P. 245-6. وكذا CAH, III, P. 363. و ANET, P. 279.

(٦) A. Musil, Arabia Deserta, P. 477.

(٧) G. Roux, Ancient Iraq, 1966, P. 277.

وعلى أي حال ، فمنذ تلك الفترة — أي منذ القرن التاسع ق. م — بدأ الآشوريون — والبابليون من بعدهم — يهتمون ببلاد العرب ، وربما فكروا في بسط نفوذهم عليها ، ربما بسبب الرغبة في حماية طرق القوافل القادمة من بلاد العرب الجنوبية . محملة بالبخور وغيره من المنتجات التي كانوا — كما كان المصريون كذلك — يتوقون إلى الحصول عليها ، وربما اتقاء لغارات مفاجئة قد يقوم بها الأعراب في شمال الجزيرة العربية ضد الإمبراطورية الآشورية أو البابلية ، وأياً ما كان السبب ، فإننا نقرأ في حوالات الملك الآشوري « تجلات بلاسر » الثالث (٧٤٥-٧٢٧ ق.م) ، التي عثر عليها في « كالح » عن جزيرة من « زيبية » (زيببي) ملكة بلاد العرب — وربما كان مقرها في دومة الحنديل^(١) — والأمر كذلك بالنسبة إلى الملكة « شمس » (سمسى) التي قدمت للعاهل الآشوري جمالاً ونيافاً^(٢) ، فضلاً عن تعيين مقيم يمثله في بلاطها^(٣) ، يقول النص الآشوري ، « أما شمس ملكة بلاد العرب ... فقد قتلت ١١٠٠ من السكان ، واستوات على ٣٠٠٠٠ جمل ، ٢٠٠٠٠ من الماشية ، ٥٠٠٠ إناء توابل وكل ممتلكاتها ، وأخذت منها هذه وغيرها ، وأما هي فقد هربت إلى مدينة « بازو » ، وهو إقليم ليس به ماء ... ثم أدركت مدى قوة جيشي ، فجاءت لي بالجمال والنياق ... ووضعت عليها حاكماً »^(٤) .

ويفهم من هذا أن الملكتين العربيتين ، إنما قد اضطرتا إلى تقديم فروض الولاء للملك الآشوري ، وربما كان ذلك بعد نجاحه في الاستيلاء على غزة وقطع طريق البخور^(٥) ، بل إن النص إنما يشير كذلك إلى أن العاهل الآشوري قد أخذ الجزيرة

(١) دومة الحنديل : وتسمى حالياً الجوف ، على مسافة ٤٠٠ كيلومتر شرقي البتراء ، وتسمى عند الآشوريين أدوماتو ، وفي التوراة دومة ، أما الحنديل فهو الصخر لأنها تقع على حافة النفود الشمالي ، ومن ثم فهي بمثابة قلعة الجزيرة العربية الشمالية في وجه المهاجمين من الشمال والشمال الشرقي ، وهي مركز ديني هام ، كما تميزت بتولي ملكات للسلطين الدينية والزمنية (الأنصاري : المرجع السابق ص ٨٣-٨٤) .

(٢) N. Abbot, AJSL, 58, P. 4.

(٣) A. Musil, op. cit., P. 477.

(٤) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم ٢٦٨/٥ ، وكذا ANET, P. 280.

(٥) A.T. Olmstead, History of Assyria, P. 189.

من « تيماء » (ويقع على مبعدة ١٢٥ كيلو متراً إلى الشمال الشرقي من مدائن صالح) كما أخذها كذلك من غيرها من الواحات العربية^(١) ، فضلاً عن « سبأ » ، والتي ربما تعني هنا الحالية السبئية التي خلفت المعينيين في ديدان ، ومن هنا فإنها ترد في النص بعد تيماء مباشرة^(٢) ، ويبدو أن قد نقضت بعد ذلك عهد الولاء لآشور ، ومن ثم فإننا نقرأ في حوليات السنة الأولى من عهد سرجون الثاني (٧٢٢-٧٠٥ ق. م) أن الملك الآشوري وقد أجبرها على دفع الجزية ، « تلقيت الجزية من بيرو صاحب موصرى ، ومن سمى ملكة بلاد العرب ، ومن اتعمارا (يشع أمر) أمير سبأ ، تبرأ وخيلاً وجمالاً »^(٣) وأن أمير سبأ هذا كان يحكم - فيما يرى موسل - في شمال بلاد العرب على مقربة من البادية - إما في أعالي الحجاز أو في نجد - وإما في المناطق الجنوبية من الأردن^(٤) .

وهناك ما يشير إلى أنه في حوالي عام ٧٢٠ ق. م (أو ٧١٥ ق. م) ، قد حدثت اضطرابات خطيرة في سورية وفلسطين ضد سرجون الثاني ، وأن سكان شمال غربي الجزيرة العربية قد شاركوا في هذه الاضطرابات بنصيب كبير أو قليل ، وحين نجح الإمبراطور الآشوري في القضاء على هذه القلاقل ، عمل - كما تقول التوراة^(٥) - على أن يأتي بقوم آخرين ، وأن يسكنهم هذه الأقاليم^(٦) ، ومن بينهم مجاميع من العرب ، حددهم النص الآشوري « بقبائل تامود وإيباديدي ومرسيمانو وجبابا »^(٧) ، والعرب الذين يعيشون بعيداً في الصحراء ، والذين لا يعرفون برؤساء أو موظفين ، والذين لم يكونوا قد جاءوا بجزاهم لأي ملك ،

(١) عبد الرحمن الأنصاري : لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غربي الجزيرة العربية ص ٨٢ .

(٢) جواد علي ٥٨١/١ وكذا

A. Musil, Northern Hegaz, P. 288 وكذا Van den Branden, Histoire de Thamoud, P. 7.

(٣) A.G. Lie, The Inscriptions of Sargon, II, P. 5 وكذا ANET, P. 284.

(٤) A. Musil, op. cit., P. 479.

(٥) ملوك ثان ١٧ : ٢٤ ، عزرا ٢ : ٩ .

(٦) راجع كتابنا إسرائيل ص ٥١١ .

(٧) راجع عن هذه القبائل : الويس موسل : شمال الحجاز ص ٩١-٩٥ (ترجم) .

سببت الأحياء منهم ، ونقلتهم إلى السامرة^(١) ، فضلاً عن ملوك ساحل البحر ، وآخرين في البادية ، من هؤلاء تلقيت الهدايا ، تبرأً وأحجاراً كريمة وعاجاً وحبوباً وأبنوس وكل أنواع العطور ، وخيلاً وجمالاً^(٢) .

ويرى بعض الباحثين أن ملوك ساحل البحر والبادية هؤلاء ، كانوا يحكمون أرضاً واسعة تمتد من البحر الأحمر حتى البادية ، بينما يرى آخرون أنهم كانوا يحكمون المنطقة التي تقع إلى الشرق من مكة وحتى حدود سبأ الشمالية^(٣) ، بل إن «هومل» ليذهب إلى أن نفوذ العاهل الآشوري قد وصل إلى سبأ نفسها ، ومن ثم فقد أسرع مليكها بحمل الجزية إلى سرجون ، حتى لا تقع أملاكه آخر الأمر تحت سلطان الآشوريين^(٤) ، وأياً ما كان الأمر ، فإن سرجون إنما يشير كذلك إلى هدايا تلقاها من ملك دلمون^(٥) (جزيرة البحرين) .

وهناك نقش عثرت عليه بعثة ألمانية يفيد تقديم هدايا من أحجار كريمة وعطور للعاهل الآشوري « سنحريب » (٧٠٥-٦٨١ ق.م) من قبل « كرب ايلو » السبئي^(٦) ، والذي يرى العلماء فيه المكرب « كرب إيل بين » ، وإن كان الآشوريون قد أطلقوا عليه لقب « ملك » ، وهنا فليس هناك من تعليل سوى أنهم كانوا يجهلون ألقاب الحكام في سبأ في تلك الفترة^(٧) ، ويبدو أن سنحريب قد حقق كذلك نجاحاً على الأعراب ، كان سبباً في أن يفرض نفوذه عليهم بدرجة كبيرة ، ومن ثم فقد رأينا « هيرودوت » يطلق عليه لقب « ملك العرب والآشوريين »^(٨) .

A.L. Oppenheim, ANET, P. 286.

(١)

(٢) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٧٥ .

E. Glaser, op. cit., P. 260f.

(٣)

F. Hommel, Grundriss, P. 58.

(٤)

J.H.D. Belgrave, op. cit., P. 87 وكذا G. Roux, op. cit., P. 261.

(٥)

BASOR, 137, 1955, P. 10.

(٦)

(٧) جواد علي ١٨٠/٢ وكذا

EB, 19, P. 785 وكذا D. Nielsen, Handbuch, I, P. 76.

Herodotus, II, 141.

(٨)

ومع ذلك فعليتنا ألا نبالغ كثيراً في هذه الأمور ، فمن المستبعد أن يكون الآشوريون قد وصلوا إلى جنوب شبه الجزيرة وفرضوا الجزية على سبأ ، وربما كان الأرجح أن بعض الجاليات السبئية كانت مستقرة على طول الطريق التجاري بين شمال شبه الجزيرة العربية وسورية ، وهذه هي التي تعرضت لغارات الآشوريين^(١) ، وحتى الجزية التي يزعم الآشوريون أنهم أخذوها من الملكات العربيات ، أو الأمراء العرب إنما كانت هدايا أكثر منها جزية ، وأن السبئيين إنما كانوا ينظرون إلى أنفسهم كأنداد لملوك آشور ، أو حلفاء لهم ، وربما كان هناك تحالف بين الفريقين ضد البدو الجامحين من أبناء الشمال^(٢) .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن سرجون الثاني قد ذكر في معرض حديثه عن « دلمون » أنه « أخضع إلى سلطانه « بيت ياكين » في ساحل البحر المر إلى تخوم دلمون » ، والراجح أن إقليم « بيت ياكين » امتد حتى شمل دولة الكويت أو جزءاً منها^(٣) ، كما أن العاهل الآشوري كان قد غزا ، فضلاً عن ذلك ، مجان وملوخا ، وربما للسبب التقليدي وهو الحصول على أحجار من مجان^(٤) ، كما كان ملوك

(١) محمد أبو المحاسن عصفور : معالم حضارة الشرق الأدنى القديم ص ١٥٢ .

(٢) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٧٦ ، ٨٧ وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 38.

(٣) عبد الحميد زايد : المرجع السابق ص ١١٧ .

(٤) يظن الأثري الألماني « هومل » أن كلمة مجان التي جاءت في نقش « ترام سن » إنما هو تحريف لاسم إقليم معين في اليمن (H. Fleisch, Introduction a l'Etude des Langues Sémitiques, P. 90) ويرى الدكتور حسن ظاظا أن مجان هي في الأصل معان ، في أقصى الشمال من الحجاز ، شرقي خليج العقبة (الساميون ولغاتهم ص ١٢٧) ، ويتجه « هوجو فنكلر » إلى أنها في الأقسام الشرقية من شبه جزيرة العرب (E. Schrader, Die Keilschriften und Alte Testament, P. 15 f.) ، بينما يذهب وأى رابع إلى أنها جرها (جرعا) على ساحل الأحساء (O'leary, op. cit., P. 47.) على أن هناك رأياً خامساً يضعها على مقربة من ساحل الخليج العربي في موضع « مجيمنة » جنوب يبرين (Majro) (Cheesman, In Unknown Arabia, P. 266.) ويذهب « فلبسى » إلى أنها على مقربة من الساحل عند مصب وادي شبة (J.B. Philby, The Empty Quarter, 1933, P. 119f.) ، وراجع كذلك آراء أخرى (عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ص ١٣٣ ، جواد علي ١/٥٥٥-٥٦٣ ، كتابنا « حركات التحرير في مصر القديمة ص ٥٠-٥١) .

العراق يستوردون من دلمون^(١) — كما تدلنا على ذلك لوحة من الطين كشف عنها « سير ليونارد وولي » في أور عام ١٩٢٦م — الخشب والحجارة وعيون السمك (اللؤلؤ ؟) والنحاس والعاج^(٢) .

ونقرأ في نص آشوري أن سنحريب قد أرسل حملة إلى منطقة الخليج العربي ، نجحت في القضاء على ملك أرض البحر ، وإجباره على الفرار إلى عيلام^(٣) ، ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الرأي الذي كان سائداً من قبل يذهب إلى أن أرض البحر (الأرض البحرية) ، إنما هي الأغوار الواقعة إلى الشمال من الخليج العربي ، غير أن هناك نظرية جديدة تجعلها جزءاً من شبه الجزيرة العربية نفسها ، متضمنة شواطئ الخليج العربي ، حتى جزيرة البحرين ، وربما كانت تشمل كذلك النفود حتى خليج العقبة على البحر الأحمر^(٤) .

ونقرأ كذلك في نقوش « إسرحدون » (٦٨٠-٦٦٩ ق.م) أن أباه « سنحريب » قد أخضع « أدوماتو » (أدومو = دومة الجندل) وأخذ أصنامها إلى عاصمته ، والأمر كذلك بالنسبة إلى الأميرة « تبؤة Tabue » (تاربو) ، ويرى « الويس موسل » أن سلطان الملكة « تلخونو Telhunu » قد امتد من دومة الجندل ، وحتى حدود بابل ، وأن الملكة العربية قد وقفت إلى جانب الثوار البابليين ضد سنحريب ، وعندما كتب للعاهل الآشوري نجاحاً في القضاء على مقاومة البابليين ، اتجه إلى دومة الجندل ،

(١) دلمون : وموقعها ما يزال موضع خلاف بين العلماء ، وعلى أي حال فهناك من يرى أنها إنما تقع في القسم الشرقي من جزيرة العرب بين مجان وبيت نيسانو ، إلا أن غالبية العلماء يكادون يتفقون على أنها جزيرة البحرين الحالية أو جزيرة البحرين والساحل المقابل لها (راجع : جون الدر : الأحجار تتكلم ص ٣٠ ، وكذا Hammel, Grundriss, I, P. 250. وكذا Kramer, BASOR, 96, P. 18-28. وكذا J. Finegan, Light from the Ancient Past, 1969, P. 32). و P.B. Cornwell, BASOR, 103, P. 3-11

(٢) عبد الحميد زايد : المرجع السابق ص ١٢٤ .

(٣) فضلو حوراني : المرجع السابق ص ٣٨ .

P. K. Hitti, op. cit., P. 38.

(٤)

وفرض الحصار عليها^(١) ، وهناك ما يشير إلى أن خلافاً وقع بين « تلخونو » (تلخونو) وبين حزائيل (حزائيلي) - سيد قبيلة قيدار - الذي تولى قيادة الجيوش ضد سنحريب ، مما أدى إلى استسلام الملكة ، وفرار حزائيل إلى البادية ، فضلاً عن أسر الأميرة « تبوة » وأخذها إلى العاصمة الآشورية ، تمهيداً لإعدادها لتكون ملكة على قومها ، تعمل بأمر آشور ، وتنفذ سياسة ملوكها فيما يختص بالأعراب^(٢) .

ويموت سنحريب ، ويخلفه على عرش آشور ولده « إسرحدون » ، ويأتي حزائيل إلى « نينوى » ، ويقدم فروض الولاء للعاهل الجديد ، الذي يرد إليه أصنام قومه التي كان العاهل الراحل قد أخذها أسيرة إلى نينوى ، وإن كان إسرحدون قد حرص على أن يسجل عليها تفوق إله آشور ، وأن ينقش عليها اسمه الشخصي ، فضلاً عن تعيين الأميرة تبوة ملكة على دومة الجندل ، الأمر الذي لم يقدر له ما تمناه له الآشوريون من نجاح ، بسبب العداء العميق بين الآشوريين والعرب ، والذي ما كان في استطاعة تبوة - وربما عدم رغبتها - في القضاء عليه^(٣) .

وربما كان هذا من العوامل التي دفعت بإسرحدون إلى أن يعيد حزائيل إلى زعامة قيدار ، في مقابل جزية قدرها خمسة وستون جملًا ، وعشرة مهور أكثر من ذي قبل ، وأن يعهد بالأمر نفسه إلى ولده « ياتاع » بعد وفاة الأب في عام ٦٧٥ ق.م ، وإن زاد الجزية إلى ألف « مين » من الذهب ، فضلاً عن ألف حجر كريم ، وخمسين جملًا ، ومائة زكينة كونزو ، مع عطور أكثر مما كان يدفع أبوه .

ولنقرأ هذا النص « من أدوماتو قلعة العرب التي فتحها أبي سنحريب ملك آشور ، وأخذ كخنيمة كل ممتلكاتها وتمائيلها ... وجاء بها إلى آشور ... جاء حزائيل ملك العرب بهدايا كثيرة إلى نينوى مدينة حكمي وقبل قدمي والتمس أن أعيد التماثيل ، وأخذتني به شفقة فأصلحت ما حل بصور المعبودات وآلهة العرب وأعدتها

(١) D.D. Luckenbill, ARAB, 2, P. 518 وكذا A. Musil, Arabia Deserta, P. 480.

(٢) جواد علي ١/٥٩٢ ، وكذا British Museum Tablets, K, 3087, 3405.

(٣) ANET, P. 291, وكذا D. Wiseman, The Vassal-Treaties of Esarhaddon, P. 4.

معه بعد أن سجلت عليها قوة آشور ربي ، كما سجلت عليها اسمي ، وجعلت « تاربو » التي تربت في قصر أبي ملكة عليهم ، وأعدتها إلى بلادها مع آلهتها ، وفرضت عليه جزية إضافية ٦٥ جملاً ، ١٠ مهور ، أكثر من ذي قبل ، ولما مات حزائيل وضعت ابنه « ياتاع » مكانه ، وفرضت عليه جزية إضافية ، ١٠ مينا من الذهب ، ١٠٠٠ قطعة من أحجار « بيروتي » ، ٥٠ جملاً ، ومائة زكينة « كونزو » ، مع عطور أكثر مما كان يدفع أبوه ، وبعد ذلك حرص « وهب » العرب على الثورة ضد « ياتاع » لأنه كان طامعاً في الملك ، ولكني أنا لإسرحدون ، ملك آشور ، محب العدالة ، الذي يعد الانحراف دنساً ، أرسلت جيشي لمساعدة « ياتاع » ، واستطاع الجيش أن يخضع كل العرب ، وأمسكوا بـ « وهب » ومحاربيه في القيود ، وجاءوا بهم إلي ، فوضعت أطواقاً في رقابهم ، وعلقتهم على قوائم بوابتي ^(١) .

على أن القيداريين سرعان ما عادوا إلى الثورة من جديد — وبقيادة ياتاع نفسه هذه المرة — غير أن ثورتهم هذه لم يكتب لها ماتمناه الثوار من نجاح فلقد استطاع الآشوريون القضاء عليها ، واضطر « ياتاع » إلى مغادرة مخيمه لينجو بنفسه ، ففر وحيداً وسار إلى الأصفقاع البعيدة .

وهكذا كان البدو شوكة في جنب الدولة الآشورية ، تدفعهم مصر وبابل إلى الثورة ، فإن فشلوا كان في رحاب البادية خير مأوى يتوارون فيه عن الأنظار ، فتعجز جحافل الآشوريين عن مطاردتهم ، وكانت البادية دائماً موطن البلايا والمحن التي يبتلى بها الغازي ^(٢) ، وهكذا ما كان الواحد منهم تظاً قدماه شمالي بلاد العرب ، حتى تروعه البلايا ، ومن ثم يصور له دعره الشديد « أفاع ذات رأسين ، وزحافات مرعبة تدف بأجنحتها » ^(٣) ، ونقرأ في أشعياء عن بهائم الجنوب

(١) J. Hastings, op. cit., P. 22 وكذا A. Grohmann, op. cit., P. 482 وكذا A. Musil, op. cit., P. 832 وANET, P. 298-9.

وكذا نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٨٩-٢٩٠ .

(٢) جواد علي ١/٥٩٢-٥٩٤ وكذا D. D. Luckenbill, op. cit., P. 916, 946

A. Musil, op. cit., P. 482 وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 38-9

ARAB, II, 558.

(٣)

« الأفعى والثعبان السام الطيار »^(١) ، ويؤكد هيرودوت أن الأفاعي منتشرة في كل بلاد العالم ، غير أن الحيات لا ترى إلا في بلاد العرب^(٢) .

ونقرأ في نصوص إسرحدون عن حملة أخرى ضد قبائل عربية تنزل أرض « بازو Bazu » و « حازو Hazu »^(٣) ، وهما موقعان يقوم على تحديد مكانهما جدل طويل ، فالتوراة تتحدث عنهما ، (وهما هنا بوزا وحزوا) على أنهما من أولاد تاحور^(٤) أخى إبراهيم عليه السلام ، ومن ثم فربما كان للأول صلة بأرض « يوز »^(٥) ، وأن ذكر يوز ، بعد ددان وتيماء ، في سفر إرمياء^(٦) ، قد يفيد أنها إنما كانت من مجاوراتهما ، بينما رأى البعض أنها « بازو » التي جاءت في نص سنحريب ، ومن ثم فهي في العربية الشمالية ، على أن آخرين إنما ذهبوا إلى أنها تقع في جنوب شرق الجوف^(٧) .

وأما « الويس موسل » فإنه يرى — طبقاً لما جاء في النص الآشوري عن بازو — أنها إنما تقع في غرب وجنوب تدمر ، وفي وادي السرحان عند الحدود الشرقية لحوران ، وأن « حازو » إنما تقع في شرق وادي السرحان ، فضلاً عن المنطقة الجبلية إلى الشمال منه ، وأن الجيش الآشوري إنما سلك في طريقه إلى هذه المناطق الطرق التجارية المارة من الحافات الشرقية لحوران إلى دمشق^(٨) ، وهذا ويذهب فريق رابع إلى أنها في داخل بلاد العرب ، بينما يذهب فريق خامس إلى أنها « نجد » ، وأن البادية التي تحدث عنها إسرحدون ، إنما هي النفود ، وأما « حازو » فهي الأحساء^(٩) ، وذهب « رولنسون » إلى أنها ربما كانت إمارة الخيرة ،

(١) أشعياء ٦: ٣٠

(٢)

Herodotus, III, 109.

A. Musil, op. cit., P. 482.

(٣)

(٤) تكوين ٢٢: ٢٢-٢٢ .

(٥) قاموس الكتاب المقدس ١/ ٢٥٥ ، ٢٧٣ .

(٦) إرمياء ٢٥: ٢٠-٢٤ .

EB, P. 615 وكذا A. Musil, op. cit., P. 483-4

(٧) جواد علي ١/ ٥٩٧ وكذا

(٨) S. Smith, Babylonian Historical Texts, P. 18. وكذا A. Musil, op. cit., P. 484

(٩) Ptolemy, V, 19, 2, وكذا J.H.D. Belgrave, Central Arabia, I, London, 1866, P. 96.

وما يتصل بها حتى جبل شمر ^(١) ، وأخيراً فهناك من رأى أنها في اليمامة ^(٢) .

وأياً ما كان الأمر ، فإن « ياتاع » الذي فر إلى البادية على أيام إسرحدون ، سرعان ما يعود إلى الظهور على أيام « آشوربانيبال » (٦٦٨-٦٢٦ ق.م) ، مظهراً الولاء للعاهل الجديد ، إلا أنه سرعان ما أعلن الثورة من جديد ، منضمّاً لأخ الملك آشور نفسه ، يدعى « شمش شوم أوكين » ، ويحدثنا الملك الآشوري أن الناصر الجديد ، ملك عريبو (بلاد العرب) ، « قد نقض الاتفاق الذي تحميه الأقسام لي ، ولم يذكر أنني عاملته برحمة ، بل نزع نير حكمي الذي كان قد أحله فوقه آشور ، وتخلص من الحبال التي كان يجرها ... وامتنع عن تقديم الهدايا والجزية الكبيرة ، واستمع - كما فعلت عيلام - إلى دعاية الثورة التي شنتها أكد ، ولم يكثرث بالآيمان التي كان قد أقسمها لي ، أنا آشوربانيبال الكاهن الأكبر المقدس الخادم والدائم الصلاة والابتهاال للآلهة ، ذلك الذي صاغته يد آشور نفسه ، واستسلم بقواته المسلحة لـ « أبياتي » و « عامود بن تيرى » ، وحرصهما على مد يد المساندة لأخي الشرير « شمش شوم أوكين » ، وحرص بلاد العرب لينضموا له ، ثم أخذ ينهب الشعوب التي منحني إياها آشور وعشتار لأكون راعياً لها » ^(٣) .

وعلى أي حال ، فلقد نجح « آشوربانيبال » في عام ٦٤٨ ق.م في القضاء على الثورة ، واضطر « ياتاع » إلى الاختفاء فترة من الوقت عند أحد الأمراء ، الذي اضطر آخر الأمر إلى تسليمه - وكذا زوجه أديا (عدية) - إلى آشوربانيبال ، حيث وضع في قفص ليعرض على الناس عند أحد أبواب نينوى ، ويقول الملك الآشوري ، لقد « حبسته في مربوط الكلاب ، وضعته مع بنات آوى والكلاب ، وأقمته على حراسة الباب في نينوى » ، وأما « إبياتي » الذي أمسك بقدمي لأنقذ حياته ، فقد أخذتني

G. Rawlinson, The Five Great Monarchies, II, P. 470.

(١)

(٢) جواد علي ٥٩٥/١-٥٩٩ .

(٣) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٣٠٣ .

به الرأفة ، فجعلته يقسم بكبار الآلهة ، ثم عينته بدلاً من ابن حزائيل ، كملك على بلاد العرب » (١) .

وأما عن الأعراب ، فإن آشوربانيبال يقول عنهم « اشتدت عليهم وطأة الجوع والعطش ، ولكي يسدوا رمقهم ، أكلوا لحوم صغارهم ، وشقوا الجمال وشربوا دماءها ، كما شربوا الماء الملوث ليطفئوا ظمأهم ، ولم يفلت واحد ممن صعدوا إلى الجبل أو اختبأوا في البلاد من يدي ، بل أمسكت بهم بنفسي في مخابثهم ، العدد من الذكور والأنثى ، وكذا الحمير والجمال والماشية ، وأخذتها جميعاً غنيمة إلى آشور وملاؤا الأرض التي منحني إياها آشور إلى أقصى اتساعها ، ورتبت قطعاناً ووزعت الجمال — وكأنما هي ماشية — على أهل آشور ، بل إن الحمل كان يشتري في بلادي بأقل من شاقل من الفضة في السوق ، كما أن العمال كانوا يأخذون الجمال والعبيد كهدايا ، وصناع البجعة كمنحة والبستاني كأجر إضافي ، وقد سأل أهل العربية بعضهم بعضاً : ما بال العرب قد أحرق بها هذا الشر ؟ فكان الجواب تلك عاقبة من ينكث العهد ويخرق المواثيق التي قطعناها لآشور ، ويعاند « آشوربانيبال » الملك الذي يحبه أنليل » (٢) .

ولعل مما تجدر ملاحظته أن العاهل الآشوري قد زين قصره بنقوش تمثل المعارك التي دارت بينه وبين العرب ، والتي يبدو منها أن عرب الشمال كانوا رجالاً متوسطي القامة ، يرتدون ملابس صوفية ، بينما تركوا رؤوسهم عارية ، وشعورهم تتدلى على أكتافهم ، كما كانوا ملتحين بأحى مدببة قصيرة ، وتصورهم المناظر وهم يركبون الجمال ، وعلى الواحد منها اثنان ، أحدهما لقيادة البعير ، والآخر لضرب القوس (٣) .

(١) D. D. Luckenbill, op. cit., P. 819 وكذا A. Musil, op. cit., P. 48-65.

(٢) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٣٠٦ ، وكذا ARAB, II, P. 855

(٣) B. Meissner, Zwei Reliefs Assarbanipals Mit Barstellungen Von Arabern, (٣) Islamica, 2, 1926, P. 392.

وتمضي الأيام ، ورغم أن ظواهر الأمور تدلنا على أن امبراطورية « آشوربانيبال » وطيبة الأركان في سائر أنحائها ، إلا أن الضعف سرعان ما يدب فيها ، ويحدثنا الملك نفسه أن أياماً سوداً قد حلت في أرجاء مملكته ، وأنه كان يقاسي آلاماً جسمية وروحية سلبت روحه ، ثم حدثت بعد وفاته في عام ٦٢٦ ق.م ، مشاكل واضطرابات أدت في نهاية الأمر إلى سقوط العاصمة الآشورية نفسها في أيدي البابليين والميديين عام ٦١٢ ق.م. وفي الواقع لقد كان لسقوط المدينة دوي في أنحاء العالم ، إذ اعتبره الشرق الأدنى القديم رمزاً لسقوط الظلم والشر ، وفجراً جديداً للشعوب التي غلبت على أمرها ، وطالما رزحت تحت نير آشور ، التي لم ترع أضال المبادئ الإنسانية في معاملة الشعوب المغلوبة على أمرها ، والتي قدر أن تحكمها بالسيف والنار . وعلى أي حال ، فلقد اقتسم الفريقان المنتصران مملكة آشور ، فاستولى الميديون على قسمها الشرقي ، وأخذ البابليون جنوبها ، واضطرت الحكومة الآشورية أن تجعل من « حران » عاصمة لها ، ولكن « نبوخذنصر » (٦٠٥-٥٦٢ ق.م) بن « نبوبولاسر » (٦٢٦-٦٠٥ ق.م) ملك بابل ، استطاع أن يستولي عليها ، وأن يقضي على الجيش الآشوري في عام ٦٠٩ ق.م^(١) .

وتروي المصادر العربية الكثير عن حروب زعمت أنها دارت بين نبوخذنصر وبين العرب — سبق لنا مناقشتها في كتابنا عن بلاد العرب — فضلاً عن تلك التي قام بها العاهل الكلداني ضد « عدنان » — جد العرب العدنانية — والتي دارت موقعتها الفاصلة عند « ذات عرق » يحقق فيها « نبوخذنصر » نصراً كاملاً على العرب ، ويعود بجم غفير من السبايا والأسرى ، يسكنهم الأنبار^(٢) .

ونحن لانرفض فكرة قيام حروب بين نبوخذنصر والعرب ، فذلك أمر مقبول بالنسبة إلى ملك يسعى إلى توسيع إمبراطوريته ، ثم إن حروبه في سورية وفلسطين ،

(١) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٣٠٩-٣١٠ ، راجع كتابنا إسرائيل ص ٥٢٥ ، وكذا M. Noth, op. cit., P. 372-4.

(٢) الطبري ١/٥٥٨-٥٦٠ ، ابن الأثير ١/٢٧٠-٢٧٢ .

لا بد وأن تكون قد شملت الأعراب المقيمين هناك ، فضلاً عن شمال الجزيرة العربية ، كما أن العاصمة البابلية مجاورة للعربية الشرقية ، وكل هذا يدعو إلى الاحتكاك بين الطرفين ، وإلى تحرش العرب بجيوش نبوخذنصر ، فضلاً عن أطماع العاهل البابلي في شبه الجزيرة العربية^(١) .

غير أننا نرفض الأسباب التي دارت من أجلها تلك الحروب الطاحنة بين العرب والبابليين — كما تصورها المصادر العربية — فليس صحيحاً أن العاهل البابلي إنما قام بحروبه المزعومة هذه بأمر من « برخيا » اليهودي ، الذي تروي المصادر العربية أنه قد أوحى إليه أن يذهب من نجران إلى بابل ، وأن يأمر نبوخذنصر « بغزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم فيقتل مقاتلتهم ، ويسبي ذراريهم ، ويستبيح أموالهم ، عقوبة لهم على كفرهم وعلى قتلهم الأنبياء بغير حق »^(٢) ، وأن نبوخذنصر قد نادى — إبان المعركة الضروس ضد العرب بقيادة عدنان — « يا لثارات الأنبياء » ثم سرعان « ما أخذت السيوف العرب من كل جانب » ، وكتب للملك البابلي نصر بعيد المدى على أعدائه العدنانيين حتى إن بلاد العرب قد ظلت — طوال عهده — خراباً^(٣) .

ونحن في حل من إعادة مناقشتنا لهذه الآراء ، فذلك أمر سبق لنا القيام به في كتابنا عن بلاد العرب ، وعلى أي حال ، فالرواية — كما أشرنا إليها نقلاً عن المؤرخين الإسلاميين — جد هشة ، وسهام الريب توجه إليها من كل جانب ، وليس بالوسع القول أنها ترقى فوق مظان الشبهات ، ثم إن قصة الغزو هذه ، ليست إلا ترديداً لنبوءات إرميا — كما جاءت في التوراة — وحتى هذه — للأسف — فقد اختلطت فيها فتوحات « نبونيد » في بلاد العرب ، بفتوحات نبوخذنصر^(٤) ، وإن كان هذا لا يمنعنا من القول ، بأن نبوخذنصر قد أرسل حملة — في العام السادس من حكمه — إلى سكان البادية من العرب ، دونما تحديد لبادية بعينها ، أو قبيلة بذاتها ، وأن الحملة

(١) D.J. Wiseman, *Chronicles of Chaldaean Kings*, P. 32, 48, 70.

(٢) الطبري ٥٥٨/١ ، ابن الأثير ٢٧١/١ .

(٣) ابن الأثير ٢٧٢/١ ، الطبري ٥٥٩/١ — ٥٦٠ .

(٤) إرمياء ٤٤ — ٥١ ، جواد علي ٦٠٩/١ ، وكذا S. Smith, *op. cit.*, P. 35.

قد نجحت في نهب مواشي الذين قدر لهم أن توجه ضدهم ، وأخذ أصنامهم^(١) .
ومن عجب أن التوراة تروي أن الرب قد غضب على يهود ، ومن ثم فقد أرسل عليهم « نبوخذنصر » ، جزاءً وفاقاً « عن تماديهم في عصيان الرب ، الذي ثار غضبه على شعبه ، فأصعد عليهم الكلدانيين »^(٢) ، وأن النبي اليهودي إرمياء هو الذي كان يعلن على الملأ من قومه — فضلاً عن العامة من الناس — أن نبوخذنصر هو خادم يهوه (رب يهود) ، وأن القبضة حديدية ولن تتمزق ، « لأنه هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل قد جعلت نيراً من حديد على عنق كل هؤلاء الشعوب ، ليخدموا نبوخذنصر ملك بابل » ، رغم إعلان « حننيا » — وهو نبي آخر من يهود — أن قبضة البابليين الخشبية يجب أن تكسر ، ومن ثم فقد دعا قومه لمقاومة الغازي البابلي ، ومن هنا فليس من العجيب أن أرمياء نبي الويل هذا ، قد ألقى به في غياهب السجون ، لمجاهرته بالخذلان^(٣) .

وكانت نتيجة تلك الأحداث جميعاً — كما هو واضح من التوراة نفسها^(٤) — أن بلاد اليهودية قد أخليت من سكانها ، فقد سبي الصفوة منهم إلى بابل ، وفرت البقية الباقية إلى مصر — ومنهم إرمياء نفسه — وتبعثرت قبائل اسرائيل في شرق الأرض وغربها ، بعد أن نهب الغزاة اورشليم ، وأشعلوا فيها النيران وأحرقوا القصر الملكي والمعبد^(٥) .

هذا ما تسجله توراة اليهود ، ثم يأتي مؤرخونا الكبار ، فيحولون هذه الأحداث جميعاً من اليهودية إلى بلاد العرب ، ويتبارون في وصف الكارثة المزعومة التي حلت بالعدنانيين ، وكيف أصبحت بلادهم خراباً ، بعد أن أخذ « نبوخذنصر » بثأر الأنبياء (ولست أدري من هم هؤلاء الأنبياء ؟) بوحي من برخيا النبي اليهودي ،

(١) D. J. Wiseman, op. cit., P. 31, 48, 71.

(٢) ملوك ثان ٢٥: ٢٥-٢٦ ، إرمياء ٤٤: ١١ ، ٣١ .

(٣) S.A. Cook, op. cit., P. 401.

(٤) ملوك ثان ٢١: ٩ ، ٢٤: ١٦-١٧ ، ٢٥: ١١-٢٦ ، ٣٨: ٤ ، إرمياء ٢٤: ١ ، ٢٧: ٢٠ ، ٢٩: ١-٢ ، ٤٣: ٧-٨ .

(٥) M. Noth, The History of Israel, London, 1965, P. 286-7.

وأما من أين أتوا بكل هذا ؟ ، وكيف حولوا خراب اليهودية إلى خراب في بلاد العرب ؟ فعلم ذلك عند ربي .

بقيت كلمة أخيرة تتصل بـ « برخيا بن أحنيا » النبي اليهودي — كما يراه المؤرخون المسلمون — هو في الواقع « باروخ بن نيريا » ، وأنه كان مقيماً في أورشليم — وليس في نجران — وبخاصة في الفترة التي كانت قوات نبوخذنصر تدق أبوابها بعنف ، وأنه لم يكن نبياً ، وإنما كان صديقاً وكاتباً للنبي اليهودي « إرمياء » ، ومن ثم فإن علماء التوراة يتفقون على أنه هو الذي كتب سفر إرمياء^(١) .

وعلى أي حال ، فإننا نقرأ في النصوص البابلية أن « نبونيد » (٥٥٥-٥٣٩ ق.م) — ذلك الملك المثقف ، والذي اشتهر في التاريخ القديم بحبه للآثار وعنايته بها — قد قضى عشر سنوات في المنفى في « تيماء » — وتقع على مبعده ٦٥ ميلاً إلى الشمال من العلا^(٢) — وهناك ما يشير إلى أن الرجل قد جرد حملة على « أدومو » (دومة الجندل) ، ثم سار من هناك إلى تيماء ، حيث استولى عليها ، وقتل أميرها (ملكو) ، ثم أقام بها قصرأ أقام فيه حيناً من الدهر ، حتى أصبحت تيماء ، وكأنها قد غدت خليفة لبابل^(٣) ، ويحدثنا أحد نصوص الملك البابلي عن ذلك قائلاً : « واتجه الملك إلى تيماء في وسط بلاد العرب ، وباشر مسير الحملة على طريق لم يعهد من قبل ، وذبح أمير تيماء بسيفه ، كما ذبح أولئك المقيمين في مدينته وفي الإقليم ، ثم استقر في تيماء ... وجعل هذه المدينة رائعة وفخمة ، وحولها إلى ما يشبه قصور بابل^(٤) » .

وهكذا أقام « نبونيد » في تيماء ، ولم يعد منها إلا في عام ٥٤٦ ق.م ، عندما دعاه رعاياه الذين كانوا على خلاف معه طوال تلك الفترة ، وربما كانت عودته

(١) إرمياء ٤٥ : ١ ، راجع كتابنا إسرائيل ص ٣٩ .

(٢) A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, P. 363.

(٣) A. Musil, Northern, وكذا R.P. Dougherty, Nabonidus and Belshazzar, P. 106-7.

(٤) P. Hitti, op. cit., P. 53, 88 وكذا S. Smith, op. cit., P. 225 وكذا Nejd.

(٤) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٣٣١ .

بسبب التهديدات الفارسية لبابل^(١) ، وان كانت هناك رسالة مؤرخة بالعام السابع من حكمه ، نستطيع الخروج منها بأنه لم يتخل نهائياً عن إدارة الأمور في العاصمة بابل ، وأنه كان يوالي إرسال توجيهاته لولده الذي كان شريكاً له في الحكم ونائباً له هناك ، مما يدل على أنه لم يتنازل له عن سلطاته كلها تماماً ، بل إن الوثائق جميعاً تشير إليه بوصفه الملك^(٢) .

وأياً ما كان الأمر ، فلقد عثر في « حران » عام ١٩٥٦م على كتابة يتحدث فيها « نبونيد » من أنه قد أخضع تيماء وديدان (ددانو) وفلك (الحائط) وخير (خير) ويثرب (أتريبو : المدينة المنورة) - وقد كانت مدينة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - أو أتريبو ، هي آخر موضع استطاع البابليون الوصول إليه في بلاد العرب - وربما كان السبب في هذه الحملة ، إنما كان مهاجمة العرب لمناطق خاضعة للبابليين ، وربما كان رغبة البابليين في السيطرة على الطريق التجاري البري بين الشام وجنوب بلاد العرب ، وأياً ما كان السبب ، فإن النص إنما يشير إلى أن نبونيد قد عقد صلحاً مع مصر وميديا ، كما كبّد العرب في تلك المناطق التي كتب عليها أن تخضع له خسائر فادحة^(٣) .

وهناك على مقربة من تيماء بقايا معبد ، عثر فيه على نقش - محفوظ الآن بمتحف اللوفر - ويرجع تاريخه إلى القرن الخامس ق. م ، نقرأ فيه بلغة آرامية ، أن كاهناً قد أتى إلى تيماء بصنم جديد (صنم هجم) ، وبنى له معبدًا ، وعين له كهانًا ، كما صورته في زي بابلي ، ولعل هذا هو السبب في أن البعض قد ذهب إلى أن قدوم هذا الإله ، إنما كان على أيام نبونيد^(٤) ، وأخيراً فإلى عهد هذا الملك ترجع

(١) A. Gardiner, op. cit., P. 107 وكذا R. P. Dougherty, op. cit., P. 194 وCAH, 4, P. 363.

(٢) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٣٣١ .

(٣) جواد علي ٦١٤/١ ، A.R. Burn op. cit., P. 3,8 وكذا C.J. Gadd, op. cit., P. 35

(٤) جواد علي ٦١٢/١-٦١٣ ، وكذا

J.A. Montgomery, op. cit., P. 67 وS. Smith, op. cit., P. 79-80،

وكذا G.A. Cooke, A Text-Book of North-Semitic Inscriptions, P. 195-6.

كتابتان ثموديتان ، جاء في الواحدة جملة « رمح ملك بابل » وجاء في الثانية « حرب ديدان » ، فإذا كان ذلك كذلك ، فإن حروب نبونيد في العربية الشمالية ، إنما أصبحت تقويماً يؤرخ الثموديون به^(١) .

ولعل من الغريب أن حوليات « نبونيد » قد أغفلت ذكر « تامود » (ثمود) ، رغم أن نصوصاً ثمودية قد أشارت إلى حروب هذا الرجل ، كما أشرنا آنفاً — ورغم أن نبونيد قد كتب له أن يسيطر على شمال شبه الجزيرة العربية ، وجزء من وسطها ، تحدده نصوصه بالمدينة المنورة (أتريبو) ، ورغم أن الثموديين كانوا يقطنون في تلك البقاع التي كتب عليها أن تخضع لسلطانه ، بل ربما شاركوا في واحدة أو أخرى من المعارك التي دارت ضده ، وربما كان السبب في ذلك أن الرجل تعتمد أن يخفي هزيمة أصابته من الثموديين بتجاهلهم في نصوصه ، أو أن سلطانه كان مقصوراً على المراكز التجارية التي جاءت في حولياته كتيماء وديدان وخيبر ويثرب^(٢) .

وأياً ما كان الأمر ، فإن الآشوريين — والبابليين من بعدهم — قد شنوا في الفترة ما بين القرنين التاسع والسادس ق.م — أي طوال قرون ثلاثة — حروباً متتالية على العربية الشمالية ، والتي لم يقدر لها أن تقف أمام قوات الإمبراطوريتين الكبيرتين — بخاصة في تلك الفترة التي غاب فيها النفوذ المصري عن غربي آسيا — رغم أن هناك دويلات عربية ظهرت في تلك الفترة في العربية الشمالية ، كان على رأسها ملوك وملكات ، وتملك من العدد والعدة ما يجعلها تستطيع أن ترد الجيوش المغيرة ، وبدهي أن هذا لا يعني — بحال من الأحوال — أن بلاد العرب الشمالية كانت جزءاً من إمبراطورية آشور أو بابل ، أو أنها أصبحت تدين بالولاء لواحدة منهما أو لأخرى ، ومع ذلك فإن هذه الحروب التي استمرت قرابة قرون ثلاثة ، قد أضعفت بلاد العربية الشمالية إلى حد كبير ، حتى إن الملك الفارسي قمبيز اكتسح أراضيهم بدون

(١) جواد علي ٦١٦/١ . وكذا

A. Van den Branden, Les Textes Thamoudeens de Philby, II, P. 54.

A. Van den Branden, Les Textes Thamoudeens de Philby, II, Louvain, 1956, (٢)

P.54-5 وكذا C.J.Gadd, The Haman Inscriptions Nabonidus, AS.8.1958, P. 80,86.

أية مقاومة ، وهو في طريقه إلى مصر عام ٥٢٥ ق.م^(١) ، إلا أن الأخمينيين لم يواصلوا سياسة أسلافهم البابليين نحو العربية الشمالية ، ويروي هيرودوت - عند الحديث عن دارا الأول الفارسي - أن جميع أقوام آسيا قد اعترفت بسلطانه ، ما عدا العرب الذين لم يخضعوا للفرس ، وإنما كانوا أحلافاً لهم ، وقد مهدوا الطريق لقمييز للوصول إلى مصر ، ولولاهم ما كان في استطاعته أن يصل إليها^(٢) .

وأما عن علاقات بلاد العرب غير الحربية ببابل ، فهناك ما يشير إلى علاقة تجارية بين الطرفين ، فضلاً عن أثر بابل في الحياة العربية^(٣) ، وثمة أدلة واضحة على أن «نبوبولاسر» ، مؤسس الدولة البابلية الحديثة ، كان على صلة بأرض البحر^(٤) ، وفي عام ١٨٧٩ م ، اكتشفت كتابة مسمارية في البحرين ، ترجع إلى النصف الثاني من الألف الثاني ق.م ، وفيها ذكر للإله «أنزاك» الذي كان يعبد في دلمون ، وهو الإله البابلي «نبو» حيث ذكر في ثبت الآلهة البابلية المحفوظ في المتحف البريطاني ومن الجائز أنه هو الإله «أنشاك» الذي جاء بهذه الصيغة في بعض الأساطير ، السومرية^(٥) ، كما أن البابليين كانوا - منذ عام ٦٠٠ ق.م - قد ضموا جزيرة البحرين إلى إمبراطوريتهم ، وعينوا عليها حاكماً بابلياً من قبلهم^(٦) .

(١) A. Aymard, Les Premières Civilisations, I, Paris, 1950, P. 689.

(٢) P.K. Hitti, History of the Arabs, London, 1960, P. 39-40 وكذلك Herodotus, III, Ch. 88.

(٣) جواد علي ٦١٩/١ .

(٤) السيد يعقوب بكر : من كتاب العرب والملاحة في المحيط الهندي ص ٣٨ .

(٥) عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ص ١١٧ .

(٦) James H.D. Belgrave, op. cit., P. 56.

ثالثاً : العرب وبنو إسرائيل :

يتجه بعض الباحثين إلى أن العبرانيين أو الاسرائيليين^(١) ، قوم ترجع أصولهم الأولى إلى شبه الجزيرة العربية ، وقد هاجروا منها مرتحلين على طريقة الأعراب ، نحو الشمال ، معتمدين في ذلك على الشبه الكبير بين حياة العبرانيين وبين حياة الأعراب ، وعلى أن ما ورد في التوراة وفي القصص الإسرائيلي عن حياة الإسرائيليين ، إنما ينطبق كذلك على حياة العرب ، أضف إلى ذلك أن العرب والإسرائيليين ساميون ، وبلاد العرب هي مهد الساميين فالعبرانيون — طبقاً لهذا الرأي — جماعة من شبه الجزيرة العربية بطرت على أمها وعافتها وهربت منها نحو الشمال^(٢) .

وهذا الرأي لا شك أن فيه كثيراً من الصواب ، فالعبرانيون ينتمون في أصولهم الأولى إلى أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام ، من ولده إسحاق — كما أن العرب أبناء إبراهيم من ولده إسماعيل — وقوم إبراهيم من سلالة العرب التي يدعونها العاربة ، وكانوا قد خرجوا من قلب الجزيرة العربية التي نشأوا فيها كجماعة من الجماعات السامية العديدة . وهكذا يمكننا القول أن إبراهيم الخليل كان عربياً خالصاً من سلالة العرب العاربة التي يرتفع نسبها إلى سام بن نوح عليه السلام ، كما سوف يكون جد العرب العدنانية ، الذين هم من نسل ولده إسماعيل ، وهو بهذا جد العرب ، قبل أن يكون جد الإسرائيليين من ولده إسحاق^(٣) .

على أن الذي نود التنويه إليه إنما يتلخص في أمرين :

الأول : أن الإسرائيليين حتى وإن انتسبوا إلى إبراهيم ، إلا أنهم لم يسكنوا شبه الجزيرة العربية — بادئ ذي بدء — ثم هاجروا منها نحو الشمال مرتحلين على طريقة الأعراب ، كما يزعم أصحاب هذا الاتجاه ، ذلك لأن أباهم إسحاق عليه السلام ، إنما كان يعيش في فلسطين ، وليس في بلاد العرب ، كما أنهم منذ أيام إسرائيل — وهو

(١) راجع الفصل الأول من كتابنا إسرائيل ، وتحديد أصول كلمات عبراني وإسرائيلي ويهودي وصهيوني .

(٢) ديتلف نلسن : التاريخ العربي القديم ص ٢٣٣-٢٣٦ ، وكذا

D. Nielsen, op. cit., P. 241.

(٣) راجع كتابنا إسرائيل ص ١٦٤ .

يعقوب بن إسحاق — قد انتقلوا إلى مصر ، بدعوة من الصديق ، وذلك حين اجتاحت كنعان جدد ، فأقفرّت الأرض وعمت المجاعة ، وهنا — وكالعادة — تتجه كنعان صوب أرض الكنانة لعلها تجد عندها المأوى ، وينطلق أبناء يعقوب إلى مصر مع المنطلقين ، فقد أصابهم من الجوع ما أصاب غيرهم ، ويتعرف يوسف على إخوته ، وتدور بينهم محاورات تنتهي بأن يستدعي الصديق — بإذن من ملك مصر — أباه وإخوته^(١) .

وهكذا يعيش الإسرائيليون في مصر — ما شاء الله لهم أن يعيشوا — وفي حوالي عام ١٢١٦ ق.م وبقيادة الكليم عليه السلام ، يخرج الإسرائيليون من مصر إلى فلسطين ، ومن ثم فهم لا يتصلون ببلاد العرب بأية وسيلة من وسائل الاستقرار أو المعيشة ، وإن كانت بعض جالياتهم قد استقرت في بعض مناطق شبه الجزيرة العربية بعد ذلك بأجيال وأجيال ، فشأن بلاد العرب هنا ، شأن غيرها من بلاد الدنيا ، التي آوت الإسرائيليّين بعد تشرد ، وأطعمتهم بعد جوع ، سواء أكان ذلك بعد السبي الآشوري والبابلي — في القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد — أو بعد الطرد الروماني النهائي لهم من فلسطين في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد .

وأما الأمر الثاني ، فهو أن الإسرائيليّين — واليهود من بعد — إن كانوا على درجة من القرابة بالنسبة إلى العرب ، فذلك أمر ينطبق على العصور الغابرة — كما أشرنا من قبل وهو — في نفس الوقت — جد مختلف في العصر الحديث ، فظروف الاختلاط الجنسي بين اليهود ، وبين غيرهم من شعوب الدنيا طوال هذه القرون الأربعين — من عصر إبراهيم حتى العصر الحديث — قد باعدت بينهم وبين العرب تماماً ، حتى بات من المستحيل أن نتصور أن اليهود ذوي الشعر الأشقر والكستائي ، والعيون الزرقاء ، الذين نزحوا إلى فلسطين في هذا القرن يمتون بصلة القرابة إلى يهود التوراة الذين كانوا يعيشون يوماً ما في فلسطين ، فضلاً عن أن يكونوا أقرباء لليهود السود وغيرهم من الزنوج والهنود الحمر .

(١) سورة يوسف : آية ٥٨-٩٣ ، تكوين ٤١ : ٥٦ ، ٤٥ : ٢٨ ، وانظر الفصل الرابع من كتابنا إسرائيل .

وتخريجاً من هذا ، وترتيباً عليه ، تسقط ببساطة أي دعوى قرابة بين العرب واليهود الحاليين ، قد يكون يهود التوراة والعرب أبناء عمومة ، وإنما تاريخياً فحسب ، حين بدأ الكل قبائل مختلفة من الساميين ، وقد يكون صحيحاً — بل إنه لصحيح تماماً — أن إسماعيل أبا العرب ، وإسحاق أبا الاسرائيليين ، أخوة غير أشقاء ، وكلاهما ابن إبراهيم ، ولكن في البداية فقط تصدق هذه الأخوة ، أما بعد ذلك ، فقد ذاب نسل إسحاق في دماء غريبة ، ووصل الذوبان إلى حد الإحلال حتى أصبحنا الآن إزاء أقوام غرباء ، لا علاقة لهم ألبتة بإسحاق ، فضلاً عن إسماعيل ، عليهما السلام^(١) .

وعلى أي حال ، إذا عدنا مرة أخرى إلى العرب وبني إسرائيل ، وجدنا تأثيراً عربياً في لغة العبرانيين وديانتهم القديمة ، فثمة أدلة واضحة — وقديمة جداً — في اللغة العبرية ، وبخاصة في أسماء الأعلام ، على تأثير النقوش العربية الجنوبية فيها ، ومن هنا فإن الاتفاقات اللغوية والدينية التي عثر عليها تدلنا على أنه يجب ألا يقتصر بحثنا في الجزيرة العربية على أصل العبرانيين ، بل على أصل الديانة العبرية أيضاً ، إذ أن الشريان الرئيسي للديانة العبرية يتصل حقيقة ببلاد العرب القديمة ، ولعل من الأفضل هنا أن نبحث عن وطن القبائل العبرية وديانتها في شمال غرب شبه الجزيرة العربية ، وهي منطقة كانت مركزاً من مراكز الثقافة العربية القديمة^(٢) .

ذلك أن أصول الديانة العبرية القديمة وأسسها — ولا أعني هنا ديانة الأنبياء ، وإنما أعني تلك التي سادت بين الشعب العبري — إنما ترجع إلى أصول عربية ، صحيح وبالتأكيد ، أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط ، ثم موسى وهارون ، وكذا داود وسليمان ، وغيرهم من المصطفين الأخيار ، عليهم السلام ، نادوا

(١) محمد بيومي مهران : النقاة الجنسية عند اليهود : من سلسلة المحاضرات العامة ، بجامعة الاسكندرية في في العام الجامعي ١٩٧٢/٧١ ، وكذا : مجلة الأسطول : العدد ٦٨ عام ١٩٧١ م ، جمال حمدان : اليهود أنثروبولوجيا ص ٩١-٩٣ .

(٢) D. S. Margoliouth, The Relations between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam, P. 8, Io, 23, 25.

بالوحدانية المطلقة ، وصحيح والتأكيد ، أن اليهودية دين سماوي ، نادى بوحدانية الله الواحد الأحد .

ولكن صحيح كذلك ، أن اليهودية السماوية شيء ، واليهودية — كما تقدمها لنا تورا اليهود المتداولة اليوم — شيء آخر^(١) ، وهي التي تعيننا حين نتحدث عن التأثير العربي في هذه الديانة ، حيث نجد الطقوس العربية القديمة المجردة من الصور عند العبرانيين — وإن كان تأثير ديانة أخناتون في هذه الجزئية أوضح — والأمر كذلك بالنسبة إلى التثليث العربي ، فعند العبرانيين (يهوه وبعل وعشتارت) وقد كان هذا الثلاث يقدس عند العبرانيين في عصر الملوك من جميع أفراد الشعب^(٢) وإن كانت عبادة « بعل » على أيام الملك الإسرائيلي « أخاب » (٨٦٩-٨٥٠ ق.م) — معاصر النبي إيليا — وهو إيلياس على ما نرجح — أوضح من غيرها^(٣) ، وإلى هذا يشير القرآن الكريم ، في قوله تعالى : « وإن إيلياس لمن المرسلين ، إذ قال لقومه ألا تتقون ، أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين ، الله ربكم ورب آبائكم الأولين »^(٤) .

ولعل من الجدير بالإشارة هنا أن نجد عند العبرانيين ، الظاهرة العربية الأصلية القديمة ، أعني الشمس كآلهة أم ومؤنثة ، كما في زواج يهوه (رب يهود) بالشمس وفي جميع الحالات التي ترد فيها الشمس مؤنثة ، وأما الزهراء (عشتار) فمذكر^(٥) .

وأما « يهوه » رأس الثلاث ، فيظهر في الهيئة العربية القديمة جداً ، كما يرجح ورود الاسم في النقوش اللحيانية^(٦) ، ولدينا الكثير من الأدلة التي تؤيد أن الإله العبري « يهوه » ، إنما هو في الأصل إله قمري ، كما أن الحصان عند العرب القدامى — وكذا العبرانيين — هو الحيوان المقدس التابع للشمس ، تبعية الثور للقمر ، كذلك كان « يهوه » في العصور القديمة يرسم في صورة « ثور » ويقدر ، فضلاً عن أننا

(١) انظر كتابنا إسرائيل ص ٥٧-٦٩ .

(٢) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ٢٣٦ .

(٣) كتابنا إسرائيل ص ٤٩٦ ، ملوك أول ١٦ : ٣٠-٣٤ .

(٤) سورة الصافات : آية ١٢٣-١٢٦ .

(٥) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ٢٣٦ .

(٦) A.J. Jaussen and R. Savignac, op. cit., P. 250-91.

(٦)

نجد قرنين في مذبحة^(١) ، إلى جانب أننا نفهم من العهد القديم (التوراة) أن الديانة العبرية قبل السبي البابلي في القرن السادس ق.م ، كانت توصف بأنها ديانة قمر وشمس وكوكب^(٢) .

وإنه لمن الأهمية بمكان ، أن نشير إلى أن إله القمر ، إنما كان ينظر إليه ككبير للآلهة ، وكإله قومي^(٣) ، والأمر كذلك بالنسبة إلى « يهوه » عند العبرانيين ، فقد كان إلهاً قومياً ، بل إن القوم لم يفكروا في أن يجعلوا يهوه — قبل عصر أشعيا — إله العبريين جميعاً ، أو حتى إله الأسباط جميعاً^(٤) ، وحين فعلوا ذلك ، فإنهم لم يصوروه على أنه الإله الأوحد — أو حتى الوحيد — وإنما هو أكبر الآلهة فحسب ، ومن ذلك ما جاء في التوراة « من مثلك بين الآلهة يا رب » ، « الرب إلهنا أعظم من جميع الآلهة » ، « الرب أعظم من جميع الآلهة »^(٥) ، وهذه النصوص التوراتية جميعاً ، إنما تدل على أن « يهوه » لم يكن الإله الوحيد الذي يعترف اليهود بوجوده ، أو هو نفسه يعترف بوجوده وحده ، وشاهد ذلك أن كل ما يطلبه في الوصية الأولى من الوصايا العشر ، هو أن يكون مقامه فوق سائر الأرباب جميعاً^(٦) .

وهكذا يبدو بوضوح الأثر العربي القديم في ديانة العبرانيين — وفي إلههم يهوه بالذات — والأمر كذلك بالنسبة إلى ردة العرب عن ملة أبيهم إبراهيم ، فإن الاسرائيليين لم يكونوا خيراً منهم في ذلك ، فقد بقيت فيهم عبادة الأصنام بعد دعوة إبراهيم ، وحتى ظهور الأنبياء من بعد إبراهيم ، فقد عبدوا عجل الذهب وموسى ما يزال بين ظهرانيهم ، يتلقى الوحي من ربه على جبال سيناء^(٧) ، هذا فضلاً عن أن السمة المميزة لعصر القضاة ، إنما كانت الردة وعبادة الأوثان^(٨) ،

(١) ملوك ثان ٢٣: ١١ ، ملوك أول ١٢: ٢٨ ، خروج ٣٢: ٤ ، هوشع ٥: ٨ .

(٢) ملوك ثان ١٧: ١٦ ، ٣: ٢١ ، ٥ ، ٢٣: ٤-٥ ، إرميا ٢: ٨ .

(٣) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ٢٣٨ .

(٤) قضاة ١١: ٢٤ ، راعوث ١: ١٥ .

(٥) خروج ١١: ١٥ ، ١١: ١٨ ، أخبار ثان ٢: ٥ .

(٦) عباس العقاد : إبراهيم أبو الأنبياء ص ١٢٢ .

(٧) خروج ٣٢: ٧-٢٨ .

(٨) قضاة ٣: ٧ ، ٦: ١٠ .

والأمر كذلك على أيام الملكية ، حيث تبنى ملوك إسرائيل ديانات الشرك ، بالإضافة إلى ديانة يهوه ، وأقاموا عجولاً من الذهب وضعوها في مبان كالمعابد ، كما فعل يربعام الأول (٩٢٢-٩٠١ ق.م) في دان وبيت إيل^(١) ، وكما فعل أخاب في السامرة^(٢) .

وليس من شك في أن العبريين ، قد استعاروا كلمة النبي - وهي عربية لفظاً ومعنى - من عرب شمال الجزيرة العربية ، بعد اتصاهاهم بهم ، ذلك لأنهم كانوا يسمون الأنبياء الأقدمين بالآباء ، كما كانوا يسمون المطلع على الغيب بعد ذلك باسم « الرائي »^(٣) و « الناظر » ، ولم يفهموا من كلمة النبوة في أول الأمر ، إلا معنى الإنذار .

هذا وقد أشارت التوراة إلى ثلاثة أنبياء من العرب ، غير « ملكي صادق » - الذي لقيه الخليل عند بيت المقدس - وهؤلاء الأنبياء الثلاثة هم يثرون وبلعام وأيوب ، وقصة بلعام تروي لنا ما حدث بين شيوخ إسرائيل بعد خروجهم من مصر ، فإن « بالاق » ملك مؤاب قد استعان عليهم بالنبي « بلعام » ، ليبطل دعواهم باسم النبوة ، ويدحض أقوالهم بأقوال من قبيلها ، فجاء بلعام وحكم بتفضيل عبادة الله على عبادة إله المؤابيين^(٤) .

ونقرأ في التوراة أن موسى عليه السلام ، قد التقى بحميه « يثرون » كاهن مدين ، الذي جاء ومعه ابنته « صفورة » - امرأة موسى وأم ولديه اليعازر وجرشوم - وأن يثرون - وهو شعيب بني مدين العربي على الأرجح - كان يقرب القرابين إلى الله ، ويتبعه موسى وهارون وشيوخ بني إسرائيل ، وأنه قد أسدى النصيح إلى موسى ، باختيار رؤساء للشعب لينظروا في القضايا الثانوية ، ويبقى هو المرجع الأعلى ، فاتبع نصيحة شعيب^(٥) ، ومعنى هذا أن شعيباً - كما يقول الأستاذ العقاد - تقدم موسى

(١) ملوك أول ١٢: ٢٦-٣٦ .

(٢) ملوك أول ١٦: ٣١-٣٣ .

(٣) صموئيل أول ٩: ١٠-١١ ، ١٨ ، ١٩ ، وانظر : سيجال : حول تاريخ الأنبياء عند بني إسرائيل ص ٩-١٨ ، وكذا : مقالنا عن « النبوة والأنبياء عند بني إسرائيل » .

(٤) عباس العقاد : المرجع السابق ص ١٥٩-١٦٠ ، ثنية ٢٢ .

(٥) خروج ١٨: ١٢-٢٧ ، كتابنا إسرائيل ص ٣١٣ .

إلى عقيدته الإلهية ، وعلمه تبليغ الشريعة ، وتنظيم القضاء في قومه ، وأن العبريين كانوا متعلمين من النبي العربي ، ولم يكونوا معلمين^(١) .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن سفر أيوب - وهو من أروع أسفار التوراة - إنما صاحبه رجل عربي ، ذلك لأن كثيراً من علماء التوراة - ومنهم ابن عزرا وسينوزا وغيرهما - إنما يرون أن السفر قد ترجم إلى العبرية من لغة أخرى^(٢) ، ومن ثم فقد ذهب البعض إلى اعتباره عربياً - وليس يهودياً - وأن كتابه هذا ترجمة لأصل عربي مفقود^(٣) ، وأن كل الدلائل التي في سفر أيوب هذا ، إنما تدل على أنه من العرب ، فقد كان من أرض « عوص » ، وهي - وإن اختلف العلماء في مكانها - فالراجح عندهم أنها في بلاد العرب ، أو في مناطق يسكنها عرب - أي في نجد أو عمان ، أو في العربية الشمالية الغربية ، في شمال غربي المدينة المنورة ، أو في بلاد الشام ، في حوران أو في اللجاة ، أو على حدود أدوم ، أو في أدوم نفسها ، أو في شرق فلسطين أو جنوبها الشرقي - وبعبارة أخرى أنها إما في شبه الجزيرة العربية ، أو في بادية الشام^(٤) ، على أن فريقاً آخر من العلماء ، رأى أن أيوب ، إنما كان مصرياً - الأمر الذي ناقشناه في كتابنا إسرائيل^(٥) - .

وعلى الجملة - وكما يقول الأستاذ العقاد - يبدو سفر أيوب غريباً في وضعه وموضوعه بين أسفار العهد القديم (التوراة) ، ولم يكن من عادة بني إسرائيل أن يجمعوا كتباً لغير أنبيائهم المتحدثين عن ميثاقهم وميعادهم ، ولكنهم جمعوا هذا السفر مع الأسفار المشهورة ، لأنهم وجدوه في بقاع فلسطين الجنوبية محفوظاً ، يتذاكره الرواة وحسبه بعضهم من كلام موسى ، وبعضهم من كلام سليمان ،

(١) عباس العقاد : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين - القاهرة ١٩٦٠ ص ٨٠ .

(٢) سينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ص ٣١٦ .

(٣) Frank Foster, AJSL, 1932, P. 31, وكذا A.J. Montgomery, op. cit., P. 172, (٣)

D.S. Margoliouth, op. cit., P. 30. وكذا

(٤) جواد علي ١/٦٣١ ، قاموس الكتاب المقدس ١/١٨٨ ، ٢/١٢٦ وكذا

J. Hastings, op. cit., P. 200, 469, 956.

(٥) راجع كتابنا إسرائيل ص ٣٦ .

ولا عجب أن يشيع هذا الكتاب العجيب ، حيث تسامع به الناس ، فإنه عزاء صالح للمتعزين ، وعبرة صالحة للمعتبرين ، ولا تزال قصة أيوب منظومة شائعة يتغنى بها شعراء اللغة الدارجة في مصر والشام^(١) .

وأما لغة سفر أيوب هذا ، ففيها تأثيرات آرامية وعربية لا تخطئها العين^(٢) ، وربما تشير إلى تاريخ متأخر لكتابة السفر^(٣) ، ومن ثم فقد ذهب البعض إلى أنه إنما كتب خلال القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد^(٤) ، وإن ذهب البعض الآخر إلى أنه إنما كتب في عصر الآباء الأول^(٥) ، وتوسط فريق ثالث ، فجعل كتابته في عصر سليمان^(٦) ، أي في القرن العاشر ق.م .

وأياً ما كان الأمر ، فليس من شك في أن هناك غير هؤلاء الأنبياء العرب كثيرون ، لم يذكروا في المراجع اليهودية ، إذ كانت المناسبات التي تستدعي ذلك لا تستوعب تاريخ البقاع بين تخوم العراق وتخوم العقبة وما وراءها من أرض الجنوب ، كما أن ذكر أنبياء عرب في مراجع يهود قرائن لا ريب فيها على مكانة النبوة في أرض الجنوب ، مما يلي سيناء والحجاز ، فضلاً عن قرائن أخرى في التوراة والإنجيل ، يفهم منها بغير تردد أن تلك البقاع كانت وجهة الأنبياء في كل عصر تحدثت عنه هذه الكتب ، فإبراهيم الخليل — عليه السلام — توجه إلى جيران ، وموسى الكليم — عليه السلام — توجه إلى مدين ، وبولس الرسول ذهب إلى بلاد العرب قبل أن يأتي إلى دمشق ، ولم يفتأ بنو إسرائيل إلى عهد المسيح — عليه السلام — ينعون على الشمال أنه لا يخرج منه شيء حسن ، ويتتظرون النبوات من برية الجنوب^(٧) .

(١) عباس العقاد : إبراهيم أبو الأنبياء ص ١٦٢ .

(٢) D.S. Margoliouth, op. cit., P. 149f, وكذا J.A. Montgomery, op. cit., P. 8, 15.

(٣) قاموس الكتاب المقدس ١٤٨/١ .

(٤) حبيب سعيد : المدخل إلى الكتاب المقدس ص ١٤٥ ، ١٦٢ .

(٥) عباس العقاد : المرجع السابق ص ١٦١ .

(٦) M.F. Unger, Unger's Bible Dictionary, 1970, P. 594.

(٧) عباس العقاد : المرجع السابق ص ١٦٣ ، تكوين ٢: ٢٠ ، خروج ١٥: ٢-١٢ ، ١٨ : ١٢-٢٧ ، رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ١: ١٧ .

ونقرأ في التوراة ، أنه كان على أيام داود عليه السلام (١٠٠٠-٩٦٠ ق.م)
واحد من كبار الأبطال دعتة « أبيل » ، وهو عربي من بيت عربية في تيه يهوذا^(١) ،
بينما كان على الجمال رجل آخر ، دعتة التوراة « أوبيل الإسماعيلي » من العرب
الإسماعيلية^(٢) ، كما أن هناك إشارات كثيرة عن السبثيين في التوراة ، وإن كانت
مضطربة بشأن موطنهم الأصلي ، فهم مرة من الحاميين ، أبناء كوش من حام^(٣) ،
وهم مرة أخرى - وفي نفس السفر - من الساميين^(٤) ، و فرق كبير بين الحاميين
والساميين كما هو معروف ، ثم إن سبأ - أو شبأ - هذا ، هو في سفر التكوين مرة
من ولد يقطان^(٥) ، ولكنه مرة ثانية - وفي نفس السفر - من ولد يقشان^(٦) ،
والمعروف أن « يقطان » من ولد عابر ، ولكن « يقشان » من أولاد الخليل عليه السلام ،
من زوجه قطوره الكنعانية^(٧) ، و فرق بين الاثنين كبير .

ولعل هذا التضارب في نصوص التوراة بشأن السبثيين ، هو الذي جعل البعض يذهب
إلى أن ماجاء في التوراة بشأنهم ، إنما هو من مصادر غير أصيلة ، لا يمكن الاعتماد عليها ،
فضلاً عن الثقة بها ، فهي مادة كدرة ، ليس لها نصيب كبير من صواب^(٨) . هذا
وهناك في التوراة عن السبثيين رواية سفر يوثيل^(٩) كذلك ، والتي يفهم منها أنها إنما
تعني سبأ اليمن ، وليس المستعمرات السبئية في شمال غرب الجزيرة العربية^(١٠) .

على أن أهم الروايات الاسرائيلية التي تشير إلى علاقاتهم ببلاد العرب روايتان ،
الأولى تتحدث عن زيارة ملكة سبأ لسليمان عليه السلام ، والأخرى تتحدث عن

J. Hastings, op. cit., P. 3.

(١)

(٢) أخبار أول ٣: ٢٧ .

(٣) أخبار أول ١: ٩ ، تكوين ١٠: ٧ .

(٤) تكوين ١٠: ٢٨ .

(٥) تكوين ١٩: ٢٨ .

(٦) تكوين ٢٥: ٣ .

(٧) تكوين ٢٥: ١-٢ .

(٨) W.F. Albright, The Bible and the Ancient Near East, London, 1961, P. 300.

(٩) يوثيل ٣: ٧-٨ .

J.A. Montgomery, op. cit., P. 50.

(١٠)

رحلة أسطوله إلى أوفير ، ليأتي للملك النبي بالذهب والأخشاب النفيسة ، وكل ما هو نادر وغريب .

ونقرأ عن القصة الأولى في القرآن الكريم^(١) ، كما نقرأ عنها في التوراة^(٢) والإنجيل^(٣) ، وقد اختلفت الكتب المقدسة الثلاثة في سردها للقصة ، تبعاً للغرض من السرد نفسه ، وإن اتفقت على عدم ذكر اسم ملكة سبأ هذه ، أو الأرض التي كانت تقيم فيها ، إلا إذا أردنا بكلمة « سبأ » تلك الدولة التي قامت في الركن الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية ، وقد ذهب بعض النقاد ممن تعرضوا لقصص التوراة إلى أن قصة زيارة ملكة سبأ لسليمان ، إنما هي أسطورة من الأساطير ، دونها كتبه التوراة لبيان عظمة سليمان وحكمته^(٤) ، ولو تراث بعض هؤلاء النقاد بعض الشيء لما وقعوا في هذا المأزق ، نتيجة الأحكام المتسرعة ، وربما خيل هؤلاء المتحذلقين من أدعياء التاريخ الذين يجمعون التمهيص كله في الإنكار ، أنه خبر قد يسهل إنكاره بغير حجة ، وكأن المنكر لا يطالب بحجة ، ولا يعاب على النفي الجزاف ، والحق أن إنكارنا لأمر تجمع عليه الكتب المقدسة ، لا يتفق ومنهج البحث العلمي ، فضلاً عن تعارضه مع إيماننا بما جاء في كتب السماء .

على أن فريقاً آخر ، إنما يرى أن هذه القصة لا يمكن فهمها فهماً جيداً ، إلا إذا قدرنا أن السبئيين ، إنما كانوا يقطنون في شمال بلاد العرب^(٥) ، ولعل أصحاب هذا الرأي ممن يذهبون إلى أن السبئيين ، إنما ترجع أصولهم الأولى إلى شمال بلاد العرب — في بلاد الجوف أو قريباً منها — وليس إلى جنوبها ، وأن دولتهم الحقيقية لم تبدأ في بلاد العرب الجنوبية ، إلا حوالي عام ٨٠٠ ق.م — أي بعد هذه الأحداث بما يقرب من القرنين من الزمان — ومن ثم فإن هذه الملكة التي زارت سليمان ، لم تكن

(١) سورة النمل : آية ٢٠-٤٤ .

(٢) ملوك أول ١٠ : ١٣ ، أخبار أول ٩ : ١٢-١٠ .

(٣) متى ١٢ : ٤٢ .

J. Hastings, op. cit., P. 843.

(٤)

(٥) فريتز هومل : التاريخ العربي القديم ص ٦٣ .

ملكة على مملكة سبأ الشهيرة في اليمن ، وإنما كانت ملكة على مملكة صغيرة في أعالي شبه الجزيرة العربية ، كان سكانها من السبئيين القاطنين في الشمال ، ويستدلون على ذلك بعثور المنقبين على أسماء ملكات عربيات — مثل زيبه وشمس ويشعى (ياتى = يعطى) وتلخونو (تعلخونو) وتاربو (تبؤة) وبائلة (بايلو) وغيرهن^(١) — وعلى أسماء ملوك وأمراء عرب — مثل يشع أمروكرب أيلو وغيرهما — في النصوص الآشورية ، في حين أن العلماء لم يعثروا على اسم ملكة في النصوص العربية الجنوبية ، ثم صعوبة تصور زيارة ملكة عربية من الجنوب لسليمان وتعجبها من بلاطه وحاشيته وعظمة ملكه ، مع أن بلاط أورشليم يجب ألا يكون شيئاً بالقياس إلى بلاط ملوك سبأ ، ولهذا يجب ألا تكون هذه الملكة — في نظر هذه الجماعة من علماء التوراة — إلا ملكة مملكة عربية صغيرة ، لم تكن بعيدة عن عاصمة ملك سليمان في فلسطين ، فقد تكون في جبل شمر ، أو في نجد ، أو في الحجاز^(٢) .

وليس من شك أن في هذا الرأي بعضاً من صواب ، ورغم أننا لا نوافق أصحابه على ما عقده من مقارنة بين بلاط سليمان وبلاط ملوك سبأ ، لأن الأول — فيما نرى — إنما كان يمثل معجزة نبي ، أكثر منه صورة لعظمة ملك ، والذي يقرأ الآيات الكريمة التي تحدثت عن القصة — كما جاءت في القرآن الكريم ، وكما سوف نوردنا من بعد — ليعرف تماماً ، أن الملك سليمان ، ما كان في استطاعته — مثلاً — أن يفعل بعرشها ما فعل ، وإنما الذي يستطيع ذلك ، إنما هو سليمان النبي ، ذلك لأن ما حدث إنما كان معجزة للنبي الكريم ، الغرض منها ، معرفة تلك الملكة ، « أهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون » ، وصدق الله العظيم حيث يقول — على

(١) راجع N. Abbot, Pre-Islamic Arab Queens, AJSL, 58, 1941.

وكذا عبد الفتاح شحاته : تاريخ الأمة العربية قبل ظهور الإسلام — الجزء الثاني — ص ٨٣-٨٩ .

(٢) جواد علي ٦٣٦-٦٣٧ ، ٢/٢٦٢ ، عبد الفتاح شحاته : المرجع السابق ص ٨٦ ، وكذا

E. Dhorme, Revue Biblique, P. 105 وكذا R. Dussaud, les Arabes en Syrie avant l'Islam, P. 10 وكذا J.A. Montgomery, op. cit., P. 181

لسان سليمان عليه السلام — « فلما رآه مستقراً عنده ، قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم » .
على أننا مع ذلك نستطيع — ومن خلال الآيات الكريمة كذلك — أن نضيف إلى حجج المنادين بأن ملكة سبأ هذه ، ربما كانت عربية شمالية ، أكثر منها عربية جنوبية ، أن الذي يفهم صراحة من القصة القرآنية أن سليمان لم يكن يعرف عنها شيئاً — سواء من ناحية دولتها أو ديانتها — ومن هنا فإنه يقول للهدد ، « سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين » ، وليس من المقبول أن يكون سليمان — وهو ملك عظيم ، كما هو نبي كريم — لا يعرف شيئاً عن مملكة سبأ المشهورة في اليمن ، بخاصة وأن هناك علاقات تجارية بين سبأ وفلسطين ، كما أن الأخيرة — مقر دولة سليمان — إنما كانت تقع في نهاية طريق القوافل ، التي كان السبئيون يقومون بها ، أو يشرفون عليها .

ويذهب المؤرخ اليهودي يوسف بن متى إلى أنها ملكة أثيوبية ، زاعماً أن « سبا Saba » هو اسم عاصمة الأحباش ، وأن اسم هذه الملكة هو « Maukalis » ، وعلى هذا تكون ملكة سبأ حبشية الجنس وليست عربية^(١) ، وأما الروايات الحبشية نفسها ، فتذهب إلى « منليك » أول ملوك أثيوبيا في القرن العاشر ق.م. ، إنما كان ابناً لبطللة الشمس « بلقيس » (أو ماكيدة) ، وبطل القمر سليمان الحكيم^(٢) ، ومن ثم فقد حمل ملوك أثيوبيا من بين ألقابهم لقب « أسد يهوذا » ، حتى نهاية دولتهم في التاسع من ربيع الأول عام ١٣٩٥هـ (١٩٧٥/٣/٢١ م) .

على أن الأمر بهذه الصورة جد مضلل ، فمملكة أكسوم ، إنما قامت في القرن الأول ق.م. — وليس في القرن العاشر ق.م. — كما أن ملكة سبأ ، إنما هي ملكة عربية تحكم دولة عربية ، في شمال الجزيرة العربية أو جنوبها ، على اختلاف في الرأي ،

EI, I, P. 720.

(١)

(٣) الحيمي الحسن بن أحمد : سيرة الحيشة ، تحقيق مراد كامل ، نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم ٣٧٨/٣-٣٨٥ وكذا

E. A.W. Budge, A History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia, I, P. 193

J.B. Conelbeaux, Histoire de l'Abyssinie, I, P. 108.

وكذا

ومن ثم ، فليس من شك في أن تلك أسطورة نشأت بعد هجرة اليهود إلى الحبشة — سواء أكانت تلك الهجرة في القرن السادس قبل الميلاد ، أو في القرن الأول أو الثاني بعد الميلاد — حتى أن « ليطمان » قد قرأ في بعض نقوش الملك الحبشي « عيزانا » عبارة « ملك صهيون » ، ورغم أن الرجل قد اعتنق النصرانية ، وربما كانت هناك حركة تجري للتبشير باليهودية — فضلاً عن المسيحية — أو بمذهب يجمع بين الديانتين^(١) .

على أن هناك تفسيراً آخر ، لتلك الروايات التي تذهب إلى أن ملكة سبأ ، إنما كانت حبشية ، وليست عربية ، أقدمه بحذر ، وأعتمد فيه على فرضين ، لا أرجح أحدهما على الآخر ، أما الأول ، وربما كانت تلك الروايات نتيجة انتشار آراء التوراة المضطربة حول أصل السبثيين — كما أشرنا من قبل — والتي اتخذها بعض العلماء دليلاً على انتشار السبثيين في آسيا (اليمن) وفي أفريقية (ارتيريا والحبشة)^(٢) ، وأما الفرض الثاني ، وربما كانت نفس تلك الآراء متأثرة بالرأي الذي ينادي بأن مملكة أكسوم الحبشية نفسها ، إنما أقامها العرب الجنوبيون^(٣) — كما سوف نرى في هذه الدراسة — .

وتذهب الروايات العربية ، إلى أن ملكة سبأ هذه ، إنما كانت تسمى « بلقيس » — أو كما يقول أهل الأنساب بلقمة أو يلقمة^(٤) — ويرى أستاذنا الدكتور أحمد فخري ، أن أحد الاسمين — وربما كان يلقمة — نتيجة خطأ في النقل عن الآخر ، وربما كان اسم الإله الموقاة (بمعنى إيل قوي ، أي الله قوي) يدخل في تركيبه ، أما اسم « بلقيس » — الذي تكرر ذكره في كتب المؤرخين المسلمين — فلم يرد على الإطلاق بين الأسماء السبئية ، وهناك احتمال بأن الاسم منقول عن العبرية ، التي

(١) A. Kammerer, Esai sur l'Histoire Antique d'Abyssinie, Paris, 1926, P. 68.

(٢) J. Hastings, op. cit., P. 40, وكذا EB, P. 2564

(٣) فضلو حوراني : المرجع السابق ص ٨٥ ، جواد علي ٤٥١/٣ وكذا Die Araber, I, P. 114

(٤) الطبري ٤٨٩/١-٤٩٥ ، ابن الأثير ٢٣٠/١-٢٣٨ ، ابن كثير ٢٠/٢-٢٤ ، البكري ١٣٩٨/٤ .

نقلته بدورها عن اليونانية ، ومعناه أمة أو جارية^(١) ، وأما أستاذنا الدكتور حسن ظاظا^(٢) ، فالرأي عنده أن اسم هذه الملكة لم يكن يقيناً «بلقيس» ، وربما كانت هذه صفة تنطق في العبرية وفي الآشورية « بلجش » أو « فلجش » ومعناها العشيقة أو المرأة غير الشرعية ، والراجح أن ملكة سبأ وصمت بذلك من الشعب اليهودي الذي لم يكن يستريح إلى مثل هذه الصلات بين ملوكه والنساء الأجنبية ، بخاصة وأن الأمر — كما تصوره المراجع اليهودية — قد زاد بصورة مافطة للنظر في تلك الفترة ، إذ تصور التوراة سليمان نفسه وقد فاق كل أقرانه ، فتزوج من المصريات والمؤايبات والعمونيات والأدوميات والصيدونيات والحيثيات وغيرهن من الأمم التي حرم رب إسرائيل على شعبه إسرائيل أن يتصلوا بها « والتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة ، وكانت له تسع مئة من النساء السيدات ، وثلاث مئة من السراري »^(٣) .

وأياً كان اسم هذه الملكة التي زارت سليمان ، وأياً كان السبب في تسميتها بهذا الاسم أو ذاك — كما تراه الكتابات العبرية والعربية وغيرها — فإن التوراة تذهب إلى أن ملكة سبأ ، إنما كانت تهدف من وراء زيارتها هذه إلى البحث عن الحكمة وامتحان سليمان ، وأنها حين تأكدت من حكمته وعظمته ملكه قدست إله إسرائيل ، الذي جعل سليمان ملكاً تجري على يديه الحكمة وفصل الخطاب ، ثم دعت إله إسرائيل أن يثبت عرشه إلى الأبد ، ثم انتهى الأمر بأن تبادل الاثنان الهدايا^(٤) .

غير أن بعض الباحثين ، إنما يرى أن الهدف لم يكن كذلك ، وإنما كان على جانب كبير من الأهمية بالقياس إلى الطرفين ، كان توثيق العلاقات التجارية ، وتسهيل التعاون التجاري بينهما ، ويذهب « جلازر » و « شريدر » إلى أن الملك سليمان قد دعا ملكة سبأ للإقامة فترة من الزمن في مكان ما من هضاب أدوم ، لمشاهدة عمال الملك وهم يستخرجون النحاس من المناجم الممتدة هناك ، وعلى أي حال ، فقد كانت إسرائيل في نهاية طريق البخور ، وكان وكلاء سليمان (تجار الملك)

(١) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٧٣ .

(٢) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٣٣ .

(٣) ملوك أول ١١ : ١-٤ .

(٤) ملوك أول ١ : ١-١٣ .

يقومون بالإجراءات الجمركية — إن صح هذا التعبير — على البضائع الثمينة ، كما كانوا هم الذين يسمحون للقوافل بالاستمرار في رحلتها إلى مصر وفينيقيا وسورية عبر مملكة سليمان ، فليس من الغريب أن تصل شهرة سليمان إلى ملكة سبأ^(١) ، ومن ثم « فقد أتت إلى أورشليم بموكب عظيم جداً ، بجمال حاملة أطياباً وذهباً كثيراً جداً ، وحجارة كريمة ، وأتت إلى سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبها »^(٢) .

وبدهي أن هناك الكثير لدى ملكة سبأ لتقوله لسليمان ، فهي كرئيسة لدولة لها تجارة خارجية ، ترتبط بدولة أخرى لأسباب جغرافية ، يمكنها أن تناقش الكثير من الأمور مع ملك تلك الدولة ، وليس ذلك بالأمر الشاذ أو الغريب ، فنحن في أيامنا هذه نرسل المتخصصين إلى البلاد الأخرى ، وهم يحملون في حقائبهم الدبلوماسية الهدايا التي تظهر الاحترام المطلوب لرئيس الدولة ، كما فعلت ملكة سبأ^(٣) ، ومن هنا — ومع احتمال المبالغة في الرواية التوراتية — فإننا لا نرى في زيارة ملكة سبأ لسليمان شيئاً مستحيلاً يستوجب الإنكار ، كما يجنح إلى ذلك بعض الباحثين^(٤) .

والرأي عندي أن السبب في الزيارة لم يكن بهذه الصورة التي قدمناها من قبل ، وإنما كان الأمر يتصل بدعوة سليمان النبي ، أكثر منه بالملك سليمان ، وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم رأينا الأمر كذلك ، ولنقرأ هذه الآيات الكريمة ، « وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ، لأعذبه عذاباً شديداً ، أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين ، فمكث غير بعيد ، فقال أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنأ يقين ، إني وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ، وجعلتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ، قال

(١) جواد علي ٢٦٣/٢

J. Hastings, op. cit., P. 843 وكذا W. Keller, The Bible As History, P. 213-14.

(٢) ملوك أول ١٠: ٢ .

W. Keller, op. cit., P. 214-15.

(٣)

(٤) محمد عزة دروزة : تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ص ١٦٢-١٦٣ .

سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ، اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ، قالت يا أيها الملأ إني ألقى إليّ كتاب كريم ، إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين^(١) .

وتجمع الملكة العربية القادة من رجالها ، وتعرض عليهم الأمر ، تطلب الرأي والمشورة في هذه الأزمة التي أتمتها من حيث لا تحتسب ، « يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون^(٢) » ، ويأتيها الجواب سريعاً « نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين^(٣) » ، وهنا تلجأ الملكة إلى أعمال الحيلة والتدبير ، وتضع النبي الكريم موضع الاختبار ، لتصل إلى قرار بشأنه ، أهو من الهداة المرشدين ؟ أم من الطغاة الطامعين ؟ ومن ثم فإنها ترسل رسلاً بالهدايا لصاحب الرسالة التي يطلب منها - وكذا من قومها - « ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين^(٤) » ، كما أنها في الوقت نفسه ، إنما طلبت من رسلاً أن يقفوا على ملك سليمان ، ثم يعودوا إليها بالتقرير الوافي عن حقيقته وقوته في ملكه ، ومدى ما يمكن أن يقدر عليه من المكيدة ، إذا لم تخضع لأمره ، وذلك لتكون على بينة من أمرها ، فلما جاءت رسلاً إلى سليمان بالهدية لم يقبلها ، وقال « فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون^(٥) » وتوعدهم بأن يرسل إلى بلادهم جنوداً لا قبل لهم بها ، وليخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون^(٦) .

وهنا تتأكد الملكة أنها أمام واحد من المصطفين الأخيار ، يطلب لها ولقومها الهداية إلى سواء السبيل ، وليس رجلاً غرته قوته ، فأراد أن يجعل من بلادها جزءاً

(١) سورة النمل : آية ٢٠-٣١ .

(٢) سورة النمل : آية ٢٢ .

(٣) سورة النمل : آية ٣٣ .

(٤) سورة النمل : آية ٣١ .

(٥) سورة النمل : آية ٣٦ .

(وانظر عن القصة كلها : تفسير البياضوي ١٧٣/٢-١٧٨ ، تفسير الطبري ١٤٣/١٩-١٧٠ ، تفسير

روح المعاني ١٨٢/١٩-٢١٠ ، تفسير ابن كثير ٣٦٠/٣-٣٦٦ ، تفسير الطبرسي ٢٠٨/١٩-٢٣٠ ،

تفسير القرطبي ١٣/١٧٦-٢١٣ ، تفسير أبي السعود ٤/١٢٧-١٣٤ ، في ظلال القرآن ١٩/٢٦٣-

٢٦٤٣ ، الكشاف ٣/١٤٢-١٥١ ، تفسير العلي القدير ٣/٢٣٣-٢٤٠) .

(٦) انظر : عبد الفتاح شحاتة : المرجع السابق ص ٨٣-٨٤ .

من ممتلكاته ، فتقرر الذهاب بنفسها إلى النبي الكريم ، ويستعد سليمان لاستقبال الملكة العظيمة ، ويعدّ لها أمراً يخرج عن قدرة البشر العاديين ، ويدخل في عداد معجزات تلك الصنفوة المختارة من رسل الله وأنبيائه الكرام ، « قال يا أيها الملائكة أتيتكم يأتي بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ، قال عفريت من الجن أنا آتيتك به قبل أن تقوم من مقامك ، وإني عليه لقوي أمين ، قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، فلما رآه مستقراً عنده ، قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم ، قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون ، فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين^(١) » ، ثم مفاجأة أخرى ، « قيل لها ادخلي الصرح ، فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقها ، قال إنه صرح ممرد من قوارير^(٢) » .

وهنا كانت الملكة قد رأت كل ما يبعد عنها أية ريبة في أنها أمام نبي الله الكريم سليمان عليه السلام ، وليس كما كانت تظن — بادئ ذي بدء — أنها أمام ملك يطمع في دولتها ، أو يبغي الاستيلاء عليها ، ثم يجعل من أعزة قومها أذلة ، وكذلك يفعل الطامعون المستعمرون ، فتصرفت سيدة سبأ ، تصرفاً تفخر به المرأة العربية على طوال العصور ، تصرفاً لم يقدر عليه من قبل ملوك العراق مع الخليل ، أو فراعين مصر مع موسى ، كما لم يقدر عليه من بعد جبابرة قريش وطواغيت ثقيف وغيرهم من بعض رجالات العرب مع المصطفى — صلى الله عليه وسلم — أو قل إنما هي رحمة الله التي أرادت لها الهداية والرشاد ، ومن ثم فقد أنهت الأمر كله ، بأن « قالت رب إنني ظلمت نفسي ، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين^(٣) » .

هذه عجالة ، نلخص بها قصة سليمان وملكة سبأ — كما أوردها ربي جلّ جلاله في القرآن الكريم — ومن أسف أن بعض المفسرين والمؤرخين الإسلاميين ، قد عاجلوا هذه القصة الواضحة بطريقة عجيبة ، فأضافوا إليها — ما شاء لهم الخيال أن

(١) سورة النمل : آية ٣٨-٤٢ .

(٢) سورة النمل : آية ٤٤ .

(٣) سورة النمل : آية ٤٤ .

يضيفوا — فذهب بعضهم إلى أن « بلقيس » ، إنما هي « يلقمة » ابنة ليشرع بن الحارث بن صيفي بن يشجب بن يعرب بن قحطان^(١) ، وذهب البعض الآخر إلى أنها بلقيس بنت الهداد بن شرحبيل ، وأنها حكمت اليمن مئة وعشرين سنة^(٢) ، وذهبت بعض الروايات إلى أن أمها « جنية » ابنة ملك الجن ، واسمها رواحة بنت السكر ، أو يلقمة بنت عمر بن عمير الجني^(٣) ، وأما كيف وصل أبو بلقيس إلى الجن ، وخطب ابنة ملكهم ، فإنهم إنما يقدمون روايات من ذلك النوع من الخرافات التي لا أدري — علم الله — من أين أتى بها أصحابها ، على أن أسوأ ما في الأمر أن يحاول بعض الرواة أن يعطوا لرواياتهم هذه سنداً من شرعية ، أو نصيباً من حق ، فينسبون إلى سيد الأولين والآخرين ، مولانا وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم — عن طريق أبي هريرة — أحاديث تؤكد مزاعمهم هذه^(٤) ، أو قل أكاذيبهم الساذجة .

وليت الأمر اقتصر على ذلك ، وإنما يقدمون لنا كل دنيء عن القوم ، فالملك السبئي يعتدي على الأعراض ، ولا تفوته عروس إلا ويفتضها قبل زوجها ، وبلقيس — وهي ابنة عمه فيما يزعمون — لا تنجو من هذا الإذلال ، إلا بعد أن تعد له رجلين ، يقتلانه في اللحظة التي يهيم بها ، ويبلغ الخيال بمؤرخينا أشده حين يزعمون أن المرأة إنما كانت عريضة الملك ، فقد « كان لها اثنا عشر ألف قيل ، تحت يد كل قيل مئة ألف مقاتل ، مع كل مقاتل سبعون ألف جيش ، في كل جيش سبعون ألف مبارز ، ليس فيهم إلا أبناء خمس وعشرين سنة » ، وصدق ابن الأثير حيث يقول : « وما أظن الساعة راوي هذا الكذب الفاحش عرف الحساب ، حتى يعلم مقدار جهله ، ولو عرف مبلغ العدد لأقصر عن إقدامه على هذا القول السخيف ،

(١) الطبري ٤٨٩/١ ، ابن الأثير ٢٣٠/١ .

(٢) اليعقوبي ١٥٨/١ .

(٣) ابن الأثير ٢٣١/١ ، تفسير القرطبي ص ٤٨٩٨ ، ٤٩٢٧ (طبعة الشعب) ، ابن كثير ٢١/٢ (قارن ابن كثير بغيره) .

(٤) ابن الأثير ٢٣١/١-٢٣٢ ، ابن كثير ٢١/٢ ، .

فإن أهل الأرض لا يبلغون جميعهم شبابهم وشيوخهم وصبيانهم ونسأؤهم هذا العدد» (١) .

ومن الغريب أن الإخباريين يجعلون أمر بلقيس كله بيد سليمان ، حتى في المسائل الشخصية ، فهي حين ترفض الزواج من أحد رعاياها ، يزوجه سليمان من « ذي تبع » ملك همدان ، بحجة أن ذلك لا يكون في الإسلام ، وكأن الملوك فيما قبل الإسلام — أو قبل عصر سليمان وكذا بعده — ما كانوا يتزوجون من غير أنداد لهم ، وكأن التاريخ لا يعرف زواجا بين الأمراء وغير الأمراء ، ومع ذلك فإن سليمان لم يزوجه بواحد من رعاياها ، أو حتى من عظمائهم ، وإنما زوجها من ملك همدان — الذي لا يعرف التأريخ عنه شيئا — بينما تذهب رواية أخرى إلى أن سليمان إنما هو الزوج الذي ارتضته الملكة ، وأضاف البعض الآخر أنه جعل الجن تحت إمرتها ، وعلى رأسهم « زوبعة » أمير جن اليمن (٢) .

ولم يقف الخيال بمؤرخينا عند هذا الحد ، وإنما ذهب بهم إلى أن يجعلوا من سليمان واحداً من أربعة (نمرود وبختنصر وذي القرنين وسليمان) ملكوا الدنيا بأسرها (٣) — الأمر الذي ناقشناه في كتابنا عن بلاد العرب — على أن الذي يهنا هنا إنما هو سليمان الذي كان — فيما يزعمون — لا يسمع بملك في ناحية من الأرض ، إلا أتاه حتى يذله (٤) ، ونسوا أن سليمان لم يكن جباراً في الأرض ، وإنما كان هادياً ومبشراً ونذيراً .

وسؤال البداية الآن : هل كان العرب — وسبأ بالذات — ضمن دولة اليهود التي شملت الأرض كلها على أيام سليمان ، كما يزعم هذا النفر من المؤرخين ؟ .
إن المصادر التاريخية جميعاً — إذا استثنينا المصادر العربية — بما فيها التوراة ،

(١) ابن الأثير ٢٣٣/١-٢٣٤ .

(٢) الطبري ٤٩٤-٤٩٥ ، الاشتقاق ٣١١/٢ ، ابن الأثير ٢٣٧/١ ، ابن كثير ٢/٢٤ ، تفسير القرطبي ص ٤٩٢٦ .

(٣) الطبري ٢٣٣/١-٢٣٤ ، ابن الأثير ٩٤/١ ، ابن كثير ١٤٨/١ .

(٤) الطبري ٤٨٧/١ .

تتفق على أن ملك سليمان لم يتجاوز فلسطين بحدودها المعروفة ، بل إن التوراة نفسها – رغم المبالغات المعروفة عنها – إنما ترى أن مملكة إسرائيل في أقصى اتساع لها ، وفي كل العهود – وعلى رأسها عهد داود وسليمان – إنما كانت « من دان إلى بئر سبع »^(١) وهي حدود لا تشتمل حتى على فلسطين كلها ، وأن سليمان – طبقاً لرواية التوراة – قد اضطر إلى التنازل عن عشرين مدينة في الخليل للملك صور^(٢) ، وأنه قد لجأ إلى صهره ملك مصر لكي يعطيه منفذاً على البحر الأبيض المتوسط ، والذي كان يتنازع السيادة على موانئه الفينيقيون الساميون والفلسطينيون الهندوأورييون ، ومن ثم فقد خرج الجيش المصري واستولى على « جازر » التي قدمها فرعون^(٣) مهراً لابنته امرأة سليمان^(٤) .

وربما كان ذلك أحد الأسباب التي دفعت المؤرخ الأمريكي الكبير « جيمس هنري برستد » إلى أن يذهب إلى أن مصر ، إنما كان لها نفوذ على دولة سليمان^(٥) ، وسواء أصبح هذا أم لم يصبح ، فمما لا شك فيه – فيما يرى المؤرخ اليهودي سيسل روث – أن التحالف مع مصر هو الذي مكّن دولة سليمان من أن يكون لها موطئ قدم على البحر الأبيض المتوسط ، الأمر الذي لم يتح لها بغير معونة فرعون^(٦) .

(١) قضاء ١:٢٠ ، أخبار ثان ٣١:٢١ ، صموئيل أول ٣:٢٠ ، صموئيل ثان ٢٣:٢٠ .
(٢) ملوك أول ١١:٩ .

(٣) اختلف المؤرخون في الفرعون الذي تزوج الملك سليمان بابنته ، فهناك من يقترح سي آمون (سيامون) (عبد الحميد زايد : المرجع السابق ص ٣٨٩ ، JNES, 22, 1963, P.1f) وهناك من يقترح « بسونس الثاني » (محمد أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ص ٢١١ ، F. Petrie, op. cit., P. 66.) ومن يقترح آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين ، أو ما قبل الأخير من ملوك هذه الأسرة (A. Lods, op. cit., P. 368) بل إن هناك من يقترح شيشنق الأول مؤسس الأسرة الثانية والعشرين (J. Breasted op. cit., P. 529 وكذا W. Oesterley, Egypt and Israel, in the Legacy of Egypt, P. 225).

وعلى أي حال ، فليس هناك أية إشارة من الجانب المصري تؤكد هذه المصاهرة

(A. Gardiner, op. cit., P. 329).

(٤) ملوك أول ١٦:٩ .

J. H. Breasted, A History of Egypt, P. 529.

C. Roth, A Short History of the Jewish People, P. 21.

ويشير « هربرت ويلز » إلى أنه كيف لعب الخيال ، فصور مملكة سليمان بصورة تفوق الواقع بكثير ، وأن هذه الدولة إنما كانت سريعة الزوال بعد سليمان ، وذلك أنه لم تمض بضعة أعوام على وفاته ، حتى استولى شيشنق الأول — أول فراغة الأسرة الثانية والعشرين — على أورشليم وأخذ معظم ما فيها من كنوز^(١) .

وسواء أكانت هذه الحملة — فيما يرى سيسل روث^(٢) وأدولف لوذر^(٣) وهول^(٤) — بسبب استنجد زعيم الثوار الإسرائيليين بمصر ضد بيت سليمان ، أو أنها كانت لإعادة سورية وفلسطين إلى حظيرة الإمبراطورية المصرية^(٥) ، فإن التدخل المصري في إسرائيل — ولم تمض على موت النبي الكريم سنوات خمس — واحتلال العديد من المدن ، والاستيلاء على خزائن معبد سليمان وقصره الملكي^(٦) ، للدليل واضح على مدى الضعف الذي وصلت إليه دولة سليمان بعد وفاته ، بل إن التوراة نفسها لتشير إلى خضوع يهوذا — والتي أصبحت من نصيب بيت سليمان — لمصر ، أو على الأقل فإن معظم المدن هناك قد قامت بدفع الجزية لمصر ، وأما الدولة الأخرى (إسرائيل) فقد أصبحت — وعلى رأسها يربعام — تحت النفوذ المصري .

ومع ذلك كله ، فإن المصادر العربية ، تنافس المصادر اليهودية في الحديث عن اتساع ملك سليمان ، بل إنها — في أغلب الأحيان — إنما تزعم لهذه الدولة ، ما لم تزعمه لها المصادر اليهودية نفسها ، فيذهب بعض المؤرخين العرب إلى أن ملك سليمان إنما وصل إلى اليمن ، بل إن الخيال ليذهب بالبعض الآخر إلى أن يجعل عاصمة سليمان بعيداً في إيران ، حيث اتخذ من « إصطخر » — التي ينسبون إليه أو إلى جنه بناءها —

(١) H.G. Wells, A Short History of the World, P. 76-7.

(٢) C. Roth, op. cit., P. 31.

(٣) A. Lods, Israel, From its Beginnings to the Middle of the Eight Century, 1962, (٣) P. 374-5.

(٤) H.R. Hall, the Ancient History of the Near East, P. 436-7.

(٥) A. Gardiner, op. cit., P. 229-30.

(٦) ملوك أول ٢٥: ٢٧ .

مقرأً لحكمه^(١) .

وليت الذين ذهب بهم الخيال إلى هذا الحد يعلمون أن المدينة لم يبدأ الفرس في بنائها إلا حوالي عام ٥٢٠ ق.م ، على أيام الملك دارا الأول (٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م) ولكن بناءها لم يتم إلا في عهد « ارتخششتا » الأول حوالي عام ٤٦٠ ق.م^(٢) ، فإذا تذكرنا أن سليمان كان يحكم في الفترة حوالي (٩٦٠ - ٩٢٢ ق.م) ، لتبين لنا أن المدينة إنما بدىء في بنائها بعد وفاة النبي الكريم بحوالي أربعة قرون .

والحق ، أنني لست أدري لم تربط المصادر العربية بين هذا المُلْك الواسع ، وبين نبوة سليمان عليه السلام ، وكأن مكانة النبي الكريم ، لا تكون إلا بسُلطان يفوق كل سلطان ، علماً بأن النبوة أشرف من ملك الدنيا وما فيها ، ونسي هؤلاء الكتاب أن من هو أفضل من سليمان ، لم يكن يملك هذا المُلْك الواسع العريض الذي زعموه لسليمان ، بل إن سلطان الإسلام حتى انتقال محمد - صلوات الله وسلامه عليه - إلى جوار ربه الكريم ، لم يكن يتجاوز تخوم شبه الجزيرة العربية ، كما أن قصة ملكة سبأ قد انتهت بنص القرآن الكريم ، بقول الملكة « رب إنني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » ، ولا أظن أن هذه الآية الكريمة تفيد - بحال من الأحوال - أن دولة ملكة سبأ قد أصبحت تحت إمرة سليمان ، أو جزءاً من دولته ، حتى يمكن القول أن دولة سليمان قد امتدت بالتالي إلى اليمن ، ثم إن هناك اتجاهًا - ما يزال قوياً - على أن هذه الملكة ، إنما كانت في شمال شبه الجزيرة العربية ، وليس في جنوبها ، كما أشرنا من قبل .

وأما الأمر الثاني الذي يتصل بعلاقة العرب باليهود على أيام سليمان ، فهو رحلات أسطول سليمان إلى « أوفير » ، حيث كان يعود محملاً من هناك بالذهب والأخشاب والسلع القيمة النادرة ، ولكن : أين تقع أوفير هذه ؟

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٣/٤٥٨-٤٦٩ (طبعة الشعب) ، على إمام عطية : الصهيونية العالمية وأرض الميعاد ص ٧١-٧٢ ، انظر : ياقوت ١/٢١١ .

(٢) أحمد فخري : المرجع السابق ص ٢٢٩ ، وانظر : إرثر كريستنس : إيران في عهد الساسانيين ، ترجمة الدكتور يحيى الحشاش ص ٨٠ .

لقد قام جدل طويل حول أوفير هذه ، وهناك دائماً من يزعم أنه قد وجدها في أفريقية ، فهناك « كارل ماوخ » الذي وصل إلى أنقاض مدينة أحد المعابد في عام ١٨٦٤م ، على حدود روديسيا الجنوبية وموزمبيق في شرق أفريقية ، وهناك « ستنبرج » الذي اكتشف بعد ذلك بخمسة عشر عاماً - وعلى مبعدة أميال قليلة إلى الجنوب من المكان الأول - محلات للتعدين من عصر ما قبل المسيحية ، ظن أنها كانت تتصل بمعبد المدينة ، وفي عام ١٩١٠م صور الرحالة الدكتور « كارل بطرس » نقوشاً من هذا الموقع ، يزعم المتخصصون أنهم لاحظوا فيها ملامح فينيقية عربية^(١) ، ويقترح « وليم البرايت » أنها في الصومال^(٢) ، بينما يوحددها « هول » ببلاد بونت^(٣) ، ورغم ذلك فقد بقيت « أوفير » هذا البلد الغامض بعيدة عن قبضة العلماء^(٤) .

على أن هناك رأياً قوياً يذهب إلى أنها في جنوب شبه الجزيرة العربية^(٥) - وإن حددها البعض بجنوبها الغربي (اليمن) متضمناً الساحل الأفريقي المجاور^(٦) ، وحددها البعض الآخر بجنوبها الشرقي ، متضمناً الخليج العربي وخليج عمان^(٧) - في الوقت الذي يتجه فيه فريق من العلماء إلى أنها إنما تقع في العويفرة^(٨) ، القريبة من « الفاو » ، وأن الاسم القديم إنما هو « عفر » ، وقد حرف بالنقل إلى اللغتين العبرية واليونانية ، ومن ثم فقد أصبحت « أوفير » ، على أن هناك من يرى أنها إنما تقع في المنطقة ما بين القنفذة وعثود^(٩) .

W. Keller, op. cit., P. 201-202. (١)

Ibid, P. 202. (٢)

H.R. Hall, op. cit., P. 434. (٣)

كتابتنا إسرائيل ص ٤٤٤-٤٤٦ . (٤)

S.A. Cook, CAH, 3, P. 357 وكذا A. Lods, op. cit., P. 370. (٥)

J. Hastings, op. cit., P. 669 وكذا M. Noth, op. cit., P. 215. M. Unger, op.- (٦)
cit., P. 810.

E. Glaser, op. cit., P. 368-73 وكذا J. Hastings, op. cit., P. 669. (٧)

B. Thomas, Arabia Felix, P. 163. (٨)

B. Moritz, Arabien, P. 110. (٩)

وهناك اتجاه ثالث يرى أنها في الهند ، اعتماداً على أن كثيراً من أسماء السلع التي كانت تأتي من « أوفير » إنما هي دخيلة في العبرية من بعض لغات أخرى ، مثل « السنسكريتية »^(١) ، بل لقد وصل الأمر بالبعض إلى أن يجعلها داخل ولاية الأمازون البرازيلية في أمريكا الجنوبية^(٢) ، وأخيراً فإن هناك من يرى أن « أوفير » معناها « الأرض الحمراء » (أي الحمراء بلون الذهب) ، وأنها لم تكن علماً على بلد معين ، وإنما كانت اسم جنس ينطبق على بلاد عدة كاليمن وشرق أفريقية وغرب الهند^(٣) .

ويقدم لنا الأستاذ الدكتور السيد يعقوب بكر ، دراسة علمية جادة عن الموضوع — سبق أن تعرضنا لها بالتفصيل في كتابنا إسرائيل^(٤) — يخلص منها أن الركن الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية هو مكان « أوفير »^(٥) ، فقد كانت بلاد العرب موطناً للذهب ، الأمر الذي شاع بين الكتاب اليونان ، حتى إنهم يذكرون أنه كان يستخرج في مواضع معينة منها ، خالصاً نقياً لا يعالج بالنار لاستخلاصه من الشوائب الغريبة ، ولا يصهر لتنقيته ، ولهذا قيل له « Apyron » ، ومن ثم فقد ذهب البعض إلى أن العبرانيين قد أخذوا لفظ أوفير من هذه الكلمة^(٦) ، وهكذا كان من الطبيعي أن يطلبه سليمان فيها — لا في مكان قصي كالهند وأفريقية — وكان من الطبيعي أن يطلبه في الجانب الجنوبي الغربي من بلاد العرب ، لأنه أقرب أجرائها إليه^(٧) ، وبخاصة في « نيشه » و « ضنكان » ، وفي المنطقة ما بين القنفذة ومرسى حليج ، فضلاً عن وادي تثليث — على مقربة من حمضة ، وعلى مبعده ١٨٣

(١) J. Finegan, op. cit., P. 181., وكذا E. Renan, Histoire du Peuple d'Israel, P. 122.

(٢) الأب أميل أده : الفينيقيون واكتشاف أمريكا ص ٢٤-٢٥ .

(٣) J. Hornell, op. cit., I, P. 361-363, II, P. 239-40.

(٤) كتابنا إسرائيل ص ٤٤٦-٤٤٨ .

(٥) السيد يعقوب بكر : أوفير ص ١١٦-١٧٠ ، من كتاب فضلو حوراني : العرب والملاحه في المحيط الهندي .

(٦) J.A. Montgomery, op. cit., P. 39.

(٧) السيد يعقوب بكر : المرجع السابق ص ١٥١-١٥٢ .

ميلاً — من نجران^(١) . وربما قد حدث ذلك بعد اتصال سليمان بملكة سبأ — إن كانت قد حكمت في العربية الجنوبية — وبعد أن أسلمت مع سليمان لله رب العالمين .

والذهب — دون شك — أهم السلع التي كانت تجلب من أوفير ، فأوفير إذن في الجانب الغربي من الجزيرة العربية ، ثم يلي الذهب في الأهمية بين سلع أوفير خشب الصندل والحجارة الكريمة ، وهما سلع عربية كذلك ، فضلاً عن أن التوراة^(٢) تعد أوفير من أبناء يقطان (قحطان في جنوب بلاد العرب) وتضعه بين سبأ وحويلة ، وأوفير يقطان هذا — أي شعب أوفير القحطاني — هو الشعب الذي يسكن أرض أوفير ، فليس هناك « أوفيران » — أوفير في الجزيرة العربية ، وأوفير في مكان آخر — كما يزعم البعض .

وأما الفضة والعاج والقروود والطواويس ، فالفضة كانت دائماً غالية في الجزيرة العربية ، ولهذا رأى البعض أنها مقحمة في النص (كما جاء في الملوك الأول ١٠: ٢٢) ، ولكن من الممكن أنها كانت تستورد إلى أوفير ، والأمر كذلك بالنسبة إلى العاج ، وكذا القروود ، إلا إذا كان المراد النسائيس — فيما يرى مونجمري — وهي ما تزال ترى في مرتفعات اليمن وحضرموت (وإن كانت كلمة « فوقيم » العبرية بمعنى القروود هندية الأصل)^(٣) ، وكذا الطيوب التي يجعلها « جلازر » مكان القروود ، سلعة عربية ، بل هي السلعة التي كان يتهافت عليها الشرق والغرب ، وكانت مصدر غنى وثروة لعرب الجنوب ، يتبقى بعد ذلك الطواويس ، وهي سلعة هندية مستوردة^(٤) .

وأياً ما كان الأمر ، ففي عام ٩٢٢ ق.م ، ينتقل سليمان إلى جوار ربه — راضياً مرضياً عنه — ولو كرهت يهود^(٥) ، ولكنه في اللحظة التي يدفن فيها ، فإنما يدفن معه — وإلى الأبد — حلم إسرائيل في أن تكون قوة لها كيان بين جيرانها من دويلات

K.S. Twitchell, Saudi Arabia, P. 77.

(١)

(٢) تكوين ١٠: ٢٩ .

J.A. Montgomery, op. cit., P. 176-7.

(٣)

(٤) يعقوب بكر : المرجع السابق ص ١٥٣-١٥٥ .

(٥) انظر عن رأى التوراه في سليمان عليه السلام (سفر الملوك الأول ١١: ١-١١) وراجع كتابنا إسرائيل ص ٨٤-٨٥

فلسطين وسورية ، إذ سرعان ما تفشى الشقاق القبلي القديم ، وانقسمت دولة سليمان إلى دويلتين ، الأولى إسرائيل ، والأخرى يهوذا^(١) .

ونقرأ في التوراة أن « يهورام » ملك يهوذا (٨٤٩-٨٤٢ ق.م) قد قام بمجزرة مروعة ، قتل فيها من بين من قتل إخوته الستة ، فضلاً عن بعض النبلاء^(٢) ، وسواء أكان السبب في تلك المذبحة هو رغبة الملك اليهودي في أن يزيل المعارضة التي قامت ضده بسبب تعصيده لعبادة الأوثان ، أو أن التنافس على العرش بين رجالات بيت سليمان هو السبب ، فإن التوراة^(٣) تروي أن الفلسطينيين والعرب الذين يجوار الكوشيين ، قد هاجموا يهوذا في عهده ، واستولوا عليها وعلى أموال القصر ، وسبوا بنيهم وبناتهم ، ويرى « مرجليوث » أن المراد بالعرب هنا سكان اليمن ، وأن الهجوم كان بحراً ، بدليل أنهم سرعان ما تراجعوا إلى منازلهم ، يحملون غنائمهم وما حصلوا عليه من أموال دون أن يفضلوا البقاء في أورشليم (القدس) والاستيلاء على دولة يهوذا وحكمها ، بمساعدة الفلسطينيين الذين كانوا يسكنون السواحل الفلسطينية^(٤) ، وسواء أكانت كلمة العرب هنا تعني سكان اليمن ، أو تعني - فيما يرى موسل^(٥) - العرب النازلين في الأقسام الغربية والجنوبية من سيناء - وقد كانت موطناً قديماً للعرب - فإن هذه الهزائم التي منيت بها يهوذا على أيدي العرب والفلسطينيين (وهم عناصر غير سامية) لأكبر دليل على ضعف يهوذا ، وقوة أعدائها .

وفي عهد « عزيا » (٧٨٣-٧٤٢ ق.م) يتجدد النزاع بين اليهود والعرب الساكنين في جوربعل والمعونيين^(٦) ، وأما « جوربعل » فهو مسكن بعل ، فيما يرى بعض علماء التوراة ، ومن ثم فإن « موسل » يضعها في الزاوية الشمالية الغربية من أرض

(١) انظر في ذلك الفصل العاشر من كتابنا إسرائيل ص ٤٧٣-٥٣٥ .

(٢) أخبار ثان ٢١: ٤ .

(٣) أخبار ثان ٢١: ١٦-١٧ .

(٤) D.S. Margoliouth, op. cit., P. 52.

A. Musil, The Northern Hegaz, P. 274.

(٥) جواد علي ١/٦٤٢-٦٤٤ وكذا

(٦) أخبار ثان ٢٦: ٨ وكذا

A. Musil, op. cit., P. 244 وكذا J. Hastings, op. cit., P. 401 و EB, P. 5240.

حسمى^(١) ، بينما يرى آخرون أنها بمعنى « صخرة بعل » ، ومن ثم فهي « البتراء »^(٢) وأما المعونيون ، فهم المعينيون سكان المستعمرات المعينية في « ديدان » ، وربما سكان « معين مصر »^(٣) .

ونقرأ في النقوش الآشورية - وكذا في التوراة^(٤) - أن قوات سنحريب قد اخترقت بلاد اليهودية وفتحت حصونها واحداً إثر آخر ، ثم احتلت ستاً وأربعين مدينة مسورة ، مع عدد من المدن الصغرى ، أو بمعنى آخر ، فإن بلاد اليهودية كلها تقريباً قد سقطت في أيدي الآشوريين ، وكل ما استطاع ملكها حزقيا (٧١٥ - ٦٨٧ ق.م.) أن يتمسك به هو أورشليم^(٥) ، وهنا لم يكن أمام ملك اليهود ، إلا أن يطلب من مصر التدخل في شئون فلسطين ، أملاً في إنقاذها من أنياب الآشوريين ، وسرعان ما تكون حلف - على رأسه مصر - يضم الدويلات السورية ، للوقوف أمام أطماع الإمبراطورية الآشورية الطموح ، ولجأ حزقيا إلى الأعراب - وربما كانوا من القاطنين في يهوذا ، أو على حدودها الجنوبية فيما نرجح - للدفاع عن أورشليم وهكذا كتب على العرب أن يقوموا بمهمة الدفاع عن أورشليم ، يوم فقد اليهود القدرة على الدفاع عنها ضد الغزو الآشوري^(٦) .

وتمر الأيام ، وفي عام ٥٨٦ ق.م. ، يحدث السبي البابلي على أيام « نبوخذنصر » ، ويبقى اليهود هناك حيناً من الدهر ، يكتبون فيه توراتهم على ضفاف الفرات ، حتى إذا ما نجح الملك الفارسي « كيروش الثاني » (٥٥٩ - ٥٢٩ ق.م.) في الاستيلاء

(١) A. Musil, op. cit., P. 274 وكذا A.J. Montgomery, op. cit., P. 30.

(٢) قاموس الكتاب المقدس ٣٦٢/٢ .

(٣) وكذا H. Winckler, AOF, 29, P. 337 وكذا A.J. Montgomery, op. cit., P. 51 وكذا EB, P. 3065

(٤) ملوك ثان ١٨: ١٣-٣٧ .

(٥) M. Noth, op. cit., P. 268-9 وكذا ANET, P. 288

(٦) D.D. Luckenbill, op. cit., II, 240. وكذا A.R. Burn, Persia and the Greeks, P. 21

وكذا كتابنا إسرائيل ص ٥٢٢ .

على بابل في عام ٥٣٩ ق.م ، فإنه يعمل على إعادة اليهود إلى فلسطين في نفس العام ، مكافأة لهم على خيانتهم للبابليين ، ومساعدته على احتلال عاصمتهم ، ومن ثم فإن الفاتح الفارسي يسرع إلى إصدار مرسوم عودة اليهود إلى فلسطين ، ربما لأنه كان يرى أن وجود طائفة يهودية في فلسطين تدين له بالولاء ، سوف يشكل توازناً فعالاً تجاه الحزب الموالي لمصر ، والذي طالما برز في شئون فلسطين ، ومن ثم فقد اعتبر اليهود كيروش كمخلص^(١) .

ونقرأ في التوراة^(٢) أن « نحميا » قد حاول في عام ٤٤٤ ق.م — وعلى أيام الملك الفارسي « أرتاكزركسيس الأول » (ارتخششتا الأول ٤٦٥—٤٢٤ ق.م) — إعادة بناء أسوار أورشليم ، ولكنه لقي معارضة شديدة من جيرانه ، وعلى رأسهم جشم العربي^(٣) ، والذي يختلف المؤرخون فيه ، فمنهم من يرى أنه من السامرة (ربما من القبائل العربية التي هجرها سرجون الآشوري إلى السامرة) ، بينما يرى آخرون أنه رئيس قبيلة عربية تسكن في جنوب يهوذا^(٤) ، على أن فريقاً ثالثاً يرى فيه أحد ملوك « قيذار » — وهي مملكة عربية تمتد من حدود مصر الشرقية إلى حدود يهوذا ، فجنوب ديدان بحوالي ٢١ كيلومتراً —^(٥) ويظن البعض أن الإناء الذي وجد في مكان ما يقع إلى الغرب من الإسماعيلية باثني عشر ميلاً ، وقد دون عليه اسم من يدعى « قينو بن جشم ملك قيذار » إنما يخص ابن جشم المعاصر لنحميا اليهودي^(٦) ، وأياً ما كان الأمر ، فإن جشم العربي هذا ، إنما كان يرى أن إعادة بناء أسوار المدينة

(١) عزرا ٦: ٣-٥ ، أشعيا ٤٤: ٢٨ ، ١: ٤٥ ، فيليب حتي : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ص ٢٤٢ .

(٢) نحميا ١: ٤-١٩: ٦ .

(٣) نحميا ١: ٤-٢٣ .

(٤) جواد علي ١/٦٤٧ وكذا EB, P. 1710 وكذا J. Hastings, op. cit., P. 162

(٥) V. Winnett, Notes on the Lihyanite and Thamudic Inscriptions, 1938, P. 307,

W. F. Albright, New Light on Early Recensions of the Hebrew Bible, BASOR, 140, 1955, P. 31. وكذا 309

W. Culican, The Medes and Persians, London, 1965, P. 151.

(٦)

المهدمة ، إنما يعني إعادة دويلة يهوذا من جديد ، ثم تنصيب نحميا ملكاً عليها من قبل الفرس ، فيه من الخطورة ما فيه على العرب ، ومن ثم فإنه يكتب لنحميا — طبقاً لنص التوراة — « إنك أنت واليهود تفكرون أن تتمردوا ، ولذلك أنت تبني السور لتكون لهم ملكاً حسب هذه الأمور ، وقد أقمت أيضاً أنبياء لينادوا بك في أورشليم قائلين في يهوذا ملك »^(١) .

وعلى أي حال ، فمنذ القرن الخامس ق.م ، نرى اليهود ينظرون إلى العرب نظرة عداوية مطلقة^(٢) ، ربما لأن العرب قد بدأوا يتخذون موقعاً موحداً من اليهود ، ثم التوغل في فلسطين ، والاتحاد مع جيرانهم في العمل على منع اليهود من إقامة دولة يهوذا مرة أخرى^(٣) ، ومن ثم فقد رأينا بعض الأعراب ينضمون إلى « تيموتاس » (١٦٦ — ١٦١ ق.م) أمير عمون (عمان الحالية) في نزاعه ضد اليهود^(٤) ، وإن ذهب سفر المكابيين الأول إلى أن « تيموتاس » لم يحقق نصراً على اليهود^(٥) .

وفي عصر الحارث الثالث (٨٥ — ٦٠ ق.م) ملك الأنباط ، يتدخل العرب في شؤون اليهود تدخلاً مباشراً ، حيث يبدأ الجيش النبطي في مهاجمة يهوذا ، ويشتبك معها في معركة ضارية عند « Addida » — وهي الحديثة على مقربة من اللد — ينهزم فيها جيش اليهود شر هزيمة ، ويطلب « إسكندر جنايوس » الصلح على شروط الأنباط ، التي تجاهلها المؤرخ اليهودي يوسفوس ، ولم يقل لنا عنها شيئاً^(٦) .

ويبدو أن الظروف السياسية سرعان ما دعت الحارث الثالث مرة أخرى إلى التدخل في شؤون يهوذا ، وذلك إبان الخلاف الذي دب بين « أرسطوبولس » و « هركانوس » ولدي « إسكندر جنايوس » ، وانقسام اليهود إلى فريقين ، أحدهما

(١) نحميا ٦: ٦-٧ .

EB, P. 273.

(٢)

(٣) جواد علي ١/٦٤٩ .

J. Hastings, op. cit., P. 937.

(٤)

(٥) مكابيين أول ٦: ٥ ، مكابيين ثان ٨: ٣٠ ، ٩: ٣ .

CAH, IX, P. 400.

(٦) جواد علي ٣/٣١ وكذا

يؤيد أرسطوبولس ، وهم الصديقيون ، والآخر يؤيد هركانوس ، وهم الفريسيون ، ويفر الأخير إلى « البتراء » لعله يجد المأوى عند الحارث ملك الأنباط ، فضلاً عن إعادة التاج إليه ، وتثبيت ملكه ، على أن يعيد للحارث - في مقابل ذلك - المدن الاثنتي عشرة التي كان أبوه قد أخذها من العرب ، ويقبل الحارث العرض ، أملاً في أن يوسع أملاكه على حساب يهوذا ، إن لم يقدر له أن يوجه اليها الضربة القاضية ، وهكذا يعد الحارث جيشاً قوامه خمسون ألف رجل ، يهاجم به « أرسطوبولس » الذي سرعان ما يفر إلى القدس بعد هزيمة منكرة ، فيتابعه الحارث إلى المدينة المقدسة ، ويكاد يستولي عليها ، لولا أن الأقدار أرادت غير ذلك ، حيث يقوم الرومان بهجوم على دمشق ، فضلاً عن إرسال حملة عسكرية إلى القدس نفسها للتدخل في النزاع القائم ، ولمنع الأنباط العرب من الاستيلاء عليها^(١) .

ويعود الصراع من جديد بين اليهود والعرب الأنباط على أيام « هيرودوس » و « مالك الأول » (٤٧-٣٠ ق.م) فيشن الجيش اليهودي هجوماً على الجيش النبطي عند « اللد » ويحقق عليه نصراً مؤقتاً ، سرعان ما تتغير بعده رياح النصر إلى جانب الأنباط عند « قنا » في البقاع ، ويتمكن الأنباط من قتل عدد كبير من اليهود ، فضلاً عن أسر آخرين ، كما يضطر « هيرودوس » نفسه إلى الفرار إلى القدس ، وهناك يحاول أن يعدّ لجلولة أخرى ، بخاصة وقد بدأ العرب يهاجمون مدنه ، مما أدى آخر الأمر إلى قيام سلسلة من المعارك ، تناول فيها الجانبان النصر والهزيمة^(٢) .

وما إن يمضي حين من الدهر ، حتى تدق طبول الحرب بين اليهود والأنباط ، ربما بسبب زواج هيرودوس من « هيروديا » أرملة أخيه « فيلبس » ، بعد قصة حزينة يروح ضحيتها نبي الله الكريم يحيى بن زكريا - عليهما السلام - وهو هنا يوحنا المعمدان^(٣) -

(١) تاريخ يوسفوس ص ١١٠-١١٥ ،

وكذا Josephus, The Jewish War, P. 302.

(٢) جواد علي ٣/٣٥-٣٦ ، تاريخ يوسفوس ص ١٦٨ فيليب حتي : المرجع السابق ص ٣١١-٣١٢
وكذا The Jewish War, I, XVIII, 4, 1-4. وكذا Die Araber, I, P. 306-7.

(٣) متى ١٤: ٣-١١ ، تاريخ يوسفوس ص ٢١٤ .

وطلاق ابنة الحارث الرابع (٩ق.م - ٤٠م) ، فضلاً عن اختلافهما على بعض مناطق الحدود ، وهكذا نشبت المعارك بينهما ، وانتهت بانتصار الحارث في جلعاد ، ومن ثم فقد استنجد «هيرودوس» بالقيصر الروماني «تيتوس» (١٤-٣٧م) الذي أمر عامله على سورية بالقضاء على الأنباط ، وبينما كانت القوات الرومانية تتحرك نحو البتراء ، تأتي الأخبار بوفاة القيصر ، فتتوقف الحرب ، وينجو الحارث الرابع ، وفي نفس الوقت تسوء حالة هيرودوس ، فيضطر الرومان إلى تنحيته عن العرش ونفيه إلى أسبانيا^(١) ، ثم تدمير أورشليم بعد ذلك في عام ٧٠م على يد «تيتوس» ، وإن كان القضاء النهائي على اليهود - كشعب وكدولة - إنما تم في عهد الإمبراطور الروماني «هادريان» (١١٧-١٣٨م) وتغيير اسم المدينة المقدسة (القدس) إلى «إيليا كايبتوليا» وتحويل المعبد اليهودي إلى معبد لإله الرومان «جوبيتر» ، وطبقاً لرواية «ديودور الصقلي» فقد دمرت ٩٨٥ قرية ، وقتل ٥٨٠ ألفاً من السكان ، ثم بيعت النساء اليهوديات كإماء ، وأخذن إلى مقاطعة الراين كزوجات للجنود الرومان ، وضاع اليهود في غياهب التاريخ ، ذلك لأن الذين أسعدهم الحظ فنجوا من القتل ، سرعان ما فروا إلى مكان يحتمون به من غضبة الرومان القاسية ، وكان من بين هؤلاء المحظوظين فريق من يهود وصلوا إلى يثرب ، وكان هؤلاء - بجانب الذين وصلوا من قبل على أيام تيتوس - هم الذين كونوا الجاليات اليهودية في شمال الحجاز ، وفي يثرب ، بصفة رئيسية^(٢) ، الأمر الذي سوف نناقشه بالتفصيل في كتابنا «بلاد العرب» .

(١) نفس المرجع السابق ص ٢١٣ وكذا جواد علي ٤٣/٣-٤٤ وكذا

Josephus, Antiquities of the Jews, 18, V, I.

(٢) انظر مقالتنا عن «النفقاوة الجنسية عند اليهود» ، وكذا جمال حمدان: اليهود أنثروبولوجيا ص ٧٧-٧٨ ،

انظر فيليب حتي : المرجع السابق ص ٣٧٥-٣٧٦ ، وكذا

O'leary, (De Lacy. D D), Arabia Before Muhammed, London, 1927, P. 173.

رابعاً : العرب والحبشة :

ليس من شك في أن العلاقات بين العرب والحبشة ، إنما ترجع إلى عصور موعلة في القدم ، قد تبعد عن الميلاد بقرون طويلة ، وربما كان ذلك بسبب قرب الحبشة من اليمن ، حيث لا يفصل بينهما إلا مضيق باب المندب الضيق ، والذي يمكن عبوره بسهولة بوسائل نقل تلك العصور الحالية ، ومن ثم فقد تبادل الفريقان الهجرات وهكذا رأينا هجرات عربية تنتقل من بلادها إلى الشواطئ الأفريقية المقابلة ، كما رأينا كذلك هجرات أفريقية إلى العربية الجنوبية ، فضلاً عن هجرات مرتدة من هذا الفريق أو ذاك ، إلى جانب حملات عسكرية من الجانب العربي — وكذا من الجانب الأفريقي — نجحت في أن تحتل جزءاً كبيراً أو صغيراً من الأرض .

ويعلل بعض العلماء خروج هجرات من بلاد العرب ، وانتقالها إلى أوطان بعيدة ، بعوامل تتصل بوجهة النظر المناخية والاقتصادية فظروف الفقر المائي والنباتي في شبه الجزيرة العربية ، قد دفع الجماعات والقبائل إلى ممارسة الهجرة طلباً لبيئة أفضل ، وأكثر سخاء وغنى^(١) ، ويضيف البعض الآخر إلى ذلك ، المصالح التجارية الخارجية التي هيمنت على سياسة الدول العربية الجنوبية والتي وجهت نشاطها بالضرورة إلى الساحل الأفريقي^(٢) ، وهكذا نشطت حركة تجارة العاج والصمغ واللبن والذهب بين شبه الجزيرة العربية من ناحية ، وبين موانئ مصر والسودان والحبشة من ناحية أخرى ، واتخذ التجار العرب من بعض نقط على الساحل الأفريقي مراكز لهم ، يوغلون منها بسلعهم وبضائعهم في قلب القارة الأفريقية حتى وادي النيل الأعلى^(٣) .

وهكذا كانت حركة التجارة ، فضلاً عن ثروات أفريقية ، دافعاً آخر قوياً إلى الفتح والاستيطان الدائم ، ومن ثم فقد رأينا العرب الجنوبيين لا يقومون بدور الوساطة والاتصال بموانئ البحر الأحمر فحسب ، وإنما نراهم كذلك يضعون

(١) صلاح الشامي : الموانئ السودانية ص ٦٣ .

(٢) سبتينو موسكاتي : الحضارات السامية القديمة ص ٢١٣ .

(٣) مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة في العصور الوسطى ص ١٠٧ .

أقدامهم ويتوغلون إلى الداخل ويتسربون ويستقرون ، ويلعبون دوراً خطيراً آخر في إرساء قواعد حضارة وثقافة تنبت من صميم الحضارة في جنوب شبه الجزيرة العربية^(١) .

وهكذا بدأ العرب الساميون يتجهون نحو أفريقية منذ وقت مبكر ، على دفعات متعددة ، وفي أوقات مختلفة ، وفي الألفي السنة قبل الميلاد ، هاجرت جماعات عربية من جنوب غربي شبه الجزيرة العربية إلى الحبشة ، وبلغت هذه الهجرات أقصاها فيما بين عامي ١٥٠٠ ، ٣٠٠ ق.م ، في عهد دولتي معين وسبأ^(٢) ، ويرى « كارل بيترز » أنه كانت تعيش في المنطقة الواقعة بين نهري الزمبيزي واللمبوبو منذ الألف الثاني ق.م ، جالية حميرية ، وأن المعبد الكبير في « زمبيوية » بني عام ١١٠٠ ق.م ، وأن السبئيين كانوا أصحاب السيادة في ذلك الوقت^(٣) .

على أن الأمر ، إنما يزداد وضوحاً منذ القرن السادس ق.م ، حيث نزلت جالية سبئية إلى المنطقة المعروفة بـ « تعزية » في ارتيريا — وكذا إلى هضبة الحبشة — مكونة حكومة محلية هناك^(٤) ، ولعل هجرة الأوسانيين إلى السواحل الأفريقية ، إنما كانت في نفس الفترة — القرن السادس ق.م — حيث اتخذوا من « عزانيا » مقراً لهم ، ثم سرعان ما أخذوا يشقون طريقهم نحو الجنوب ، ويحدثنا صاحب كتاب « الطواف حول البحر الأرثري » أن هذه المنطقة التي شغلها الأوسانيون ، إنما كانت تسمى على أيامه « Ausanilede » ، وهو اسم لا شك أنه قريب من اسم « أوسان » ، وأن هذه المنطقة إنما كانت على أيامه — القرن الأول الميلادي^(٥) — تخضع لحكام

(١) صلاح الشامي : المرجع السابق ص ٦٣ .

(٢) مصطفى مسعد : المرجع السابق ص ١٠٧ .

(٣) فضلو حوراني : المرجع السابق ص ١٢٨ ، وكذا

Carl Peters, The Eldorado of the Ancient, P. 271-4

A. Grohmann, Arabien, P. 25.

(٤)

(٥) يحدد البعض تاريخ هذا الكتاب بالفترة ٥٠-٦٠ م (فضلو حوراني ص ٥٤) ، بينما يرى آخرون أنه يرجع إلى عام ٧٥ م (موسكاتي ص ٣٧٨) ، وأما « جاكلين بيرين » فالرأي عندها أنه كتب في عام ١٠٦ م (انظر ص ١٦٧-١٩٣ من كتابها

Le Royaume Sud — Arabe de Qataban et sa Datation Louvain, 1961.

« Mapharitis »^(١) ويريد بهم حكام سبأ وذى ريدان^(٢) ، أضف إلى ذلك كله تلك الهجرة السيئة الأخرى — وكذا الجالية الحبشية من غرب اليمن — في القرن الخامس قبل الميلاد^(٣) .

وهكذا وجدنا في زمن قديم — قبل النصف الأول من الألف الأول ق.م — جماعات من العرب الجنوبيين تعبر البحر الأحمر ، وتؤسس جاليات ومحطات تجارية على الساحل المقابل ، وقد تتابعت الهجرات نحو المنطقة التي كانت « عدولى » مركزاً لها ، فاتسعت المنطقة المستوطنة اتساعاً متصلاً ، وتولت الطبيعة نفسها دفع المستوطنين إلى الهضبة المشتهاة ، وتبين النقوش العربية الجنوبية التي وجدت في منطقة أكسوم وإلى الشرق منها ، حيث يمر الطريق الممتد من عدولى ، سعة انتشار النفوذ العربي في أثيوبيا قبل القرن السادس ق.م^(٤) .

وقد استمرت الهجرات العربية إلى الحبشة ، حتى الفترة ما بين عامي ٢٣٢ ، ٢٥٠ م على الأقل^(٥) ، بل إن بعض الباحثين ليذهب إلى أن أصل الأحباش أنفسهم ، إنما كان من غرب اليمن ، معتمدين في ذلك على أن هناك جبلاً في اليمن يدعى « حُبَيْش » ، فضلاً عن قبيلة تحمل اسم « حبشت » (الحبشات) ، قد يكون لاسم هذا الجبل — أو اسم القبيلة — صلة بهؤلاء المهاجرين إلى أفريقية ، وأن القوم أنفسهم ، إنما أطلقوا اسم الجبل ، وربما اسم القبيلة ، على مواطنهم الجديدة ، ومن هنا جاء اسم « الحبشة »^(٦) ، وعن نفس الكلمة أخذ الأفرنج لفظ « Abyssinia » ، والأمر

A. Grohmann, op. cit., P. 26.

(١) جواد علي ٤٥٠/٣ ، وكذا

Ibid, P. 25.

(٢)

Die Araber, P. 126,

(٣) جواد علي ٤٥٠/٣ ، وكذا

(٤) موسكاتي : المرجع السابق ص ٢١٣ وكذا

E. Glaser, Die Abessinier in Arabien und Africa, 1895, P. 9.

F. Altheim and R. Stiehl, Die Araber in der Alten Welt, I, P. 126.

(٥)

(٦) موسكاتي : المرجع السابق ص ٢١٤ ، حسن ظا : المرجع السابق ص ١٩٥ ، جواد علي ٤٤٩/٣ ،

C. Rossini, in Expéditions et Possessions des Habasat en Arabie, P.S. وكذا

كذلك بالنسبة إلى « الجعز » - وهم « Cesani » الذين رأي « بليني » أن مواطنهم ، إنما كانت على مقربة من عدن ، والذين يرى العلماء فيهم عرباً جنوبيين هاجروا إلى الحبشة وكونوا هناك مملكة ، ثم سرعان ما سادت لغتهم بين السكان الساميين في أثيوبيا ، ومن ثم فقد عرفت لغة الحبش بالجعزية^(١) ، حتى إن الإنجيل حين ترجم في الحبشة في القرن الرابع الميلادي ، إنما ترجم من الإغريقية إلى الجعزية ، وحتى أصبحت لغة الجعز هي لغة التخاطب والكتابة^(٢) ، ثم ظلت مستعملة في الحبشة حتى القرن الثالث عشر الميلادي ، حيث غلبت عليها اللغة الأمهرية^(٣) .

على أن هناك من يرى عكس ذلك تماماً ، فيذهب إلى أن الساميين إنما جاءوا فيما قبل التاريخ إلى شبه الجزيرة العربية من أفريقية عبر مضيق باب المندب^(٤) ، ومن ثم فإنهم يثيرون الشكوك حول هذا الرأي السائد - الذي أشرنا إليه آنفاً - ويقولون إنه ليس هناك من دليل على صحته ، وأن الأمر كله يمكن أن يفسر على أن العرب الجنوبيين قد أثروا في شعب سامي كان مستقراً في أثيوبيا من قبل ، ورغم أن هذا الاحتمال لا يمكن رفضه دون مناقشة ، إلا أنه ليس من اليسير أن نرى من أين يمكن أن يجيء ذلك الشعب السامي^(٥) ، فضلاً عن أن المتفق عليه علمياً أن بلاد العرب هي الموطن الأصلي للساميين^(٦) ، وأن هناك كثيراً من الأدلة على أن العرب إنما كانوا ذلك الشعب السامي الذي عناه العلماء ، وأن منطقة جنوب شبه الجزيرة العربية ظلت طوال العصور التاريخية - وبخاصة في الفترة ما بين الألف الأول قبل الميلاد ، والنصف الأول من القرن الأول بعد الميلاد^(٧) - مصدراً لهذا الشعب السامي ،

(١) موسكاتي : المرجع السابق ص ٢١٤ ، حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٩٥ ،
Die Araber, P. 114, 274.

(٢) إبراهيم طرخان : محاضرات في تاريخ الحبشة (مخطوط) .

(٣) عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ص ٩ .

(٤) H. Fleisch, Introduction a L'étude des Langues Semitiques, 1947, P. 25.

(٥) موسكاتي : المرجع السابق ص ٢١٤ .

(٦) راجع مقالتنا عن « الساميين وموطنهم الأصلي » مجلة كلية اللغة العربية ، العدد الرابع ص ٢٤٥-٢٧١ .

(٧) J.D. Clark, Prehistoric Culture of the Horn of Africa, P. 315.

وأن لهذه الظاهرة — ظاهرة الهجرة من اليمن إلى شرق أفريقية — أهمية كبرى في انتقال المؤثرات الحضارية من الجانب الآسيوي للبحر الأحمر إلى جانبه الأفريقي^(١) .

ولعل أهم الأدلة على كل ذلك ، (أولاً) أن البعثة الأثرية للحكومة الأثيوبية قد كشفت أخيراً في اقليم « تجرى » عن نقش عربي على مذبح ينسب إلى القرن الخامس ق.م ، أو ما بعده بقليل ، وفيه ذكر « مكرب » كان على الأرجح مكرباً محلياً ، فإذا كان ذلك كذلك ، فإنه يدل على وجود دولة محلية في ذلك الوقت^(٢) ، ومنها (ثانياً) ما كشفت عنه الحفريات من كتابة سبئية على حجر في حائط كنيسة قديمة ، جاء فيه اسم الإلهة السبئية « ذات بعدن » (أي الشمس) ، ومنها (ثالثاً) ما عثر عليه في منطقة « بجا » — شمال شرق عدوة — من آثار سبئية تدل على أن القوم إنما كانوا يقيمون هناك يوماً ما ، ومنها (رابعاً) بقايا أعمدة لمعبد سبئي ، فضلاً عن مذبح سبئي للإله « سين » ، إلى جانب كتابات وأشياء أثرية أخرى ، وكلها تدل على أثر الحضارة العربية في أكسوم^(٣) .

ومنها (خامساً) أن أقدم دين للسكان الساميين في أثيوبيا ، إنما هو صورة من صور الوثنية ، التي احتوت على عناصر عربية جنوبية كثيرة ، فعلى سبيل المثال ، نجد الإله « عشتار » — الإله العربي الجنوبي — في أثيوبيا باسم « عستر » ، وقد صار فيها تدريجياً إله السماء قياساً على الإله الرئيسي لدى الكوشيين^(٤) ، فضلاً عن أن الأحباش قد استعملوا كذلك فكرة الثالوث التي كانت شائعة في اليمن ، ففي « معين » كان الثالوث مكوناً من « عشتار وود ونكرح » ، وفي الحبشة على أيام « عزانا » كان الثالوث مكوناً من « عستر وبراص ومدر » فأما « عستر » فهو الإله العربي « عشتار » ، وأما

(١) عبد المنعم عبد الحليم : المرجع السابق ص ٢٦ .

(٢) موسكاتي : المرجع السابق ص ٢١٤ .

(٣) جواد علي ٤٥١/٣ ، حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٩٢ ، وكذا

A.H.M. Jones and E. Monroe, Histoire de l'Abyssinie, Paris, 1935.

Handbuch, I, P. 34.

وكذا

(٤) موسكاتي : المرجع السابق ص ٢٢٣

« براص ومدر » فهما إلهان إفريقيان ، أوجدتهما الأحباش بمرور الزمن ، بدلاً من إلهين عربيين كانا مستعملين من قبل^(١) .

ومنها (سادساً) فقد عثر حديثاً على تمثال طريف لشخص جالس ، وعليه نقش عربي جنوبي ، فضلاً عن آثار أخرى من النحت ، طرازها عربي جنوبي خالص ، بدليل ما عليها من نقوش عربية جنوبية ، وفيها تماثيل لأبي الهول باللغة الطرافة ، ومنها (سابعاً) ما كشف عنه من تماثيل مختلفة صغيرة لثيران ، وقد لفت الدكتور « فرانسيني » النظر إلى مخربشات على صخور جبال أرتيريا ، وهي رسوم على وتيرة واحدة ، وموضوعاتها في الغالب حيوانات من نمط الثور ، ونجد أيضاً صورة جدي بري ، وهو كما نعرف من موضوعات الفن العربي الجنوبي^(٢) .

ومنها (ثامناً) الأبجدية الحبشية المشتقة من الخط العربي الجنوبي ، وقرب لغة الكتابة والتدوين عندهم من اللهجات العربية الجنوبية ، وبعض الخصائص اللغوية والنحوية التي تشير إلى أنها قد أخذت من تلك اللهجات^(٣) ، ذلك أنه خلال القرون الأربعة الأولى للمسيحية تكونت الأبجدية الحبشية من ٢٦ حرفاً من الأبجدية السبئية ، ومن ٣ حروف ، تمثل أصواتاً غير موجودة في السبئية^(٤) ، وقد حافظت هذه الكتابة الحبشية على خواص الكتابة السبئية وأظهرها خلوها من الحروف المتحركة ، ثم وجود الفواصل أو الخطوط الرئيسية ، كما يظهر من لوحة من ارتيريا^(٥) ، بل إن الكتابة الأثيوبية المبكرة قد ظلت خالية من الحروف المتحركة حتى عام ٣٢٠م^(٦) ، وأخيراً كتابتها من اليمين إلى اليسار^(٧) ، غير أن تأثيرات مروية وإغريقية سرعان ما ظهرت بعد

(١) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ١٠-١١ .

(٢) موسكاتي : المرجع السابق ص ٢٢٣ .

(٣) جواد علي ٤٥٢/٣ .

M.A. Kammerer, la Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquite, (٤) I- P. 238.

D. Diringer, The Alphabet, A Key of the History of Mankind, 1947, fig., 112. (٥)

H. Jensen, op. cit., P. 343. (٦)

D. Diringer, op. cit., P. 129. (٧)

ذلك في الكتابة الحبشية ، ومن ثم فقد حلت النقط الرأسية كفواصل بين الكلمات ، محل الخطوط الرأسية^(١) - بتأثير من الكتابة المروية - ثم ظهرت الحروف المتحركة بعد ذلك - بتأثير إغريقي - والأمر كذلك بالنسبة إلى كتابتها من اليسار إلى اليمين^(٢) .

ومنها (تاسعاً) أن أسماء الملوك الذين حكموا منذ فترة ما قبل ميلاد المسيح ، (الذي وقع حوالي ٦ - ٢ ق.م)^(٣) ، وحتى النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي (٨ ق.م - ٢٧٤ م) يتصدرها المقطع (ZA) - ومعناه سيد أو صاحب - كما نرى في «زابازين» ، ويقابله في العربية الشمالية والجنوبية ، «ذو» - كما في ذي زن وذي جدن - والذين عرفوا عند الحميرين بالأذواء^(٤) ، ومنها (عاشرًا) أن هناك من الباحثين من يرى أن بقايا المعابد التي عثر عليها في روديسيا وفي أوغندا ، إنما هي من المعابد المتأثرة بطرز معبد «أوام» (محرم بلقيس) ، فإن بين هذه المعابد جميعاً شبهاً كبيراً في طرز البناء ، وفي المساحة وفي الأبعاد كذلك^(٥) .

ومنها (حادي عشر) أن هناك ما يشير إلى أن العرب الجنوبيين ، قد أنشأوا مدنًا في الحبشة ، ومنها على سبيل المثال ، مدينة «أفا Ava» في المرتفعات الحبشية ، ومدينة «أساب Assab» - قرب مصوع - وهي تحريف لسبأ ، ثم هناك الميناء الهام «أدوليس» والذي قام حول إنشائه جدل طويل ، وإن كانت أرجح الآراء إنما تميل إلى أن تكون «أدوليس» عربية ، أنشأها العرب الجنوبيون ، عندما انتشرت سيطرتهم على الملاحة والتجارة ، وتوغلوا في المرتفعات الحبشية ، أو أن تكون مدينة مصرية ، أوجدتها المؤثرات والاتصالات المصرية القديمة ، إلا أن عدم تعرض الكتاب القدامى لذكر أوجه شبه بين أدوليس ومدينة «أفا» السبئية ، في الوقت الذي تعرض فيه

Ibid, P. 129, 231.

(١)

(٢) عبد المنعم عبد الحليم : المرجع السابق ص ١٣١ .

(٣) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٣١٢ .

(٤) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ١٤ .

(٥) Hermann Von Wissmann and Maria Höfner, Beitrage Zur Historischen Geographie des Vorislamischen Sudarabien, 1953, P. 28.

البعض منهم إلى وجود شبه بين بقايا أدوليس والآثار المصرية — أو على الأقل تأثيرات مصرية ، وإن لم يستبعد اشتراك أكثر من جماعة من تلك الجماعات التي كانت تمارس الملاحة والتجارة ، في تأسيس أدوليس ، فضلاً عن استخدام عرب الجنوب — ومن بعدهم اليونان — للميناء منذ إنشائه ، وحتى قيام دولة أكسوم ، وإن توقف عرب الجنوب عن استخدام الميناء ، إبان فترة السيطرة الفارسية على اليمن (٥٢٥-٦٢٨ م) ، وهي فترة جد قصيرة في تاريخ استخدام الميناء للتجارة العربية^(١) .

وهكذا ساد في أثيوبيا أول الأمر ، التراث العربي الجنوبي ، مع تعديل قليل أو كثير يتفق والبيئة الجديدة ، وكان الفن الأثيوبي — قبل المسيحية بالذات — من نمط عربي جنوبي ، وكانت موضوعاته ، هي تلك التي جلبها المستوطنون إلى وطنهم الجديد ، ومن ثم فالحضارة الأثيوبية القديمة في جملتها لا يمكن وصفها بالأصالة ، وإن كانت لها ملامح معينة خاصة بها ، فقد اعتمدت في أول الأمر على نماذج عربية جنوبية ، وبعد ذلك تقبلت — مع الدين المسيحي — عناصر حضارية مسيحية ، انتقلت إليها من مصر خاصة^(٢) .

وهكذا يبدو واضحاً مدى التأثير العربي الجنوبي في الحبشة ، بل إن هناك من يذهب إلى أن مملكة أكسوم^(٣) نفسها ، إنما أنشأها العرب الجنوبيون^(٤) ، كما أن هناك أمراء عرب كانوا يحكمون في الصومال وما وراءه ، كما أن زنجبار كانت خاضعة لسلطان عربي^(٥) .

(١) صلاح الشامي : المرجع السابق ص ٥٠-٥٢ .

(٢) موسكاتي : المرجع السابق ص ٢١٩ .

(٣) تزعم الأساطير الحبشية القديمة أن « أثوبيس » — أبا الأثيوبيين — هو والد الملك « أكسوماي » الذي حكم البلاد من مكان لا ندرية على وجه التحقيق ، وأنه هو الذي أسس المدينة (E. A. W. Budge, op. cit., I, P. 129) وتقع أكسوم العاصمة على مبعدة ١٨٧ كيلومتراً من ساحل البحر الأحمر .

(٤) فضلو حواراني : المرجع السابق ص ٨٥ ، جواد علي ٤٥١/٣ وكذا Die Araber, I, P. 114.

(٥) فضلو حواراني : المرجع السابق ص ٨٥ .

وعلى أي حال ، فعلى أيام « علهان نهفان » ملك سبأ وذو ريدان ، كانت العربية الجنوبية تمر بفترة من الاضطرابات الداخلية ، اضطر بسببها « علهان » إلى عقد معاهدة مع « جدرة » ملك الحبشة ، والذي كان - فيما يرى فون فيسمان - يسيطر على ساحل البحر الأحمر الشرقي من ينبع إلى عسير ، فضلاً عن مضيق باب المندب^(١) .

وأما متى حدث ذلك ، فموضع خلاف بين المؤرخين بسبب الخلاف على فترة حكم « علهان » نفسه ، فبينما يذهب « فليبي » إلى أن الرجل إنما حكم حوالي عام ١٣٥ ق.م^(٢) ، يذهب « البرت جام » إلى أن ذلك إنما كان في الفترة (٨٥ - ٦٠ ق.م)^(٣) ، هذا إلى جانب فريق ثالث يرى أنها كانت في النصف الأول من القرن الأول ق.م^(٤) ، بل إن « وليم أولبرايت » إنما يحددها بعام ٦٠ ق.م^(٥) ، وأخيراً ، فإن « فون فيسمان » يذهب بعيداً عن الآخرين ، حيث يرى أنها إنما كانت في حوالي عام ١٦٠م^(٦) ، والأمر كذلك بالنسبة إلى « أدولف جرومان » الذي جعل حكم ابنه « شعر أوتر » في حوالي عام ٥٠ أو ٦٠ م ، وهذا يعني أن « علهان » إنما كان يحكم في القرن الأول الميلادي^(٧) .

ونقرأ في النص المعروف بـ (Geukens, I) أن بني ردمان قد اهتملوا انشغال « شعر أوتر » بن « علهان نهفان » وخليفته ، بمحاربة الحضرميين ، فانقضوا على جيشه من المؤخرة ، وكبدوه خسائر ليست بالقليلة ، وفي نفس الوقت ، أغار الأحباش - وربما باتفاق مع الردمانيين - على جيش شعر أوتر كذلك ، فضلاً عن

Le Museon, 1964, 3-4, P. 471. (١)

J.B. Philby, op. cit., P. 142. (٢)

A. Jamme, op. cit., P. 390. (٣)

H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 113. (٤)

BASOR, 119, 1950, P. 9. (٥)

Le Museon, 1964, 3-4, P. 498. (٦)

A. Grohmann, op. cit., P. 28. (٧)

الإغارة على أرضين تابعة له ، وألحقوا بهما أضراراً بالغة^(١) ، وكما جاء في نقش (جام ٦٣١) فإن شعر أوتر ، قد أوكل إلى قائده « قطبان أوكان » أمر الانتقام من الأحباش ، وسرعان ما توجه الرجل إلى العدو الحبشي ، وبعون من إلهه الموقاة ، وبمساعدة من قوات سبئية ، نجح في حصارهم ، ثم في مهاجمتهم على غرة ، وأعمل السيف فيهم ، حتى اضطربهم آخر الأمر ، إلى أن يتركوا منطقة ظفار ، وأن يتجهوا إلى المعاهر (معهرتن) ، ثم سجل ذلك كله ، شكراً للإله الموقاة^(٢) .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى عدة أمور في النص ، منها (أولاً) أن الملك إنما أمر قائده أن يسير على رأس قوة إلى أرض الحبشة ، يحارب فيها « جذرة » ملك الحبشة وأكسوم ، فماذا يعني النص بأرض الحبشة هنا ؟ أهى الأرض الأفريقية المعروفة ؟ أم موضعاً في العربية الجنوبية ؟

إن الدكتور جواد علي يرى أنها أرض الحبشة في أفريقية ، ذلك لأن « جذرة » لم يكن يقيم في بلاد العرب ، وإنما في أفريقية ، هذا فضلاً عن أن الأحباش الذين كانوا في بلاد العرب ، إنما كانوا تحت قيادة « بيجت » ولد النجاشي ، وليس النجاشي نفسه ، ثم يفترض بعد ذلك ، أن القائد « قطبان أوكان » ربما أبهر من « الحديدية » إلى السواحل الأفريقية ، وباغت القوم هناك بغزو غير متوقع ، ثم جمع ما استطاع الاستيلاء عليه ، وعاد سريعاً ليشترك في المعارك التي دارت رحاها ضد « بيجت » وقواته^(٣) ، وهذا الرأي قد يكون مقبولاً في ظاهره ، إلا أن التكتيك العسكري قد يرفضه ، فإن من الخطورة بمكان أن يجازف جيش « شعر أوتر » بهذه المغامرة ، ثم كيف أمكن تحديد الإبحار من الحديدية بالذات ، وهل كانت الحديدية معروفة في ذلك الوقت ، وأخيراً فإننا لا نملك دليلاً تاريخياً يؤكد زعم الدكتور جواد علي هذا .

G. Ryckmans, Inscriptions Sud-Arabes, in Le Museon, XII, 1942, P. 297-303., (١)

A. Jamme, op. cit., P. 301.

وكذا

A. Jamme, op. cit., P. 132.

(٢) جواد علي ٣٧٧/٢ وكذا

(٣) جواد علي ٣٧٨/٢ .

ومنها (ثانياً) أن النص لم يقل لنا شيئاً عن مصير « بيجت » بعد هزيمته في ظفار وفي أرض معافر ، وربما بقي في أرض المعاهر ، وأن الجيش السبئي لم يستطع أن يطهر هذه الأرض من الأحباش ، ومن ثم فقد بقوا فيها بعد انتهاء المعارك ، بل إن نقش (جام ٦٣٥) ليحدثنا عن معارك دارت رحاها خلف مدينة نجران ، بين جيش « شعر اوتر » والأحباش ، وربما كان ذلك يشير إلى أن نجران ، إنما كانت في يد الأحباش في تلك الآونة ^(١) .

وعلى أي حال فقد نجح شعر اوتر في السيطرة على غالبية الحكومات والأقيال في العربية الجنوبية ، إلا أن الأمر لم يكن كذلك في المناطق الغربية من اليمن ، والتي تطل على سواحل البحر الأحمر ، حيث كان الأحباش أصحاب النفوذ فيها ^(٢) ، وهكذا استقرت جاليات حبشية في اليمن — وربما اتخذت من « سحرت » قاعدة حربية لها — ومن ثم فإننا نرى — حوالي عام ١٣٠ م — أحد السريان يلاحظ خلال رحلته إلى بلاد العرب ، أن ملكاً عربياً لا يسكن في الخيام ، وإنما في قصر مزين برسوم الآدميين ، وأن هذا الملك إنما كان أسود حبشياً ، فهل كان هذا الملك الحبشي على رأس إحدى الجاليات الحبشية التي استقرت في تلك المنطقة ^(٣) .

وعلى أي حال ، فهناك بعض الروايات التاريخية التي تشير إلى حملات عسكرية قام بها الحميريون في وادي النيل الأوسط وشمال أفريقية ^(٤) ، وقد أشار « كوسان دي بر سيفال » إلى حملة قادها أبو مالك بن شمر يهرعش إلى معادن الزمرد في أرض البجة ، ومن المحتمل أن يكون قد لقي حتفه هو ومعظم جيشه حوالي منتصف القرن الأول الميلادي ^(٥) .

(١) جواد علي ٣٧٨/٢-٣٨٠ ، وكذا A. Jamme, op. cit., P. 135-6.

(٢) Le Museon, 1964, P. 475.

(٣) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ٢٥-٢٦ .

(٤) مصطفى محمد مسعد : المرجع السابق ص ١٠٨ .

(٥) نفس المرجع السابق ص ١٠٨ وكذا

Caussin de Perceval, Essai sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme, I, Paris, 1847, P. 82.

غير أن ميزان القموى سرعان ما يتغير إبان عهد دولة أكسوم ، إلى جانب الأثيوبيين ، وضد العرب الجنوبيين ، بخاصة بعد اعتناق الملك عيزانا — الذي اعتلى العرش حوالي عام ٣٢٥ م — النصرانية ، وأياً كان السبب في اعتناق عيزانا النصرانية ، وسواء أكان ذلك عن اقتناع بالدين الجديد ، أو لمزيد من التقرب إلى بيزنطة — حامية المسيحية الكبرى في الشرق — فإن اليمن قد وضعت بين قوتين مسيحيتين ، الحبشة من جهة ، والروم من جهة أخرى^(١) .

وزاد تنصر أثيوبيا من حدة منافستها لليمن غير المسيحية ، وبدأت في تنفيذ خططها القديمة لاحتلال اليمن ، تلك الخطة التي بدأت منذ حوالي القرن الأول قبل الميلاد — كما أشرنا من قبل — وكما عرفنا من نقش (جام ٦٣١)^(٢) ، هذا ويفهم من النص المعروف بـ (CIH,314) أن شمر ذي ريدان من حمير ، قد نازع « الشرح يحضب » عرشه ، وأنه استعان في ذلك بالأحباش ، إلا أنه لم ينجح في تحقيق أهدافه^(٣) ، ويشير الدكتور جواد علي إلى أن في النص إشارات إلى تدخل الحبشة في شئون العربية الجنوبية في تلك الفترة ، وإلى وجودهم في مواضع من الساحل ، وإلى تكوينهم مستعمرات فيها ، تتمون من الساحل الأفريقي المقابل ، وربما كان الروم على اتفاق مع الحبشة يوم أرسلوا حملة « اليوس جالديوس » في عام ٢٤٤ ق.م ، وربما اشترطوا أن يسهل الأحباش مهمتها السياسية والاقتصادية ، في مقابل أن يضمن الروم مصالح الحبشة في العربية الجنوبية^(٤) .

وتقرأ في نقوش جام (٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٩٠ ، ٥٩٥) عن حرب نشبت بين « الشرح يحضب » وأخيه « يازل بين » من ناحية والأحباش من ناحية أخرى ، وأن الأخوين قد انتصرا على الأحباش في « وادي سهام » و « وادي سرد » — على مبعدة ٤٠ كيلومتراً إلى الشمال من الحديدة — وفي غير ذلك من المناطق التي يوجد

(١) موسكاتي : المرجع السابق ص ٢١٥ ، حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٩٦-١٩٧ .

(٢) A. Jamme, Sabaen Inscriptions from Mahram Bilquis (Marib), P. 132.

(٣) BASOR, 145, 1957, وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 38 .

P. 28-9.

(٤) جواد علي ٢/٤٤٠-٤٤١ .

فيها الأحباش^(١) ، ويسجل نقش (جام ٥٧٦) انتصار الشرح يحضب على ملك كندة وحلفائه ، وكذا على قوات حبشية^(٢) .

وإنه لمن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن الأحباش كانوا يغيرون سياستهم نحو العربية الجنوبية من آن لآخر ، فهم مرة مع الحميريين وتارة عليهم ، وهم مرة ثالثة في حلف مع « شعراوتر » ، ومرة رابعة ضده ، ومرة خامسة على علاقة طيبة مع « الشرح يحضب » ، وهكذا نرى سياستهم قلقة غير مستقرة ، بسبب الاضطرابات التي كانت تسود العربية الجنوبية ، ولكنها في كل الأحوال تخضع لمصالح الأحباش أولاً وأخيراً ، وتهدف إلى بسط سلطانهم على بلاد العرب الجنوبية ، ثم توطيد هذا السلطان^(٣) .

ونقرأ في نقش (CIH 407) عن حرب شنها « شمر يهرعش » (٢٨٥ - ٢٩١ م^(٤)) على قبائل تهامة في شمال غربي اليمن ، والتي شملت عسير وصبيه بين وادي بيش ووادي سهام ، وأن جيوش الملك الحميري قد انتصرت على هذه القبائل برأ ، ثم سرعان ما طاردها في البحر ، حيث أوقعت بهم هزيمة منكرة ، وربما يشير ذلك إلى أن أولئك المهزومين ، إنما كانوا من الأحباش الذين كانوا يسكنون ساحل تهامة ، وأن المعركة قد دارت في البحر الأحمر^(٥) ، على أن نقش (جام ٦٦٥) والذي يتحدث عن حرب خاض غمارها رجال « ذراً أمر أيمن » وأبيه « ياسر يهنعم » ضد المناوئين لحكمهما ، قد تشير إلى انفصال حضرموت

(١) A. Jamme, op. cit., P. 1, وكذا D.S. Margoliouth, Two South Arabien Inscriptions, P. 1, 60, 64, 310-11 وكذا Wissmann and Hofner, op. cit., P. 18, 38.

(٢) A. Jamme, op. cit., P. 83, 93, 96, 317-319.

(٣) جواد علي ٤٤١/٢ .

(٤) F. Altheim, Geschichte der Hunnen, I, P. 127, وكذا Le Museon, 1964, 3-4, P. 456, 486.

(٥) H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 119, وكذا A. Jamme, op. cit., P. 369.

وسهرت (سهرتن) عن سبأ ، وعن استعادة الأحباش لسواحل جنوب غرب الجزيرة العربية^(١) .

وعلى أي حال ، فلقد استمرت محاولات الحبشة لاحتلال اليمن^(٢) ، وقد نجحت مرة ، وفشلت مرات ، وضمت إليها جزءاً من اليمن ، صغيراً أو كبيراً طبقاً لظروف البلدين ، بدليل ذكر اليمن في ألقاب السيادة التي اتخذها ملوك أكسوم في نقوشهم ، فالملك « عيزانا » مثلاً كان لقبه « ملك أكسوم وحمير وريدان وسبأ وسلحين^(٣) » ، وأخيراً ، وفي عام ٥٢٥م ، نجح الأحباش — بعون من الروم وتحريضهم — في احتلال اليمن ، ولفترة تقارب نصف القرن ، نجح العرب اليمنيون بعدها — بعون من الفرس — في طرد الأحباش من بلادهم^(٤) — الأمر الذي ناقشناه بالتفصيل في كتابنا عن بلاد العرب — .

على أن الأحباش هذه المرة لم يكتفوا باحتلال اليمن ، وإنما بدأوا — بتأثير من الروم كذلك — في مدّ نفوذهم نحو بلاد العرب الشمالية ، ونقرأ في نقش (ريكماتز ٥٠٦) — والذي يرجع إلى عام ٥٣٥ م أو ٥٤٧م^(٥) — عن حرب أشعلها

(١) A. Sprenger, op. cit., P. 189, 306, وكذا A. Jamme, op. cit., P. 375.

(٢) A. Grohmann, op. cit., P. 29.

(٣) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ٣٤ ، وكذا Le Museon, 1964, 3-4, P. 448.

(٤) انظر في ذلك : ابن الأثير ٤٣٠/١-٤٣٣ ، الطبري ١٢١/٢-١٣٠ ، ابن كثير ١٢٩/٢-١٣١ ،

١٧٧-١٧٨ ، ياقوت ٢٦٦/٥-٢٦٨ ، تاريخ الخميس ص ٢١٩-٢٢٠ ، مروج الذهب ٨٠/١-

٨١ ، ٥٦/٢ ، المعارف ص ٢٧٧-٢٧٨ ، تاريخ ابن خلدون ٥٩/٢-٦٤ ، الأخبار الطوال

ص ٦١-٦٤ ، ابن الأثير ٤٤٩/١-٤٥١ ، اليعقوبي ١٩٩/١-٢٠٠ ، الطبري ١٤٠/٢-١٤٦ ،

إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٤٥ ، المحبر ص ٣٦٨ ، عمر فروخ : تاريخ

الجاهلية ص ٧٤ ، عبد المجيد عابدين ص ٥٥-٦٧ ، تفسير البيضاوي ٣٩٥/٢ ، الكشف ١٥٩٤/٢ ،

تفسير القرطبي ٢٩٠/١٩-٢٩٣ ، وكذا

J.B. Bury, History of the Roman Empire, 2322f. وكذا J.B. Philby, op. cit.,

P. 237f. وكذا H. Winkler, Zur Alten Geschichte Yemens und Abessiniens, وكذا

P. 327. BSOAS, 16, Part 3, 1954, P. 434 وكذا Le Museon, 1953, 3-4, P. 296.

Ibid, 66, P. 275. وكذا S. Smith, in BASOR, 1954, P. 435, وكذا A. F. Beeston, (٥)

Notes on the Muraighan Inscriptions, P. 389.

أبرهة الحبشي ضد قبيلة معد ، وعن العلاقة بين ملوك الحيرة وحكام اليمن من الأحباش ، وعن نفوذ الأخيرين على قبائل مثل معد ، ثم يشير النص بعد ذلك إلى أن أبرهة قد انتصر على قبيلة معد ، ثم أخذ منها الرهائن ، اتقاء لثورة أخرى قد تقوم بها ، كما قبل أن يبقى « عمرو بن المنذر » - والذي كان عيّن أبوه المنذر أميراً على معد - في مكانه ^(١) .

وقد ذهب بعض الباحثين مذاهب شتى في تفسيرهم لهذا النص ، فمنهم من رأى أن النص إنما يشير إلى حملة أبرهة على مكة المكرمة في العام المعروف بعام الفيل ، بينما رأى آخرون أنه إنما يشير إلى غزوة قام بها أبرهة ، تمهيداً لحملة كبيرة كان ينوي القيام بها إلى أعلى شبه الجزيرة العربية ، ولكنه توقف عند مكة ، بينما رفض فريق ثالث أن يربط بين الحملتين ، لأن الواحدة إنما كانت في عام ٥٤٧ م ، والأخرى في عام ٥٦٣ م ^(٢) - أو عام ٥٧١ م وهو الأرجح - هذا ويتجه فريق رابع إلى أن النص ، إنما يتحدث عن معركتين ، الواحدة في « حلبان » والأخرى في « تربة » - ربما على مبعدة ثمانين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من الطائف ^(٣) - .

وأياً ما كان الأمر ، فإن أبرهة بعد ذلك ، بدأ يصرف نشاطه في نشر المسيحية ، ومحاربة سائر الأديان الأخرى في شبه الجزيرة العربية ، فقوى مركز مسيحيي بلاد العرب الجنوبية ، واتخذ من نجران مركزاً رئيسياً لحملة الدينونة ، فوجد جماعة مسيحية في صحراء اليمامة ، وكذا في يثرب ، وعلى امتداد الطريق التجاري إلى فلسطين وسورية ^(٤) ، وتبع ذلك بناء الكنائس في أنحاء مختلفة من اليمن ، لعل أهمها مأرب ونجران وصنعاء ، وفي هذه الأخيرة بنى كنيسة المشهورة « القليس » بغية أن يصرف الحجاج عن مكة إلى صنعاء ، فيستفيد من ذلك فوائد مادية وأدبية ، وبالتالي فقد كان ذلك سبباً في حملته المشهورة على مكة ، والتي كان يبغى من ورائها الاستيلاء

Le Museon, 1963, 3-4, P. 277-79

(١) جواد علي ٤٩٤/٣-٤٩٦ وكذا

Le Museon, 1965, 3-4, P. 427.

(٢)

(٣) جواد علي ٤٩٦/٣ ، البكري ٣٠٩/١ وكذا

BASOR, 1954, P. 391 وكذا Le Museon, 1965, 3-4, P. 426.

(٤) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٣٠٤ .

على المدينة المقدسة ، وهدم بيت الله الحرام ، ولكنه لم يحقق من أغراضه الخبيثة شيئاً .
 كان احتلال أثيوبيا لليمن - دون شك - مرحلة من مراحل الصراع بين الروم والفرس ، والذي كان يحدث حيناً بعد حين ، ثم كانت حملة أبرهة على الحجاز مرحلة أخرى من هذا الصراع ، أراد بها أبرهة أن يشارك - إلى جانب الروم - في الصراع القائم وقت ذاك بينهم وبين الفرس ، وليحقق بها - في الوقت نفسه - حلم الأسكندر الأكبر وأغسطس وغيرهما من أباطرة اليونان والرومان ، ممن حاولوا السيطرة على بلاد العرب ، ذلك الجزء الخطير من العالم ، وليصل دولته بدولة حلفائه الروم ، الأمر الذي لم يكف الروم عن التفكير فيه أبداً ، كما سوف نرى في محاولة تنصيب عثمان بن الحويرث ملكاً على مكة من قبل الروم .

على أن الغريب من الأمر ، أن المؤرخين الإسلاميين ، إنما يحاولون تفسير الأمور ببساطة تدعو إلى العجب ، ومن ثم فقد ذهب بعضهم إلى أن رجلاً قد أتى « القليس » ، حين علم أن أبرهة قد عقد العزم على أن يصرف إليها حج العرب ، فتغوط فيها ، ثم لحق بأهله من « فقيم » ، وحين أحيط أبرهة علماً بالخبر ، أقسم ليسيرن إلى البيت الذي يحجه العرب بمكة فيهدمه ، ثم بعث رجلاً كان عنده إلى بني كنانة يدعوهم إلى الحج إلى كنيسة القليس ، إلا أن القوم قتلوا الرسول ، مما زاد أبرهة غضباً وحنقاً ، ثم أمر بال جيش فتجهز وسار على رأسه إلى مكة (١) .

وهناك رواية أخرى - صاحبها السيوطي - تذهب إلى أن أكسوم ابن ابنة أبرهة خرج حاجاً ، فلما انصرف من مكة نزل في كنيسة نجران ، فعدا عليها ناس من مكة ، فأخذوا ما فيها من حلى - وكذا قناع أكسوم - ومن ثم فقد غضب أبرهة

(١) ابن الأثير ٤٤٢/١ ، الطبري ١٣٠/٢ - ١٣١ ، تفسير الطبري ١٨٨/٢٠ ، ١٩٣/٣٠ ، ابن كثير ١٧٠/٢ - ١٧١ ، تفسير ابن كثير ٥٤٩/٤ ، تفسير القرطبي ص ٧٢٧٧-٧٢٧٨ ، ياقوت ٣٩٥/٤ ، تفسير النيسابوري ١٦٣/٣٠ ، تفسير البيضاوي ٢٦٩/٣٠ ، الكشف ٢٨٨/٣ ، في ظلال القرآن ٦٦٤/٨ - ٦٦٥ ، دلائل النبوة للبيهقي ٥٦/١ - ٥٧ ، ابن هشام ٤٣/١ - ٤٦ ، الطبقات الكبرى ٥٥/١ .

وأرسل إليهم جيشاً من عشرين ألفاً ، من خولان والأشعرين ، حتى إذا ما كان على مقربة من الطائف ، قابله زعماءها وصرفوه عن مدينتهم ودلوه على الطريق إلى مكة (١) .

وتذهب رواية ثالثة - نسبها القرطبي إلى مقاتل بن سليمان وإلى ابن الكلبي - خلاصتها أن فتية من قريش خرجوا تجاراً إلى الحبشة وهناك وعلى ساحل البحر الأحمر ، وبجوار بيعة للنصارى ، أوقدوا ناراً لطعامهم ، ثم تركوها بعد حين ، إلا أن ريحاً عاصفة هبت على بقايا النار ، فأشعلتها من جديد ، وأحرقت البيعة ، فغضب النجاشي لذلك أشد الغضب ، واتفق أن أتاه أبرهة - ومعه حجر بن شربيل وأبو يكسوم الكنديين - وضمنوا له إحراق الكعبة ، ومن ثم فقد كانت الحملة إلى مكة (٢) .

وتذهب رواية رابعة إلى أن أبرهة قد توجَّ « محمد بن خزاعي بن حزابة الذكواني » على مضر ، وأمره أن يسير في الناس يدعوهم إلى الحج إلى القليس ، فذهب محمد هذا حتى إذا ما نزل ببعض أرض بني كنانة - وقد بلغ أهل تهامة أمره - بعثوا له برجل من هذيل - يقال له عروة بن حياض - فرماه بسهم فقتله ، فهرب أخوه قيس - وكان بصحبته - إلى أبرهة فأعلمه الخبر ، فحلف هذا الأخير ليغزون بني كنانة وليهدم البيت الحرام (٣) .

هذه هي الأسباب التي رأى المؤرخون المسلمون - وكذا المفسرون ، أنها كانت من وراء حملة أبرهة على البيت الحرام (٤) ، ولست أظن أن واحداً منها بكاف

(١) السيوطي : الدرر المنثور في التفسير بالمأثور ٦/٣٩٤ ، دلائل النبوة للأصبهاني ص ١٠٠ ، الكشف ٢٨٨/٣ .

(٢) القرطبي ص ٧٢٨٢-٧٢٨٣ ، أعلام النبوة ص ١٤٩ ، قارن تفسير ابن كثير ٥٠٤/٨ .

(٣) الطبري ١٣١/٢ ، تفسير الطبري ٣٠/١٩٤ ، الأزرقي ٨٦/١ وما بعدها .

(٤) الطبري ١٣٠/٢ ، تاريخ الخميس ص ٢١٢-٢١٧ ، نهاية الأرب ١/٢٥١-٢٦٤ ، في ظلال القرآن ٦٦٤-٦٧٥ ، تفسير ابن كثير ٨/٥٠٣-٥١١ (طبعة الشعب) ، تفسير القرطبي ص ٧٢٧٧-٧٢٩٠ (طبعة الشعب) .

لتبرير هذه الحملة التي أرادت القضاء على أقدس مقدسات العرب ، وإن كانت الرواية الرابعة تحمل بعضاً من صواب ، فقصة تدنيس القليس على يد رجل من النساء - وهم الذين كانوا يؤخرون المحرم إلى صفر لشن الغارات وطلب الثارات - قد تكون حقيقة وقعت ، وقد تكون أسطورة وضعت ، فإنه لا يعلم الحقيقة إلا الله ، فإن كانت الأولى ، فربما تمثل احتجاج رجل من العرب على سياسة أبرهة نحو الكعبة ، ورغبته في صرف حاج العرب عنها ، ولكنها لن تكون وحدها سبباً كافياً لقيام حملة تضم آلافاً مؤلفة من جنود الحبشة ، فضلاً عن الذين اشتركوا فيها من قبائل اليمن ، وقيادة أبرهة نفسه .

وأما رواية السيوطي ، فظاهرها المنطق ، وباطنها الخيال ، فأكسوم بن الصباح - حفيد أبرهة - رجل نصراني ، وما كانت النصراني تحج إلى بيت الله الحرام في مكة ، وما كان حفيد أبرهة بالذات هو الذي يحج إلى كعبة قريش ، لأنها كانت محجة الوثنيين وقت ذاك ، ولأن جده أبرهة هو الذي كان يعمل على صرف العرب عنها ، وتحويلهم إلى القليس ، وليس من المنطق - فضلاً عن حقائق التاريخ - أن يكون أول الخارجين على سياسة أبرهة ، حفيده أكسوم هذا ، وإلا لما غضب أبرهة من أجل سرقة قناعه - والتي تمت - ويا للعجب - في نجران ، وليس في مكة ، أو في الطريق منها إلى نجران - فضلاً عن سرقة حلي كعبة نجران نفسها ، ثم إن السيوطي إنما يخالف الإجماع ، فيما ذهب إليه من أن الذي كان على رأس الجيش ، إنما هو شهر بن معقود - وليس أبرهة نفسه - كما أنه يسبغ على قائد الحملة لقب « ملك » ، وقد كان ذلك لقب أبرهة ، ولم يكن « شهر » هذا ممن يحملون هذا اللقب الرفيع ^(١) .

وأما رواية القرطبي ، فالجدید فيها أن سبب الحملة ، إنما كان إحراق بيعة - وليس تدنيس القليس - وأنها في الحبشة ، وليس في اليمن ، وأن الذي أمر بها ، إنما كان النجاشي نفسه ، وليس أبرهة ، الذي لم يتجاوز دوره فيها دور المنفذ لما

(١) جواد علي ١١/٣ .

ارتآه مليكه ، على أن المعروف تاريخياً ، أن أبرهة ، إنما نظم هذه الحملة من حيث هو حاكم مستقل ، فضلاً عن أن السبب الذي قدمه القرطبي ، لا أظنه بكاف لأن يدفع النجاشي بقوات الحبشة إلى مكة ، ثم ما هي الصلة بين حرق بيعة في الحبشة بدون قصد ، وبين حملة أبرهة على مكة ، حتى لو افترضنا أن رواية القرطبي صحيحة ، ثم أليس في الإمكان أن يعاقب الجناة هناك في الحبشة ، بل أما كان في الإمكان منع تجار قريش من النزول بأرض النجاشي ، أما أن يكون العقاب هو هدم الكعبة ، فلا أظن إلا أن وراء ذلك أسباباً أخرى ، فما كانت سياسة الدول تدار بهذه الطريقة ، ولن تكون .

وأما الرواية التي تذهب إلى أن الحملة ، إنما كانت لأن بني كنانة قد قتلوا « محمد بن خزاعي » ، الذي اختاره أبرهة والياً على مضر من قبله — كما فعل نفس الشيء من قبل مع معد — فربما كانت أقرب الروايات إلى الصواب ، لأن ما حدث يتعارض تماماً ، وما يريده أبرهة من فرض نفوذه على مضر ، فالهدف إذن لم يكن هدم الكعبة لذاتها ، بقدر ما كان رمزاً لفرض النفوذ الحبشي على الحجاز — بعد أن تمت السيطرة تماماً على اليمن — وللحجاز وكعبته — كما هو معروف — مكانة عند العرب ، لا تتناول إليها مكانة أخرى ، كانت كذلك في الجاهلية ، وهي كذلك في الإسلام ، وسوف تبقى — إن شاء الله — حتى يرث الله الأرض ومن عليها وما عليها .

والرأي عندي ، أن الحملة إنما كانت لأسباب اقتصادية وسياسية في الدرجة الأولى ، وربما كانت دينية في الدرجة الثانية ، وحتى هذه فقد كانت لخدمة العوامل الاقتصادية والسياسية ، ذلك لأن اليمن — بعد الاحتلال الحبشي — قد فقدت دورها التقليدي في نقل التجارة العالمية ، وزاد الطين بلة أن النزاع بين الروم والفرس قد أدى إلى إغلاق الطريق التجاري الشرقي المار ببلاد العراق إلى الشام ، كما أن البحرية الحبشية لم تنجح في سد الفراغ الذي تركته البحرية الرومية في البحر الأحمر ، ربما لظروف جغرافية أكثر منها سياسية ، ومن ثم فقد أصبح الطريق البري — عبر تهامة

والحجاز - هو الطريق الوحيد المفتوح أمام التجارة ، وكان لا بد بعد زوال النشاط اليمني أن يوجد من يسد الفراغ ، ويقوم بدور الوسيط المحايد لنقل هذه التجارة ، وقد وجد هذا الوسيط ممثلاً في مدينة مكة^(١) . التي حظيت منذ منتصف القرن الخامس الميلادي بمكانة سامية بين عرب الشمال ، فضلاً عن طرفي الصراع الدولي في تلك الفترة - وأعني بهما الفرس والروم - وساعدها على ذلك رغبة هذين الطرفين في وجود مثل هذا الوسيط المحايد من ناحية ، وبعده مكة وصعوبة الوصول إليها من ناحية أخرى ، إلا أن الحبشة - بتأثير من الروم على ما يبدو - لم تكن ترى هذا الرأي ، ومن ثم كانت حملة أبرهة للاستيلاء على مكة^(٢) ، وبالتالي السيطرة على التجارة القادمة من الجنوب إلى الشمال - عن طريق مكة - ولعل ذلك قد حدث بعد فشل مشروع تحويل العرب من مكة إلى القليس ، وما كان يرجى من وراء ذلك من مكاسب مادية ودينية وأدبية .

وأما الأسباب السياسية ، فلعل أهمها أن الاستيلاء على مكة ، إنما يعني إزاحة عقبة كؤود ، كانت تقف حائلاً بين اتصال الأحباش في اليمن بحلفائهم البيزنطيين في الشمال ، وربما كانت بيزنطة تقف بكل قوتها وراء هذا المشروع الخطير ، بل إن هناك ما يشير إلى أن ذلك ، إنما كان كذلك ، فنجاح المشروع يجعل العربية الغريبة كلها تحت نفوذ النصرانية ، كما يستطيع أبرهة - بعد فتح مكة - أن يزحف نحو الشرق ، ومن ثم يستطيع أن يقضي على النفوذ الفارسي في العربية الشرقية ، وبالتالي طرد الفرس من بلاد العرب ، وجعل النفوذ الأجنبي فيها مقصوراً على النفوذ الحبشي البيزنطي .

وهكذا فإن نجاح المشروع سوف يحقق بالتأكيد للأحباش وللروم أهدافهم في بلاد العرب ، يحقق للأحباش أهدافهم الدينية بالقضاء على المركز الديني العربي الأساسي ، وتحويلهم نحو القليس - مكرهين أو راغبين - ويحقق لهم أهدافهم

(١) أحمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ص ١٥٤ وكذا

S. A. Huzayyin, op. cit., P. 142-3

(٢) أحمد إبراهيم الشريف : المرجع السابق ص ١٥٥ ، جواد علي ١٨/٣ .

الاقتصادية عن طريق سيطرتهم على الطريق التجاري البري بين جنوب بلاد العرب وشمالها ، فضلاً عن الفوائد الاقتصادية التي يجنيها الأحباش من تحويل الحجيج من مكة إلى صنعاء .

ويحقق للروم أهدافهم عن طريق بسط نفوذهم على بلاد العرب والقضاء على النفوذ الفارسي فيها ، بل وتقديم المساعدة لهم في الوقت المناسب في الصراع القائم بينهم وبين الساسانيين ، بل إن «بروكويوس» يروي أن «إبراموس» (أبرهة) عندما بسط نفوذه في العربية الجنوبية وأمن ملكه فيها ، وعد الأمبراطور «جستينيان» (٥٢٧-٥٦٥ م) أن يغزو الفرس ، وقد بدأ مشروعه هذا بالفعل ، إلا أنه سرعان ما تردد في تنفيذ ذلك .

ولعل أهم الشواهد التي تؤيد أهداف الحملة السياسية والاقتصادية ، ما يرويه المؤرخون المسلمون أنفسهم من أن أبرهة قد كتب للنجاشي بعد بناء القليس - وقبل قصة تدنيسها - بأنه ليس بمتمته حتى يصرف إليها حج العرب^(١) ، ومنها كذلك (ثانياً) حملة أبرهة على قبيلة معد وفرض نفوذه عليها^(٢) ، وهناك من يذهب إلى أن هذه خطة كان المراد منها إقامة «قيس» زعيمة على «معد» ، ثم تكوين جيش من هؤلاء وأولئك لغزو فارس ، ولم يكن أبرهة بالرجل الذي يزهدي في مثل هذه الفرصة ، لمد نفوذه على بلاد العرب ، ومنها (ثالثاً) أن الروم إنما كانوا يسعون إلى توحيد القبائل العربية تحت نفوذهم ، ومن ثم فقد حاولوا من قبل تكوين حلف منهم ومن «السميفع أشوع» ملك اليمن - بعد ذي نواس - ضد الفرس^(٣) ، بل إن «أوليري» ليرى أن بعض تجار الروم في مكة ، إنما كانوا يقومون بأعمال التجسس لحساب بلادهم^(٤) .

(١) الأزرقي ٨٢/١ ، الطبري ١٣٠/٢ ، تفسير الطبري ١٩٣/٣٠ ، ابن كثير ١٧٠/١ ، ابن هشام ٤٣/١ ، تفسير القرطبي ص ٧٢٧٧ ، تفسير ابن كثير ٥٠٤/٨ (الشعب) .

(٢) جواد علي ٤٩٤-٤٩٦ وكذا Le Museon, 1953, 3-4, P. 277-79.

(٣) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ٦٣ ، وكذا

R. Bell, The Origin of Islam in its Christian Environment, P. 40

(٤) جواد علي ٥١٩/٣ وكذا Procopius, I, P. 180. O'Leary, op-cit, P. 184

وأياً ما كان السبب في هذه الحملة ، فإن أبرهة قد جهز جيشاً ضخماً ، بالغ المؤرخون المسلمون في عدده ، حتى جعله بعضهم ما بين ٤٠ ، ٦٠ ألف رجل ، واشترك فيه من قبائل عرب الجنوب ، خولان والأشعريون وخندف وحميس بن أد ، وتذهب المصادر العربية إلى أن العرب حينما سمعت بهذا الأمر أعظمته ، ورأوا أن جهاده حق عليهم ، ومن ثم فقد تعرض له شريف يمني يدعى « ذونفر » ، لم يكتب له النجاح ، وأخذ أسيراً ، والأمر كذلك بالنسبة إلى « نفيل بن حبيب الخثعمي » .

وتستمر الحملة في طريقها حتى إذا ما وصلت إلى الطائف ، تقدم زعيمها « مسعود بن معتب » يعلن للطاغية الحبشي ، أنه وقومه من عبيده ، ثم بعثوا معه « أبا رغال » ليدله على الطريق - وكان أبرهة لا يعرف طريقه ، أو أن مكة مجهولة ، أو أنه ليس في جيشه رجل من قبائل العرب التي انضمت إلى الحملة يعرف الطريق إلى مكة - وعلى أي حال ، فالرواية تذهب بعد ذلك إلى أن أبا رغال قد أنزل أبرهة المغمس - على مبعدة ثلثي فرسخ من مكة في طريق الطائف - حيث هلك أبو رغال ، ورجمت العرب قبره بعد ذلك ^(١) .

وهكذا يصل أبرهة إلى أرباض مكة ، فيرسل الأسود بن مقصود على فرسان له ، ليسوق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرها - ومن بينها مائتان أو أربعمائة بعير لسيد مكة - عبد المطلب بن هاشم - ثم يبعث برجل من العرب يدعى « حثاظة » ليبلغ سيد مكة أن أبرهة ما جاء لقتالهم ، وإنما ليهدم البيت الحرام ، فإن لم يمنعوه فهم في أمان من حربه ، ويلقى الرسول عبد المطلب ويبلغه الرسالة ، فيرد عبد المطلب : « والله ما نريد حربه ، وهذا بيت الله ، وبيت خليله إبراهيم ، فإن يشأ منع بيته وحرمه ، وإن لم يشأ تخلى عنه ، والله ما عندنا من قتال » ثم تستمر الرواية ،

(١) ابن الأثير ١/٤٤٣-٤٤٥ ، تفسير الطبري ٣٠/١٦٧ ، ١٩٤ ، الاشتقاق ص ٣٠٦ ، تفسير القرطبي ص ٧٢٧٨-٧٢٧٩ ، تفسير ابن كثير ٨/٥٠٤-٥٠٥ (الشعب) ، صحيح الأخبار ٢١/٢٢ ، ابن هشام ١/٤٦-٤٨ ، البكري ١/١٢٤٨ ، ياقوت ٥/١٦١ ، المسعودي ٢/١٠٤-١٠٦ ، اليعقوبي ١/٢٥٢-٢٥٣ ، ياقوت ٣/٥٣-٥٤ ، في ظلال القرآن ٨/٦٦٥ .

فتقول : إن الرسول قد أخذ معه عبد المطلب إلى أبرهة ، وكان عبد المطلب رجلاً عظيماً ، مهيباً وسيماً ، فنزل أبرهة عن سريره وأجلسه معه ، وسأله عن طلبه ، فقال عبد المطلب : « الأبل التي ساقها جندك » ، وهنا يذهب الرواة إلى أن أمر عبد المطلب قد هان في نظر أبرهة ، وقال له : « أتسأل عن البعير وتترك البيت الذي هو دين آبائك ودينك من بعدهم » ، فقال عبد المطلب : « أنا رب الإبل ، والبيت رب يحميه » ، فأمر برد إبل عبد المطلب دون غيرها ، فأخذها عبد المطلب وقلدها النعال وساقها هدياً إلى الحرم ، ووقف على باب الكعبة يقول :

يا رب لا أرجو لهم سواك يا رب فامنع منهم حماك

إن عدو البيت من عاداك فامنعهم أن يخربوا قراكا

★ ★ ★

لا هم إن العبد يمنح رحله فامنع حلالك

لا يغلبن صليبههم ومحالهم غدواً محالك

وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك^(١)

ويعلق الأستاذ العقاد ، على موقف عبد المطلب هذا ، بأنه كان موقفاً حكيماً ، يتفق وما عرف عن صفات هذا السيد العظيم ، لا تهور مع القوة الطاغية ، ولكن لا خضوع لها ، بل وضع لها في موضعها ، وقول يناسب كل مقام ، فإذا خامر الظن أحداً لا يفهم معنى هذه الآنفة ، التي تأنف من التهور ، كما تأنف من الجبن ، فهناك الجواب الفعال ، الذي يغني ما ليس يغنيه المقال : ما سألت عن الأبل لأنني أضن بأثمانها ، فإنني قد وهبتها بعد ذلك للبيت ، ولكنني سألت عنها لأنها موضع سؤالي ، وتركت السؤال عند البيت ، لأن استجداء الرحمة من أبرهة لبيت الله ، ينفي الثقة بالبيت وبالله^(٢) .

(١) ابن الأثير ٤٤٤/١ ، الطبري ١٣٣/٢-١٣٦ ، الأزرق ٢٨٣/١ ، البيهقي ٥٨/١-٥٩ ، ابن هشام ٤٨/١-٥٢ ، ابن سعد ٥٥/١-٥٦ ، القرطبي ص ٧٢٧٩-٧٢٨٢ في ظلال القرآن ٨/٦٦٥-٦٦٦ ، تفسير ابن كثير ٥٠٤/٨-٥٠٦ ، محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ١٠١-١٠٢ ، عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ٦٤-٦٥ ، العقاد : مطلع النور ص ١٢١-١٢٢ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ١٢٢ .

وهنا تروي المصادر العربية أن عبد المطلب قد انطلق ومن معه من قريش إلى شعاب الجبال ، فتحرزوا فيها ينتظرون ما يفعل أبرهة بمكة إذا دخلها ، إلا أن هناك رواية أخرى — نرجحها ونميل إلى الأخذ بها — تذهب إلى أن عبد المطلب بعد أن لم يفلح في تعبئة قريش لقتال الأحباش ، لم يفارق الكعبة ، حين تفرقت قريش في شعاب مكة وجبالها ، خوفاً من الغزاة ، بل أخذ يستعد لمقاومة الغزو بمن أطاعه من قومه ، وهو مع ذلك يدعو ربه ليرد كيد الغازي عن بيته الحرام ، ومن ثم فإن المرض حين تفشى في جيش أبرهة وارتد عن مكة ، علت مكانة عبد المطلب فوق علوها (١) .

ولعل مما يرجح مقاومة عبد المطلب ، أن العرب حين سمعت بحملة أبرهة على الكعبة ، رأوا جهاده حقاً عليهم ، ومن ثم فقد خرج « ذو نفر » اليمني ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده ، ورغم أن « ذا نفر » قد فشل في مهمته ، فإنه قد أثبت أن العرب لم يخضعوا لأبرهة ، ولم يستكينوا لرغبته في هدم كعبتهم الشريفة ، أضف إلى ذلك أن البيهقي يذهب إلى أن الأشعرين وخنعم ، حينما وصلوا إلى الحرم الشريف ، كسروا رماحهم وسيوفهم وبرئوا إلى الله تعالى أن يعينوا على هدم البيت (٢) .

وعلى أي حال ، فإن الجيش الحبشي سرعان ما يتقدم نحو البلد الحرام ، ويبدأ أبرهة مهمته المشؤومة ، إلا أن إرادة الله قد أرادت غير ما أراد الطاغية الحبشي ، « وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » (٣) وسواء أكانت هذه الطير الأبابيل ، طيراً من البحر رمتهم بحجارة مثل الحمص والعدس ، لا تصيب الواحد منهم إلا هلك ، أو أنها أشباه العاسيب ، رمتهم بحجارة من سجيل ، وهو طين خلط بحجارة خرجت من البحر ، أو أنها

(١) البيهقي ٢٥٢/١-٢٥٣ ، ٧/٢ ، ابن هشام ٤٩/١-٥١ ، البيهقي ٥٧/١ .

(٢) البيهقي ٥٩/١ .

(٣) سورة الفيل : آية ٣-٥ .

مثل صغار العصافير السوداء ، أو أن المراد بها جراثيم الوباء ، أو أنه وباء لا ندري عنه شيئاً فتلك بجيش أبرهة ، أو أنه بالتحديد مرض الجدري قد فتك بالجنود وقائدهم ، أو أنه الجدري والحصبة معاً^(١) ، فالنتيجة واحدة ، لا تتغير بصحة سبب ، وعدم صحة آخر ، فشل ذريع لحملة ظلوم ، من طاغية غشوم ، أراد بالبيت الحرام سوءاً ما بعده سوء ، فحمى الله بيته ، وأهلك عدوه حتى إن المراجع تكاد تجمع على أن أبرهة لم يبلغ صنعاء ، إلا بعد جهد جهيد ، وهناك مات مشيعاً بلعنات العرب من كل أنحاء شبه الجزيرة العربية ، ومقدماً في الوقت نفسه العبرة ، لكل ظالم جبار تسوّل له نفسه أن يفكر في الاعتداء على بيت الله الحرام وآله .

وكان من نتائج الحملة أن علت مكانة عبد المطلب الأدبية والدينية علواً كبيراً ، حتى كانت قريش تقول بعد ذلك : « عبد المطلب إبراهيم الثاني » ، كما علت في الوقت نفسه ، مكانة قريش بين القبائل العربية ، وقالت العرب عنهم « أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم »^(٢) ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الحادث الجلل ، في سورة كاملة ، هي سورة الفيل ، يقول عزّ من قائل : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول »^(٣) .

وهكذا كانت حملة أبرهة فاتحة عهد جديد في تاريخ حياة العرب القومية^(٤) ، حتى إنهم اعتبروها مبدأ تقويم يؤرخون به الأحداث ، فكانت قريش تؤرخ بعام

(١) ابن هشام ٥٢/١ - ٥٥ ، مروج الذهب ١٠٥/٢ ، تفسير البيضاوي ٢٦٩/١ ، تفسير ابن كثير ٥٠٧/٨ - ٥٠٩ ، البيهقي ٦٢/١ - ٦٦ ، تفسير الجلالين ص ٥٥٠ ، تفسير القرطبي ص ٧٢٨٢ - ٧٢٨٣ ، ٧٢٨٦ - ٧٢٩٠ ، ابن سعد ٥٦/١ ، تفسير الرازي ٩٦/٣١ ، تفسير النيسابوري ١٦٥/٣٠ ، الطبري ١٣٦/٢ - ١٣٩ ، محمد عبده : تفسير جزء عم ص ١٢١ - ١٢٢ في ظلال القرآن ٦٦٦/٨ - ٦٧٥ ، يوسف أحمد : المحمل والحج ص ٧٧ ، الرحلة الحجازية ص ١٢٩ ، حياة محمد ص ١٠٢ ، كتاب التيجان ص ٣٠٣ .

(٢) ابن هشام ٥٧/١ .

(٣) سورة الفيل .

(٤) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ٧٦/١ .

الفيل^(١) ، كما أن هذه الهزيمة المنكرة لأبرهة جعلت الحبشة لا تفكر بعد هذا الحادث في القيام بعمل عسكري ضد مكة ، بخاصة وأن القوم في اليمن سرعان ما لبشوا أن استعانوا بالفرس وطرّدوا الأحباش من بلادهم ، ومن ثم فإننا نرى العلاقات بين الحبشة والعرب في مكة على أيام البعثة النبوية الشريفة طيبة ، بل إننا نعرف أن مولانا وسيدنا رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - كان على علاقة طيبة بالنجاشي - والذي يرى فيه المؤرخون الإسلاميون « عم أصحمة » ، بينما يراه المحدثون من المؤرخين « أرماع الثاني » أو « أرمحه » ، ومن ثم فإنهم يرون أن أصحمة ، إنما كان حاكماً على إقليم من أقاليم الحبشة^(٢) - وعلى أي حال ، فإن النجاشي قد أكرم وفادة المسلمين الذين هاجروا إلى بلاده ، فراراً من الاضطهاد في مكة ، والأمر كذلك بالنسبة للعلاقة مع قريش التي أرسلت سفارة قابلت النجاشي ، وفاوضته في رد هؤلاء المهاجرين^(٣) .

بقي أن نشير إلى أن تاريخ حملة أبرهة هذه موضع خلاف بين المؤرخين ، فهو عام ٥٥٢م على رأي^(٤) ، وعام ٥٦٣م على رأي آخر^(٥) ، وكلاهما يخالف المعهود من أن الحملة إنما كانت في عام ٥٧٠ أو ٥٧١م ، وهو ما نرجحه ، طبقاً لدراسة محمود باشا الفلكي ، التي أثبت فيها أن مولد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، - وقد كان في عام الفيل - إنما كان في يوم الإثنين ٩ ربيع الأول ، (٢٠ أبريل عام ٥٧١م)^(٦) .

(١) الأزرقي ١٠٢/١ .

(٢) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ٧١-٧٢ ، رحلة صادق باشا المؤيد إلى الحبشة ، ترجمة رفيق العظم ص ١٨٦ وكذا

(٣) زاد المعاد ٧٥/٢ ، ابن الأثير ٧٦/٢-٨٢ ، الطبري ٣٢٨/٢-٣٣٥ ، ابن هشام ٣٢١/١-٣٤١ ، ابن سعد ١٣٦/١-١٣٩ ، حياة محمد ص ١٠٢ وكذا O'leary, op. cit., P. 184.

(٤) Le Museon, 1965, 3-4, P. 427-28.

(٥) Ibid, P. 427.

(٦) محمود باشا الفلكي : التقويم العربي قبل الإسلام ، وتاريخ ميلاد الرسول وهجرته - صلى الله عليه وسلم - القاهرة ١٩٦٩ ص ٣٣-٣٤ وانظر عن تواريخ أخرى (الصفحة التالية)

خامساً : العرب واليونان :

ربما كنا لا نعرف شيئاً حتى الآن عن العلاقات بين العرب واليونان ، فيما قبل أيام الإسكندر الأكبر (٣٥٦-٣٢٣ ق.م) ، ويكاد العلماء يتفقون على أن الرجل قد فكر جدياً في الاستيلاء على بلاد العرب ، وإن كانوا يختلفون في الأسباب التي دعتهم إلى ذلك ، ولعل أهم هذه الأسباب - طبقاً للآراء المختلفة - إنما كان (أولاً) أن معظم القبائل العربية لم ترسل من قبلها رسلاً ترحب به وتعلن الولاء له وتقدم الهدايا ، وكان (ثانياً) رغبة الإسكندر في الاستيلاء على أرضين جديدة^(١) ، وأما (ثالثاً) فهي رغبة الفاتح المقدوني في أن يكون الإله الثالث للعرب - بجانب أورانوس وديونيسوس اللذين سمع أن العرب يعبدونهما ، فضلاً عن عبادة الكواكب ، وخاصة الشمس^(٢) ، وأما رابع الأسباب ، فهو إتمام الطريق البحري الممتد من الهند إلى مصر ، بالكشف عن القطاع الواقع بين مصر ومدينة بابل ، والطواف حول شواطئ بلاد العرب ، كمرحلة تمهيدية ، أغلب الظن للقيام بكشوف بحرية أخرى على نطاق أوسع في المستقبل^(٣) ، وأخيراً (خامساً) الرغبة في الحصول على حاصلات بلاد العرب الثمينة - وبخاصة البخور - ثم الاستيلاء على مرافئ بلاد العرب ، التي يمكن استغلالها كموانئ للأسطول المقدوني ، فضلاً عن إنشاء موانئ جديدة ، وبذا يمكن السيطرة على التجارة العالمية ، والتي كانت بلاد العرب - والجنوبية بالذات - تقوم بالدور الأساسي فيها .

وأياً ما كان السبب ، وسواء أكان الإسكندر أراد أن يضم بلاد العرب إلى

R. Blachere, le Probleme de Mahomet, Paris, 1952, P. 15. =

H. Lammens, L'Age de Mahomet et la Chronologie de la Sira, JA, 17, 1911, P. 209-250.

(١) جواد علي ٥/٢ وكذا

Harvey, The Oxford Companion to Classical Literature, P. 51.

(٢) جواد علي ٦/٢ .

(٣) و. تارن : الإسكندر الأكبر ص ١٨٥-١٨٦ .

امبراطوريته الواسعة ، أو أنه لم يكن يقصد أن يجعل منها ولاية يحكمها « ستراب » ، وإنما كان يهدف إلى الإفادة منها اقتصادياً فحسب ، سواء عن طريق استغلال موانئها ، أو الاستيلاء على حاصلاتها ، فإن الرجل سرعان ما بدأ يتخذ الخطوات الجادة لتنفيذ مشروعه ، ومن ثم فقد ابتنى عدداً قليلاً من السفن الحربية الكبرى ، بما في ذلك المراكب ذات الطبقات الخمس من المجدفين ، وهي المعروفة باسم « Quinqueremes » فجهزت قطاعات من هذه السفن في فينيقيا ونقلت إلى « تابساكوس » حيث جرى تعويمها في الفرات (١) .

كانت معرفة الإسكندر بأحوال بلاد العرب — فيما عدا المناطق المتاخمة منها لبابل وسورية — ضئيلة ، ورغم أن هناك من يرى أن الإسكندر كان ينوي أن يرافق أسطوله في حملته هذه ، إلا أن الرجل قد قضى في الثالث عشر من يونية عام ٣٢٣ ق.م. قبل أن يقوم الأسطول بحملته المرجوة ، فهناك ما يشير إلى أن « ينارجوس » قد اكتشف رأس مصندام ، ولكنه ظنه جزيرة ، ونظراً لجهله بمدى اتساعها ، فإنه حاول كمرحلة تمهيدية أن يطوف حول شواطئها من كلا الجانبين (٢) ، ومن ثم فقد أرسل من مصر حملة — بقيادة أناكسيكراتيس — للطواف حول شبه الجزيرة العربية ، كالحملة التي بعث بها من أرض الجزيرة ، وقد عادت بعثة مصر أدراجها بعد أن بلغت مضيق باب المندب (٣) ، ووصلت إلى اليمن ، وسمعت عن حضر موت ، كما أرسل ثلاث سفن من الطراز المعروف باسم « Triakontors » للمسير جنوباً في الخليج الفارسي ، واكتشفت إحدى سفنه جزيرة البحرين (٤) .

(١) نفس المرجع السابق ص ١٨٦ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٨٦ .

(٣) فضلو حوراني : المرجع السابق ص ٥٥ .

(٤) و. تارن : المرجع السابق ص ١٨٦ ، وكذا

وكانت التعليمات لدى « هيرون » تقضي بأن يطوف حتى السويس ، على أن « أربان » لم يذكر لنا المكان الذي وصله « هيرون » ، ويظن « أرنولد ولسن » أنه لم يتجاوز موضع « ماكيتة » - وهو موضع رأس الخيمة ، أي رأس مصندام - كما يسميه الأوريون ، وهو « مونس أسيو » عند « بليني » أي رؤوس الجبال^(١) .

وأياً ما كان الأمر ، فإن المشروع سرعان ما توقف بعد موت الإسكندر ، وتقسيم إمبراطوريته بين قواده الذين جهد الواحد منهم في الحصول على النصيب الأوفر من الإمبراطورية المقدونية ، وهكذا انتهى الأمر ، بأن أصبحت مصر من نصيب بطليموس ، وبابل من نصيب سلوقس ، وآسيا الصغرى من نصيب أنتيجونوس ، ومقدونيا من نصيب أنتيباتر^(٢) ، وقد سبق لنا الحديث عن علاقة البطالة بالعرب ، إبان الحديث عن العلاقات العربية المصرية .

A. Wilson, The Persian Gulf, 1928, P. 40, 43.

(١)

(٢) عن الظروف التي أحاطت بدولة الإسكندر عقب وفاته وتقسيم إمبراطوريته بين قواده ، انظر : لطفي عبد الوهاب : دراسات في تاريخ مصر - ج ١ - عصر البطالة ص ٨٥-٩٤ ، مصطفى العبادي : المرجع السابق ص ٢٨-٤٤ ، إبراهيم نصحي : تاريخ مصر في عصر البطالة ج ١ ص ٤٥ وما بعدها ، تاريخ الحضارة المصرية - المجلد الثاني ص ٤-٨ .

سادساً : العرب والرومان :

ومرت الأيام وأخذت الأمبراطورية المقدونية تضعف بالتدريج ، وفي نفس الوقت بدأ نجم الرومان يعلو ، وهكذا بدأ حكام روما ينتهزون فرصة ضعف خلفاء الإسكندر وانحلال الأمبراطورية التي أنشأها ، وأخذوا يقطعون أوصالها ، فاستولوا على مقدونيا وجزر اليونان وآسيا الصغرى ، وفي عام ٦٤ ق.م ، نجح بومبي في أن يضم الشام إلى أملاك روما ، ومن ثم بدأ اتصال الروم بالعرب وبالأعراب الذين كانوا قوة لا يستهان بها على أطراف الشام ، وقد بدأت العلاقات أول الأمر بين العرب والروم ودية عند استيلائهم على فلسطين ، فعقد « سكورس » الحاكم الروماني للمقاطعة السورية معاهدة مع الحارث الثالث النبطي ، تعهد فيها الحارث بالمحافظة على الأمن وعلى التعاون مع الروم^(١) ، ونتيجة لهذا الاتفاق قدم الأنباط العون لـ « يوليوس قيصر » ، وهو يهيم بالقبض على ناصية الأمور في الاسكندرية عام ٤٧ ق.م ، فأرسل إليه مالك الأول (٤٧-٣٠ ق.م) نجدة مهمة ساعدته على الخروج من الوضع الحرج الذي كان فيه^(٢) .

وهكذا نجح الروم في فرض سلطتهم على أرض الكنانة ، وسرعان ما بدأوا يفكرون في نفس الشيء بالنسبة إلى بلاد العرب ، ومن ثم فقد كان مشروع حملة « إليوس جالليوس » ، والذي كان الهدف منه ، الاستيلاء على اليمن ، لكثرة خيراتها ، ولاحتكارها طرق النقل التجاري بين العالم ، ولجعل البحر الأحمر بحراً رومانياً ، وللقضاء على المنافسة العربية الجنوبية الخطيرة ، التي كان الملاحون الروم يعملون لها ألف حساب عند اجتيازهم باب المندب ، أو عندما ترسو سفنهم في موانئ بعض تلك المناطق^(٣) ، ولو تم هذا المشروع على نحو ما حلم به « أغسطس » (٣١ ق.م - ١٤ م) ، لكان حكم روما قد بلغ العربية الجنوبية ، وربما سواحل

(١) جواد علي ٤٠/٢ ، وكذا Murry, op. cit., P. 101.

(٢) Die Araber, I, P. 306. وكذا Wissmann and Hofner, op. cit., P. 541.

(٣) جواد علي ٤٣/٢ ، وكذا Pliny, II, 415, 6, 101. وكذا O'leary, op. cit., P. 74.

أفريقية كذلك ، إلا أن سوء تقدير الرومان له ، واستهانتهم بطبيعة بلاد العرب ، وعدم إداخلهم في حسابهم قساوة الطبيعة هناك ، وعدم تمكن الجيوش النظامية من المجابهة فيها ، وتحمل العطش والحرارة الشديدة ، كل هذه الأمور أدت إلى فشل المشروع منذ اللحظة الأولى ، فكانت انتكاسة شديدة في هيبة روما ، وفي مشاريعها التي أرادت تنفيذها في شبه الجزيرة العربية^(١) .

وأقلعت الحملة من مصر عبر جزء شاق من البحر الأحمر ، يمتد من خليج السويس إلى « ليوكي كومي » على الساحل الشمالي الغربي لبلاد العرب ، ويقول « إسترابو » إن الخطأ الأول كان بناء سفن طويلة ، مع أنه لم تنشب ، ولم يكن ينتظر أن تنشب معركة في البحر ، فالعرب ليسوا شديدي الميل إلى الحرب ، وإنما هم في الغالب أصحاب تجارة ، ولا ميل لهم إطلاقاً إلى الحرب في البحر ، وإن كان السبب الحقيقي أن الأنباط وقت ذاك ، إنما كانوا حلفاء للروم ، ولم يكن هناك غيرهم من يستطيع إبداء أية مقاومة في البحر^(٢) .

وأياً ما كان السبب في فشل خطة نقل الجنود إلى ليوكي كومي ، فإن « إسترابو » سرعان ما يعود ، فيعزو إلى صالح - الوزير النبطي - هذا الفشل ، الذي غش - على زعمه - إليوس جالديوس ، فأعلمه بتعذر الوصول برأ ، لعدم وجود عدد كاف من الجمال ، ولعدم وجود طرق برية صالحة لمرور هذا الجيش ، وقد أراد بذلك إضعاف الروم وإذلالهم ، وإضعاف القبائل ليتصرف في الموقف ، طبقاً لرغباته - بعد أن يكون قد أصبح سيده^(٣) .

وبدأت الحملة سيرها نحو اليمن من « Egra » (أو Negra) - وهو موضع ما يزال موضع خلاف بين العلماء ، فهو « ينبع » على رأي فورستر^(٤) ، وهو « عويند » على رأي « سيرنجر »^(٥) ، وهو « مدائن صالح » فيما يرى فليبي^(٦) ،

(١) جواد علي ٤٣/٢-٤٤ ، أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٤١ .

(٢) فضلو حوراني : المرجع السابق ص ٧٨-٧٩ .

(٣) جواد علي ٥/٢ و ٤ و ١٢٤-٩٣. P. cit., J. Pirenne, op. cit., و ٢٣-٢٤ Strabo, XVI, IV, 23-24.

(٤) C. Forster, op. cit., P. 293.

(٥) E. Glaser, op. cit., 2, P. 63.

(٦) J.B. Philby, op. cit., P. 101.

— وإن كان هذا يتعارض مع إسترابو من أن « Egra » في أرض عبادة ملك الأنباط ،
وأنها على ساحل البحر^(١) — ، وهو « الحجر » في رأي آخر ، على أساس أنها كانت
متصلة بميناء عرف باسمها كذلك — كما عرف ميناء مدين باسمها — وأن هذا الميناء
إنما هو « الوجه » الحالية^(٢) .

ونعرف من وصف « إسترابو » ما تعرض له جنود الروم من صعاب ، مات
بسببها الكثير ، وإن استطاعت الحملة أن تحدث بعض الخراب والدمار في نجران
ونشق ، وكنناء ومأرب ولوق وربما حريب — وهي أبعد مدينة وصلتها الحملة — ،
وإن عاد إسترابو فزعم أن الحملة قد وصلت مدينة « شهر » — على مسيرة ستة أيام
من نجران — وهناك دارت رحى معركة بين العرب والروم عند نهر قد يكون هو
« غيل خارد » ، الذي يجري في الجوف^(٣) ، ويذكر إسترابو كذلك أن « إليوس
جالليوس » قد حاصر مدينة « مرسيايا » — وهي فيما يرى البعض مأرب سبأ — وعلى
أي حال ، فإن خط سير الحملة ، كما قدمه لنا إسترابو ، غير واضح ، وإن كان
أبرز الأسماء التي ذكرها ، إنما كان « Negrani » (Negrana) ، وهي نجران ،
فيما يرى أغلب الباحثين^(٤) .

وتنتهي الحملة بالفشل ، ويقرر قائدها العودة بالبقية الباقية من جيشه إلى مصر^(٥) ،
وبذا تطوى صفحة أول — بل وآخر — غارة ذات بال ، قصدت بها دولة أوربية
اكتساح داخل بلاد العرب^(٦) ، ويزعم إسترابو — مؤرخ الحملة ، وربما أحد الذين
شاركوا فيها — أن هزيمة روما إنما كانت بسبب خيانة « سيليثوس » (صالح) مرشد
الحملة ، ومن ثم فقد اتهم بتضليل الجيش ، والسير به في طريق مقفر ، وبأرض لا

(١) Strabo, III, P. 213.

(٢) Die Araber, I, P. 97 وكذا JEA, 15, P. 17.

(٣) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٣٠٠-٣٠١ .

(٤) J. Pirenne, op. cit., P. 112 وكذا O'leary, op. cit., P. 78.

(٥) Strabo, 16, IV, 24.

(٦) P.K. Hitti, op. cit., P. 46.

زرع فيها ولا ماء ، متعمداً لإهلاك الجيش وإخفاق الحملة ، ومن ثم فقد حكم عليه بالإعدام^(١) ، وليس من شك في أن إسترابو لم يكن مصيباً فيما ذهب إليه ، كما أنه لم يكن مصيباً فيما ذكره عن إحدى المعارك التي دارت رحاها بين العرب والروم ، وأن الأولين قد تكبدوا فيها عشرة آلاف قتيل ، بينما لم تكن خسائر الروم فيها غير اثنين^(٢) ، ولست أدري كيف فات إسترابو أن أحداً لن يصدق زعمه الكذوب هذا .

بقيت نقطة أخيرة ، تتصل بصمت المصادر العربية الجنوبية عنها تماماً ، وقد تساءل « إدوارد جلازر » عن سبب ذلك ، ثم ذهب إلى أنها لا بد وأن تكون قد تركت أثراً بعيد المدى في نفوس السبئيين — بل وفي غيرهم من قبائل اليمن والحجاز — ثم رأى بعد ذلك أن نص (هاليقي ٥٣٥) إنما يتحدث عن حرب دارت رحاها بين « ذسمت » و « ذيمنت » ، وربما كان المراد بالأولين الرومان ، وبالأخريين السبئيين ، ومن ثم فإن النص إنما يتحدث عن حملة إليوس جاليوس هذه ، على أن الدكتور جواد علي إنما يستبعد هذا الرأي ، وربما كان سر الحملة ما يزال بعد تحت التراب ، وإن الحفريات قد فشلت في العثور على شيء يتصل بها ، كما فشل كل من هاليقي وفليبي في العثور على شيء يميظ اللثام عنها^(٣) .

وأياً ما كان الأمر ، فإن من نتائج هذه الحملة الفاشلة ، أن بدأ الروم يغيرون سياستهم نحو العربية الجنوبية ، فتخلوا نهائياً عن السيطرة العسكرية ، وإن اتجهوا في الوقت نفسه نحو تقوية أسطولهم في البحر الأحمر ، ويقول إسترابو إنهم كانوا يرسلون سنوياً ما لا يقل عن ١٢٠ سفينة إلى الهند ، وهو عدد لم يتعودوا إرساله فيما مضى ، كما عثر في الهند على نقود رومانية ، أضف إلى ذلك أن وجود معبد لأغسطس

O'leary, op. cit., P. 75 وكذا EI, 3, P. 801 وERE, 9, P. 121.

Strabo, 16, IV, 24.

(٣) جواد علي ٥٨/٢ وكذا

J.B. Philby, op. cit., P. 32

في « موزيريس » بساحل « مالابار » يدل على أن عدداً غير قليل من التجار اليونان والرومان كان يقيم هناك^(١) .

هذا وقد عمل الروم في نفس الوقت على تحسين علاقاتهم بالعربية الجنوبية ، ومن ثم فقد عقدوا محالفة مع ملك ظفار ، وإن كان البعض يذهب إلى أن الروم قد استأنفوا — بعد حملة إليوس جالليوس — محاولة السيطرة على بلاد العرب الجنوبية ، فاحتلوا ميناء عدن في أثناء حكم « كلاوديوس » (٤١-٥٤ م) أو قبله ، وهكذا كان التحالف مع أمير ظفار الحميري ، مقرونًا بوجود حامية رومانية في عدن ، أمراً لا شك في أنه كان ضماناً كافياً لسلوك العرب الجنوبيين مسلکاً طيباً ، يضمن للروم نفوذاً تجارياً في عدن^(٢) ، وإن كان الروم دون شك لم يحتلوا جنوبي شبه الجزيرة العربية في يوم من الأيام^(٣) .

أما سياسة الروم نحو شمال بلاد العرب ، وخاصة الأنباط ، الذين قدموا لهم كل عون في بسط نفوذهم على مصر ، وفي حملة إليوس جالليوس الآتفة الذكر ، فقد كان نوعاً من نكران الجميل ، إذ أرسل « تيبيريوس » (١٤-٣٧ م) حملة على « البتراء » ، باءت بالفشل ، إلا أن المحاولة سرعان ما تكررت مرة أخرى على أيام « تراجان » ، انتهت بالاستيلاء على البتراء في عام ١٠٦ م ، وضم دولة الأنباط إلى الإمبراطورية الرومانية^(٤) .

وكانت آخر أعمال روما العسكرية في بلاد العرب ، تلك الحملة التي أرسلها « سبتيموس سيفيروس » (١٩٣-٢١١ م) عام ٢١٠ م ، إلا أننا لا ندرى عنها شيئاً ذا بال ، وإن كنا نعلم أنها قد وصلت العربية الجنوبية على رأي ، واقتصرت على ديار ثمود على رأي آخر ، وإن لم تحقق نجاحاً مذكوراً في أي الحالين^(٥) .

(١) فضلو حوراني : المرجع السابق ص ٧٥ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٧٩-٨٠ .

(٣) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٤٢ .

(٤) N. Glueck, the Story of the Nabataeans, P. 543 وكذا E. Gibbon, op. cit., P. 214. (٤)

(٥) جواد علي ٦٦/٢-٦٧ وكذا CAH, 12, 1939, P. 9, 16. وكذا Die Araber, I, P. 44, 2, P. 62 (٥)

على أن الموقف جد مختلف بالنسبة إلى التدمريين ، فليس من شك في أنه لا توجد إمارة عربية كتب لها ما كتب لتدمر في تحقيق سياستها ضد الرومان ، وإن كان ذلك إلى حين ، ونقرأ في الوثائق أن «أذينة» (أودينات Odenathus) ملك تدمر كاد أن يكون هو أمل الروم في إنقاذ «فالريان» (٢٥٣-٢٦٠ م) من الأسر الفارسي ، بعد هزيمة مخجلة للجيش الرومي قرب «أديسا» عام ٢٦٠ م ، كسب الفرس من ورائها شهرة عريضة ، فضلاً عن أسر ستين ألفاً من جنود الرومان ، إلى جانب الاستيلاء على آسيا الصغرى وشمال سورية^(١) ومن ثم فقد خرج أذينة على رأس جيشه ، حيث دارت رحى الحرب بينه وبين الفرس في معركة ضارية ، انتهت بهزيمة منكرة للفرس ، وصل مداها إلى أن يترك الملك الفارسي حريمه وأمواله غنيمة في أيدي التدمريين ، وإلى أن يطارده أذينة حتى أسوار عاصمته ، وإن لم ينجح في فك أسر فالريان ، ولكنه استولى على الكرخ ونصيبين ، كما مد نفوذه إلى الشام وبعض الأقاليم الرومانية في آسيا الصغرى^(٢) ، وما إن يمضي حين من الدهر ، حتى يعيد أذينة الكرة ضد الفرس ، ويضرب الحصار حول «طيسفون» في عام ٢٦٤ م ، ويكاد العاهل الفارسي أن يستسلم لسيد تدمر ، لولا أن المؤامرات الرومانية لعبت دوراً خطيراً في إفساد نجاح أذينة ، ثم قتله في أحوال غامضة عام ٢٦٦ م^(٣) .

وجاءت الزباء (زنوبيا = بيت زباي) إلى العرش وصية على ولدها القاصر «وهب اللات» ، وتصل إمارة تدمر في عهدها (٢٦٦-٢٧٣ م) إلى قمة مجدها ، وقد أدركت المرأة العظيمة بفتنتها السياسية ، أن العدو الحقيقي لتدمر ، إنما هو الرومان ، ومن ثم فقد بدأت تتقرب إلى العناصر العربية المستوطنة في المدن ، فضلاً عن الأعراب الذين كانت ترى أنهم عمادها في القتال ، ويبدو أن الروم كانوا على علم بما يدور وراء الكواليس في قصر الزباء ، ومن ثم فقد أرسلوا «جالينو»

(١) آرثر كريستنس : المرجع السابق ص ٢١٠-٢١٢ ، وكذا A. Musil, Palmyrena, P. 247

(٢) فيليب حتي : المرجع السابق ص ٤٣٧ ، وكذا W. Wright, op. cit., P. 118-120.

(٣) فيليب حتي : المرجع السابق ص ٤٣٨ ، وكذا

E. Gibbon, op. cit., P. 263 وكذا P.K. Hitti, op. cit., P. 76

(٢٦٠-٢٦٨ م) بجيش جرار ، يبغي به القضاء على الزباء ، ولكنه هزم^(١) .

ويبدو أن هذا النصر قد شجع الزباء على أن ترنو بتناظرها إلى أرض الكنانة ، فأذاغت بين الناس - إن صدقاً أو كذباً - أنها مصرية ، ثم سرعان ما انتهزت فرصة مقتل جالينو عام ٢٦٨ م وتولية كلوديوس (٢٦٨ - ٢٧٠ م) ، وهجوم الألمان والقوط على القسم الغربي من الإمبراطورية الرومانية ، فأرسلت بجيش قوامه سبعون ألف رجل إلى مصر ، وهناك دارت معركة رهيبة ، انتهت بنصر مابين للجيش العربي ، والمصرية التي انضمت إلى جيش الزباء ، وبضم مصر إلى دولة زنوبيا ، وإن تجدد القتال مرة أخرى في معارك ضارية ، لعل أخطرها تلك التي دارت حول حصن بابلين ، ولعب فيها عرب مصر من سكان المناطق الشرقية أخطر الأدوار .

على أن اتفاقاً سرعان ما عقد بين الزباء والرومان يجعل حكم مصر مشتركاً بينهما^(٢) ، ذلك أن الإمبراطور الروماني « أورليان » قد أدرك عندما تولى العرش مدى خطورة تلك المرأة العربية ، ومن ثم فقد لجأ إلى أعمال السياسة في مواجهة خطرها ، فاعترف بولدها « وهب اللات » شريكاً له في الحكم ، وصدرت العملة في الاسكندرية تحمل صورة الإمبراطورين على الوجهين ، ولكن ما إن يمضي عام واحد ، حتى ترفض الزباء أن يشاركها الرومان حكم الكنانة ، ومن ثم فإنها تعلن ولدها إمبراطوراً ، وتصدر العملة في الإسكندرية تحمل صورة وهب اللات وأمه زنوبيا^(٣) .

وتمضي الملكة العربية العظيمة أيامها من نصر إلى نصر ، وتمدد سلطانها على الشام ومصر وآسيا الصغرى ، ويدرك الرومان أن طموح تلك المرأة القوية لن يقف عند حد ، بخاصة وقد أطلقت على ولدها لقب « أغسطس » - وهو لقب الإمبراطور الروماني - كما أسبغت على نفسها لقب « أغسطا » ، وهنا يصبح الأمر بالنسبة للروم ، أمر حياة

(١) E. Gibbon, op. cit., P. 263. ، وفي الترجمة العربية ص ٢٦٧ .

(٢) CAH, 12, P. 301. وكذا EB, 17, P. 163 وكذا W. Wright, op. cit., P. 137 .

(٣) مصطفى العبادي : المرجع السابق ص ١٩٩ .

أو موت ، ومن ثم يخرج أورليان (٢٧٠-٢٧٥ م) على رأس جيشه للقضاء على الزباء .

وتتعاون قوى الشر ضد زنبوبيا ، وتقف الجاليات اليونانية - فضلاً عن النصراني - ضدها ، وينتهي أمرها في عام ٢٧٣ م ، ولكن بعد أن استطاعت ملكة البادية أن تدق أبواب أوربا ، فتستولي على خلقدونية - مقابل بيزنطة - وأن تشكل لنفسها ولولدها إمبراطورية واسعة ، انتزعتها من بين مخالب النسر الروماني - وهو في قمة مجده - ورغم أنها كانت إمبراطورية قصيرة الأجل ، إلا أنها ومضة تستحق التقدير في تاريخ العلاقات العربية الرومية ، وتسبق إمبراطورية الأمويين بأربعة قرون (١) .

وتمضي السنون ، وتنقسم الإمبراطورية الرومانية إلى شرقية وغربية ، وتتخذ بيزنطة من المسيحية وسيلة لنشر نفوذها في بلاد العرب فتعمل على إرسال البعثات التبشيرية ، كما تنجح في تنصير الحبشة ، ومن ثم فإنها تستطيع أن تؤمن تجارتها هناك ، فضلاً عن بسط نفوذها عن طريق الأحباش أنفسهم ، إلا أنها لم تحاول أن تتدخل في شئون بلاد العرب بطريقة مباشرة ، ومن ثم فقد كانت من وراء حملة أبرهة على مكة ، وحين فشلت هذه ، وطرده الأحباش من اليمن ، لجأت إلى وسيلة أخرى ، إلى تملك سيد من العرب على مكة ، يدين بالولاء لدولة الروم ، ومن ثم فقد ارتضى قيصر الملك مكة رجلاً من ساداتها هو « عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى » ، وكتب له رسالة يبلغها قومه ، فعاد بها وجمع القوم إليه ، يرغبهم في حسن الجزاء من قيصر ، وينذرهم بسوء العاقبة في الشام إذا هم عصوه ، وأهون ما هنالك أن يغلق أبوابها في وجوههم ، وهم يذهبون إليها ويعودون منها كل عام (٢) ، قال « يا قوم ، إن قيصر قد علمتم أمانكم ببلاده ، وما تصيبون من التجارة في كنفه ، وقد ملكني

(١) جواد علي ١١٦/٣ ، فيليب حتي : المرجع السابق ص ٤٤٠ ، وكذا J. Starcky, Palmyre, P. 64 EB, 17, P. 163 وكذا
(٢) عباس العقاد : المرجع السابق ص ١١٤-١١٥ ، محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ١٢٧-١٢٨ .

عليكم ، وأنا ابن عمكم وأحدكم ، وإنما آخذ منكم الجراب من القرظ ، والعكة من السمن والأوهاب ، فاجمع ذلك ، ثم أذهب إليه ، وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام ، فلا تتجروا فيه ، وينقطع مرفقكم منه » (١) .

وليس من شك في أن هذه المحاولة السياسية ، إنما غرضها — كما هو ظاهر — غرض تلك المحاولة العسكرية ، وأن المحاولتين قد فشلتا ، وبقيت مكة — كما أراد الله لها أن تبقى — حرماً آمناً للعرب ، ولغير العرب ، وبذلت قریش في المحاولتين جهدها ، لإخفاق الواحدة تلو الأخرى ، وليس من شك في أن الأولى كانت أشد خطراً ، وإن دفعت في الثانية ببعض رجالها ، يقضون في سجون القيصر ، فترة لا نلري مداها على وجه التحقيق ، ثم سرعان ما عادت الأمور إلى سيرتها الأولى (٢) .

(١) ابن هشام ٢٢٤/١ ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ١٩٠ ، الروض الأنف ١٤٦/١ ، الأغاني ١١٢/٣ .

(٢) أحمد إبراهيم الشريف : المرجع السابق ص ١٦٢-١٦٣ ، السهيلي ١٤٦/١ ، وكذا W. Montgomery Watt, Muhammad at Mecca, Oxford, 1956, P. 16.

المراجع المختارة

أولاً : المراجع العربية :

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - صحيح مسلم .
- ٣ - التوراة .
- ٤ - الدكتور إبراهيم نصحي : دراسات في تاريخ مصر في عهد البطالمة - القاهرة ١٩٥٩ .
- ٥ - الدكتور إبراهيم نصحي : تاريخ الحضارة المصرية - المجلد الثاني - العصر اليوناني الروماني - القاهرة ١٩٦٣ .
- ٦ - ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن) الكامل في التاريخ - الجزء الأول - بيروت ١٩٦٥ .
- ٧ - ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد) جمهرة أنساب العرب - تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة ١٩٦٢ .
- ٨ - ابن سعد (أبو عبدالله محمد بن سعد) الطبقات الكبرى - الجزء الأول - دار التحرير ، القاهرة ١٩٦٨ .
- ٩ - ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري) ، المعارف - القاهرة ١٩٣٤ .
- ١٠ - ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل) البداية والنهاية في التاريخ - الجزء الأول والثاني - القاهرة ١٩٣٢ .
- ١١ - ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل) تفسير القرآن العظيم (ثمانية أجزاء) (طبعة الشعب) - القاهرة ٧١-١٩٧٣ .
- ١٢ - ابن هشام (أبو محمد عبد الملك) سيرة النبي صلى الله عليه وسلم - القاهرة ١٩٥٥ .

- ١٣ - الدكتور أحمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول - القاهرة ١٩٦٥ .
- ١٤ - الدكتور أحمد فخري : اليمن ماضيها وحاضرهما - القاهرة ١٩٥٩ .
- ١٥ - الدكتور أحمد فخري : دراسات في تاريخ الشرق القديم - القاهرة ١٩٦٣ .
- ١٦ - الدكتور أحمد فخري : مصر الفرعونية - القاهرة ١٩٧١ .
- ١٧ - الدكتور أحمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية في مصر - القاهرة ١٩٧٠ .
- ١٨ - الأزرقى (أبو الوليد محمد بن عبدالله) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار - مكة المكرمة ١٣٥٢ هـ .
- ١٩ - الألوسي (السيد محمود شكري) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب (٣ أجزاء) - القاهرة ٢٤-١٩٢٥ .
- ٢٠ - البكري (أبو عبيد ، عبدالله بن عبد العزيز) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع (٤ أجزاء) - القاهرة ٤٥-١٩٥١ .
- ٢١ - البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين) دلائل النبوة - الجزء الأول - القاهرة ١٩٧٠ .
- ٢٢ - الدكتور السيد يعقوب بكر : أوفير - من كتاب العرب والملاحة في المحيط الهندي - القاهرة ١٩٥٨ .
- ٢٣ - السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر) المزهر في علوم اللغة - القاهرة ١٩٤٢ .
- ٢٤ - الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) تاريخ الرسل والملوك - الجزء الأول - القاهرة ١٩٦٠ .
- ٢٥ - الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) تاريخ الرسل والملوك - الجزء الثاني - القاهرة ١٩٦٨ .
- ٢٦ - الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) جامع البيان عن تأويل آي القرآن - دار المعارف - القاهرة .

- ٢٧ - القرطبي (أبو عبدالله محمد بن أحمد) الجامع لأحكام القرآن - دار الشعب - القاهرة ٦٩-١٩٧٠ .
- ٢٨ - الكندي (عمر بن محمد بن يوسف) الولاية والقضاة - بيروت ١٩٠٨ .
- ٢٩ - الكندي (عمر بن محمد بن يوسف) فضائل مصر - تحقيق إبراهيم العدوي ، علي محمد عمر - القاهرة ١٩٧١ .
- ٣٠ - المقرئزي : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق عبد المجيد عابدين - القاهرة ١٩٦١ .
- ٣١ - اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر) تاريخ اليعقوبي - الجزء الأول - بيروت ١٩٦٠ .
- ٣٢ - المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين) مروج الذهب ومعادن الجوهر (جزءان) - بيروت ١٩٧٣ .
- ٣٣ - الدكتور جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية - الإسكندرية ١٩٦٧ .
- ٣٤ - الدكتور جمال حمدان : اليهود أنثروبولوجيا - القاهرة ١٩٦٧ .
- ٣٥ - الدكتور جمال حمدان : شخصية مصر - القاهرة ١٩٧٠ .
- ٣٦ - الدكتور جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - الجزء الأول - بيروت ١٩٦٨ .
- ٣٧ - الدكتور جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - الجزء الثاني والثالث - بيروت ١٩٦٩ .
- ٣٨ - حبيب سعيد : المدخل إلى الكتاب المقدس - القاهرة .
- ٣٩ - الدكتور حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي - الجزء الأول - القاهرة ١٩٦٦ .
- ٤٠ - الدكتور حسن ظاها : الساميون ولغاتهم - القاهرة ١٩٧١ .
- ٤١ - الدكتور حسن ظاها : الصهيونية العالمية وإسرائيل - القاهرة ١٩٧١ .
- ٤٢ - سيد قطب : في ظلال القرآن - المجلد الثامن - بيروت ١٩٦٧ .

- ٤٣ - الدكتور صلاح الدين الشامي : الموانى السودانية - القاهرة ١٩٦١ .
- ٤٤ - عباس محمود العقاد : إبراهيم أبو الأنبياء - دار الهلال - القاهرة .
- ٤٥ - عباس محمود العقاد : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين - القاهرة ١٩٦٠ .
- ٤٦ - عباس محمود العقاد : مطلع النور - القاهرة ١٩٦٨ .
- ٤٧ - الدكتور عبد الحميد زايد : الشرق الخالد - القاهرة ١٩٦٦ .
- ٤٨ - الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري : لمحات عن بعض المدن القديمة في شمالي غربي الجزيرة - مجلة الدارة - العدد الأول - الرياض ١٩٧٥ .
- ٤٩ - الدكتور عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها - الجزء الأول - القاهرة ١٩٦٢ .
- ٥٠ - الدكتور عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم - الجزء الأول - القاهرة ١٩٦٧ .
- ٥١ - عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب - دار الفكر العربي - القاهرة .
- ٥٢ - الدكتور عبد المنعم عبد الحليم : علاقات مصر القديمة ببلاد بونت ونشاطها في البحر الأحمر - الإسكندرية ١٩٦٨ .
- ٥٣ - الدكتور عبد المنعم عبد الحليم : دراسة تاريخية للصلات والمؤثرات الحضارية بين حضارة مصر الفرعونية وحضارات البحر الأحمر - الإسكندرية ١٩٧٣ .
- ٥٤ - الدكتور عبد المنعم عبد الحليم : محاولة لتحديد موقع بونت - الإسكندرية ١٩٧٤ .
- ٥٥ - الدكتور فؤاد حسنين علي : التاريخ العربي القديم - القاهرة ١٩٥٨ .
- ٥٦ - الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور : معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم - الإسكندرية ١٩٦٨ .
- ٥٧ - الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور : معالم حضارة الشرق الأدنى القديم - الإسكندرية ١٩٦٩ .
- ٥٨ - الدكتور محمد بيومي مهران : الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعنة - الإسكندرية ١٩٦٦ .

- ٥٩ - الدكتور محمد بيومي مهران : مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث - الإسكندرية ١٩٦٩ .
- ٦٠ - الدكتور محمد بيومي مهران : التقاوة الجنسية عند اليهود - مجلة الأسطول - العدد ٦٨ - الإسكندرية ١٩٧١ .
- ٦١ - الدكتور محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم الجزء الثاني ، إسرائيل - القاهرة ١٩٧٣ .
- ٦٢ - الدكتور محمد بيومي مهران : الساميون والآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي - مجلة كلية اللغة العربية - العدد الرابع - الرياض ١٩٧٤ .
- ٦٣ - الدكتور محمد بيومي مهران : حركات التحرير في مصر القديمة - دار المعارف - الإسكندرية ١٩٧٦ .
- ٦٤ - الدكتور محمد حسين هيكل : حياه محمد - القاهرة ١٩٦٥ .
- ٦٥ - الأستاذ الإمام محمد عبده : تفسير جزء عم - دار الشعب - القاهرة ١٩٥٧ .
- ٦٦ - الدكتور محمد عبد القادر محمد : الساميون في العصور القديمة - القاهرة ١٩٦٨ .
- ٦٧ - محمد عزة دروزة : تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم - بيروت ١٩٦٩ .
- ٦٨ - محمود باشا الفلكي : التقويم العربي قبل الإسلام - القاهرة ١٩٦٩ .
- ٦٩ - الدكتور مصطفى العبادي : مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي - القاهرة ١٩٦٦ .
- ٧٠ - مصطفى كامل الشريف : عروبة مصر من قبائلها - القاهرة ١٩٦٥ .
- ٧١ - الدكتور مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة في العصور الوسطى - القاهرة ١٩٦٠ .
- ٧٢ - مطهر علي الإرياني : في تاريخ اليمن - القاهرة ١٩٧٣ .
- ٧٣ - الدكتور نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم - الجزء الأول - الإسكندرية ١٩٦٦ .

- ٧٤ - الدكتور نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم - الجزء الخامس - الإسكندرية ١٩٦٣ .
- ٧٥ - ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبدالله) : معجم البلدان (خمسة أجزاء) - بيروت ٥٥-١٩٥٧ .
- ٧٦ - دائرة المعارف الإسلامية - دار الشعب - القاهرة ٦٩-١٩٧٠ .
- ٧٧ - قاموس الكتاب المقدس - الجزء الأول - بيروت ١٩٦٤ .
- ٧٨ - قاموس الكتاب المقدس - الجزء الثاني - بيروت ١٩٦٧ .
- ثانياً : المراجع المترجمة إلى اللغة العربية
- ٧٩ - إدوارد جييون : اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، ترجمة محمد علي أبو ريده - القاهرة ١٩٦٩ .
- ٨٠ - آرثر كريستنسن : إيران في عهد الساسانيين ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب - القاهرة ١٩٥٧ .
- ٨١ - جورج فضلو حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ترجمه وزاد عليه الدكتور السيد يعقوب بكر - القاهرة ١٩٥٨ .
- ٨٢ - ديتلف نلسن وآخرون : التاريخ العربي القديم ، ترجمه وزاد عليه الدكتور فؤاد حسنين - القاهرة ١٩٥٨ .
- ٨٣ - رينيه ديسو : العرب في سوريا قبل الإسلام ، ترجمه عبد الحميد الدواخلي - القاهرة ١٩٥٩ .
- ٨٤ - سبتيو موسكاتي : الحضارات السامية القديمة ، ترجمه وزاد عليه الدكتور السيد يعقوب بكر - القاهرة ١٩٦٨ .
- ٨٥ - سبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ، ترجمة الدكتور حسن حنفي - القاهرة ١٩٧١ .
- ٨٦ - فيليب حتي : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين - الجزء الأول - ترجمة جورج حداد ، عبد الكريم رافق - بيروت ١٩٥٨ .
- ٨٧ - و. و. تارن : الإسكندر الأكبر ، ترجمة زكي علي - القاهرة ١٩٦٣ .
- ٨٨ - يوسف يوسف : تاريخ يوسفوس - طبعة دار صادر - بيروت .

ثالثاً : المراجع الأجنبية :

- 89 — Abbot, (N.), Pre-Islamic Arab Queens, AJSL, 58, 1941.
- 90 — Albright, (W.F.), The Chronology of Ancient South Arabia in the Light of The First Campaign of Excavation in Qataban, in BASOR, 119, 1950.
- 91 — Albright, (W.F.), The Chaldaean Inscriptions in Proto-Arabic Script, in BASOR, 128, 1952.
- 92 — Albright, (W.F.), New Light on Early Recensions of the Hebrew Bible, in BASOR, 140, 1955.
- 93 — Albright, (W.F.), The Early Alphabet Inscriptions from Sinai and their Decipherment, BASOR, 110, 1948.
- 94 — Altheim, (F.) and Stiehl, (R.), Die Araber in der Alten Welt, Berlin, 1964.
- 95 — Ammar, (A.), The People of Sharqiye, I, Cairo, 1944.
- 96 — Aymard, (A.), Les Premières Civilisations, I, Paris, 1950.
- 97 — Barton, (G.A.), Semitic and Hamitic Origins, London, 1934.
- 98 — Beek, (G.W.Van), Recovering The Ancient Civilization Arabia, 1952.
- 99 — Beeston, (A.F.L.), Notes on the Muraighan Inscriptions, in BASOR, 1954.
- 100 — Belgrave, (J.H.D.), Welcome to Bahrain, London, 1965.
- 101 — Belgrave, (J.H.D.), Central Arabia, I, London, 1966.
- 102 — Bell, (R.), The Origin of Islam in its Christian Environment, London, 1926.
- 103 — Bottero (J.), The First Semitic Empire, in The Near East, The Early Civilizations, London, 1967.
- 104 — Branden, (A. Van den.), Les Textes Thamoudeens de Philby, II, Louvain, 1956.
- 105 — Branden, (A. Van den.), Histoire de Thamoud.
- 106 — Breasted, (J.H.), Ancient Records of Egypt, IV, Chicago, 1907.
- 107 — Breasted, (J.H.), A History of Egypt, from the Earliest Times to Persian Conquest, N.Y., 1946.
- 108 — Gadd, (C.J.), The Harran Inscriptions of Nabonidus, Anatolian Studies, 8, 1958.

- 109 — Budge, (E.A.W.), A History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia, I, London, 1928.
- 110 — Budge, (E.A.W.), The Gods of the Egyptians, 2, London, 1904.
- 111 — Burn, (A.R.), Persia and the Greeks.
- 112 — Burton, (R.F.), The Gold Mines of Midian and the Ruined Midianite Cities, London, 1878.
- 113 — Caussin de Perceval Essai sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme, I, Paris, 1847.
- 114 — Clark, (J.D.), Prehistoric Culture of the Horn of Africa.
- 115 — Conelbeaux, (J.B.), Histoire de l'Abyssinie, I.
- 116 — Cook, (S.A.), Israel and the Neighbouring States, in CAH, 3, Cambridge, 1965.
- 117 — Cooke, (G.A.), A Text-Book of North-Semitic Inscriptions, Oxford, 1907.
- 118 — Cowley, (A.E.), The Origin of the Semitic Alphabet, JEA, 3, 1916.
- 119 — Culican, (W.), The Medes and Persians, London, 1965.
- 120 — Diringer, (D.), The Alphabet, A Key to the History of Mankind, London, 1947.
- 121 — Dougherty, (R.P.), Nabonidus and Belshazzar, New Haven, 1929.
- 122 — Dougherty, (R.P.), The Sealand of Ancient Arabia, New Haven, 1932.
- 123 — Dussaud, (R.), Les Arabes en Syrie avant l'Islam, Paris, 1907.
- 124 — Fakhry, (A.) Bahria Oasi, I, Cairo, 1942.
- 125 — Fakhry, (A.), An Archaeological Journey to Yemen, I, Cairo, 1955.
- 126 — Finegan, (J.), Light from the Ancient Past, The Archaeological Background of Judaism and Christianity, I, Princeton, 1969.
- 127 — Fleisch, (H.), Introduction a l'Etude des Langues Semitiques, Paris, 1947.
- 128 — Forster, (C.), The Historical Geography of Arabia, II, London.
- 129 — Ganneau (C.), Les Nabatiens en Egypt, 1924.
- 130 — Gauthier (H.), Les Fêtes du Dieu Min, BIFAO, 2, 1931.

- 131 — Gauthier, (H.), Notes Géographiques sur le Nome Panopolite, BIFAO, 10, 1912.
- 132 — Gardiner, (A.), The Egyptian Origin of the Semitic Alphabet, JEA, 3, 1916.
- 133 — Gardiner, (A.), Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964.
- 134 — Gardiner, (A.), Egyptian Grammar, Oxford, 1966.
- 135 — Gardiner, (A.), Peet, (A.T.) and Cerny, (J.), The Inscriptions of Sinai, 2, 1955.
- 136 — Gibbon, (E.), The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, London, 1895.
- 137 — Glaser, (E.), Die Abessinier in Arabien und Africa, 1895.
- 138 — Glaser, (E.), Skizze der Geschichte und Geographie Arabiens von den ältesten Zeiten bis zum Propheten Muhammed, Berlin, 1895.
- 139 — Glob (P.V.), Archaeological Investigation in Four Arab States, 1959.
- 140 — Glueck, (N.), The Story of Nabataeans, N.Y., 1965.
- 141 — Goitein, (S.D.), Jews and Arabes, N.Y., 1955.
- 142 — Grohmann, (A.) Arabien, Munchen, 1963.
- 143 — Grohmann, (A.), al-Arab, In EI, New edition.
- 144 — Green, (F.W.), Notes on Some Inscriptions in the Etbai District, PSBA, 26, 1956.
- 145 — Hall, (H.R.), The Ancient History of the Near East, London, 1963.
- 146 — Harvey, The Oxford Companion to Classical Literature.
- 147 — Hastings, (J.), A Dictionary of the Bible, Edinburgh, 1936.
- 148 — Hitti, (P.K.), History of the Arabs, London, 1960.
- 149 — Hommel, (F.), Explorations in Arabia, Philadelphia, 1903.
- 150 — Hommel, (F.), Explorations in the Bible Land, Philadelphia, 1903.
- 151 — Hornell, (J.), Sea-Trade in Early Times, in Antiquity, 15, 1941.
- 152 — Horovity, (J.), Judaeo-Arabic Relations in Pre-Islamic Times, 1929.
- 153 — Huzayyin, (S.A.), Arabia and the Far East, Cairo, 1942.

- 154 — Ingramz, (H.), Arabic and the Isles, London, 1942.
- 155 — Jamme, (A.), Sabaeen Inscriptions from Mahram Bilquis (Marib) Baltimore, 1965.
- 156 — Jean, (C.), Les Hyksos Sont-ils les Inventures de l'Alphabet, Syria, 9, 1928.
- 157 — Jensen, (H.), Sign Symbol and Script, an Account of Man's Effort to Wright, London, 1970.
- 158 — Jaussen, (A.J.), and Savignac, (R.), Mission Archéologique en Arabie, II, Paris, 1911.
- 159 — Jones, (A.H.M.), and Monroe, (E.), Histoire de l'Abyssinie, Paris, 1935.
- 160 — Kammerer, (M. A.), La Mer Rouge, L'Abyssinie et l'Arabie depuis L'Antiquite, Paris, 1929.
- 161 — Kammerer, (M.A.), Esai sur l'Histoire Antique d'Abyssinie, Paris, 1926.
- 162 — Keller (W.), The Bible As History, (Hodder and Stoughton), 1967.
- 163 — King, (L.W.), History of Summer and Akkad, London, 1915.
- 164 — Kitchen, (K.A.), Punt and How to get there, Orientalia, 40, 1971.
- 165 — Leibovitch, (I.), Les Inscription Protosinaitiques, MIE, 24, 1934.
- 166 — Lie, (A.G.), The Inscriptions of Sargon, II, Part, I, The Annals, 1929.
- 167 — Lods, (A.), Israel, from its Beginnings to the Middle of the Eight Century, London, 1962.
- 168 — Luckenbill, (D.D.), Ancient Records of Assyria and Babylonia, II, Chicago, 1927.
- 169 — Mercer, (S.A.B.), Religion of Ancient Egypt, London, 1949.
- 170 — Margoliouth, (D.S.), The Relations Between Arabs and Israelites Prior to The Rise of Islam, London, 1924.
- 171 — Meyrowitz, (E.L.R.), The Divine Kingship in Ghana and Ancient Egypt London,. 1960
- 172 — Montgomery, (J.A.), Arabia and the Bible, Philadelphia, 1934.
- 173 — Mariette, (A.), Dier el Bahari, 1877.
- 174 — Musil, (A.), The Northern Hegaz, N.Y., 1926.
- 175 — Musil, (A.), The Northern Nejd, N.Y., 1928.

- 176 — Musil, (A.), Palmyrena, N.Y., 1928.
- 177 — Musil, (A.), in the Arabia Deserta, N.Y., 1930.
- 178 — Nallino, (G.A.), L'Egpte avait-elle des Relations directes avec l'Arabie Meridionale avant l'age des Ptoleemes, BIFAO, 30, 1931.
- 179 — Naville, (E.), le Commerce de l'Ancienne Egypte avec les Nations Voisines, Genève, 1911.
- 180 — Naville, (E.), The Temple of Dier al Bahari, III, London, 1898.
- 181 — Noth, (M.), The History of Israel, London, 1965.
- 182 — O'Leary, (De Lacy D. D), Arabia before Muhammed, London, 1927.
- 183 — Olmstead, (A.T.), A History of Assyria, Chicago, 1933.
- 184 — Oppenheim, (A.L.), Babylonian and Assyrian Historical Texts, in ANET, 1966.
- 185 — Petrie, (W.M.F.), Researches in Sinai, London, 1906.
- 186 — Philby, (H.B.), The Background of Islam, Alexandria, 1947.
- 187 — Posener, (G.), le Canal du Nil a la Mer Rouge, in chronique d'Egypte, 26, 1938.
- 188 — Pirenne (J.), le Royaume Sud-Arabe de Qataban et sa Datation, Louvain, 1961.
- 189 — Pirenne, (J.), Paleographie des Inscriptions Sud Arabes, I, Brussel, 1965.
- 190 — Reinach, (A.J.), Rapport sur les Fouilles des Coptos.
- 191 — Renan, (E.), Histoire du Peuple d'Israel, Paris, 1887.
- 192 — Rossini, (C.), in Expeditions et Possession des Habasat en Arabie,
- 193 — Rostovtzeff, (M.), The Social and Economic History of Hellenistic World, 1941.
- 194 — Roth, (C.), Ashort History of the Jewish People, London, 1969.
- 195 — Roux, (G.), Ancient Iraq, (Penguin Books), 1966.
- 196 — Ryckmans, (G.), Inscriptions Sud-Arabes, in le Museon, XII, 1942.
- 197 — Save-Soderbergh, (T.), The Navy of the Eighteenth Egyptian Dynasty, opsall, 1946.

- 198 — Schoff, (H.), *The Periplus of the Erythraean Sea*, London, 1912.
- 199 — Sprengling, (M.), *The Alphabet, its Rise and Development from the Sinai Inscriptions*, Chicago, 1931.
- 200 — Saleh, (Abdel Aziz), *The Gnbtyw of Thutmosis, III' Annales and the South Arabian Gebbanitae of Classical Writers*, BIFAO, LXXII, 1972.
- 201 — Smith, (G.A.), *Historical Geography of the Holy Land*, N.Y., 1932.
- 202 — Smith, (E.), *The Migration of Early Cultures*, 1915.
- 203 — Smith, (S.), *Events in Arabia in the 6th Century, A.D.*, in BSOAS, 1954.
- 204 — Solver, (C.), *Egyptian Shipping of about 1500 B.C. Mariner's Mirror*, 22, 1936.
- 205 — Sorabji, (I.J.) *Elements of the Science of Languages*, Calcutta, 1932.
- 206 — Starcky (J.), *Palmyreniens, Nabateens et Arabes du Nord avant l'Islam*, 1956.
- 207 — Tarn, (W.W.), *Ptolemy II and Arabia*, JEA, 15, 1929.
- 208 — Thacker, (T.W.), *The Relationship of Semitic and Egyptian Verbal Systems*, Oxford, 1954.
- 209 — Thomas, (B.), *Arabia Felix, Across the Empty Quarter of Arabia*, N.Y., 1932.
- 210 — Unger, (M.F.), *Unger's Bible Dictionary*, Chicago, 1970.
- 219 — Vincent, (W.), *The Periplus of the Erythraean Sea*, II, London, 1805.
- 212 — Watt, (W.M.), *Muhammud at Mecca*, Oxford, 1965.
- 213 — Wainwright, (G.A.), *The Bull Standards of Egypt*, JEA, 19, 1933.
- 214 — Weigall, (A.E.P.), *Travels in the Upper Egyptian Desert*, London, 1909.
- 215 — Wells, (H.G.), *A Short History of the World*, (Penguin Books), 1965.
- 216 — Winckler, (H.), *Rock-drawings of Southern Upper Egypt*, I, London, 1938.
- 217 — Winnett, (F.V.), *Notes on the Lihyanite and Thamudic Inscriptions*, le Museon, 1938.
- 218 — Wilson, (A.), *The Persian Gulf*, London, 1928.
- 219 — Wiseman, (D.J.), *The Vassal — Treaties of Esarhaddon*, London, 1958.

- 220 — Wiseman, (D.J.), *Chronicles of Chaldaean Kings*, London, 1959.
- 221 — Wissmann (H. Von) und Hofner (M.), *Beitrage zur Historischen Geographie des Vorislamischen Sudarabien*, Wiesbaden, 1953.
- 222 — Wright (W.), *an Account of Palmyra and Zenibia with Travels and Adventures in Bashan and Desert*, London, 1895.
- 223 — Woolley, (Sir.L.), *History of Mankind*, UNESCO, I, 1963.
- 224 — *Encyclopaedia Biblica*.
- 225 — *Encyclopaedia of Islam*.
- 226 — *The Jewish Encyclopaedia*.

إختصارات

Abbreviations

- AJSL: The American Journal of Semitic Languages and Literatures.
- ANET: Ancient Near Eastern Texts.
- ARE: Ancient Records of Egypt.
- BASOR: Bulletin of the American Schools of Oriental Research.
- BIFAO: Bulletin de l'Institut Francais d'Archaeologie Orientale du Caire.
- BSOAS: Bulletin of the Schools of Oriental and African Studies.
- CAH: The Cambridge Ancient History.
- CHI: The Cambridge History of Islam.
- CIS: Corpus Inscriptionum Semiticarum.
- EB: Encyclopaedia Biblica.
- EI: Encyclopaedia of Islam.
- JE: The Jewish Encyclopaedia.
- JEA: The Journal of Egyptian Archaeology.
- JNES: The Journal of Near Eastern Studies.
- PSBA: Proceeding of the Society of Biblical Archaeology.